غير مرخصة للطباعة

المحور السابـع

فقه الأمة ودعوتها وصحوتها وحركتها الإسلاميَّة

١٣٠

من أجل صحوة راشدة

الإمـام يوسف القرضاوي

نسخة مجانية

من الدستور الإلٰهي للبشرية

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨١].

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

٥

من مشكاة النبوة الخاتمة

عن أبي هُرَيْرة ﷺ، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ الله يبعث لهذه الأُمَّة على رأس كلِّ مائة سنة من يُجَدِّد لها دِينَها**». رواه أبو داود.

عن أبي هريرة ﷺ، أن النبيَّ ﷺ قال: «**بدأ الإسلام غريبًا، وسيعود غريبًا كما بدأ، فطُوبى للغرباء**». رواه مسلم.

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المؤلف[١]

الحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، ملء السماوات والأرض، وملء ما شاء ربنا من شيء بعد، وصلوات الله وسلامه على صفوة خلقه، وخاتم رسله، سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه، ومن اتبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

(أمَّا بعد)

فهذه بحوثٌ ومقالات، كتبت في أوقات متباعدة، ونشرت في مجلات مختلفة[٢].

وممَّا لا زلت أذكره: أنَّ بعض هذه المقالات نشرتها عقب خروجي من معتقل السجن الحربي في صيف سنة (١٩٥٦م)، وذلك في مجلة

(١) كتبت هذه المقدمة في طائرة الخليج المتجهة من الدوحة إلى الكويت في مساء الأربعاء جمادى الآخرة (١٤٠٨هـ) الموافق (١٩٨٨/٢/٣م).

(٢) منها: ما كُتب ونشر منذ أكثر من ثلاثين عامًا.
ومنها: ما نشر في هذا العام (١٩٨٨م).
وبعضها نشر في القاهرة: في مجلات منبر الإسلام، ونور الإسلام، والأزهر.
وبعضها نشر في بيروت: في مجلات المجتمع، والشهاب.
وبعضها في قطر: في مجلات الدوحة، والأمة، والحق.
وبعضها نشر في الهند: في مجلة البعث الإسلامي، التي تصدر عن ندوة العلماء.

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

«منبر الإســلام» الَّتي كانت تصدرهــا مراقبة الشــؤون الدينيَّة بوزارة الأوقاف المصريَّة.

كنتُ أوِّقع على هذه المقالات باسم: «يوسف عبد الله» خشية أنْ يثير لقب «القرضاوي» اعتراض «المباحث» الَّتي وقفت لي بالمرصاد في كلِّ طريق، في ذلك الحين، وحرَّمت علــيَّ أي عمل حكومي في أيِّ مجال يتَّصل بالجماهير، كما فــي مجال التدريس، ومجال الدعوة والإرشــاد وهما المجالان المتاحان لي، واللائقان بتخصُّصي وتكويني.

وقد حدث أنْ تقدَّمت للتدريس في معاهد الأزهر، وكان اسمي أوَّل اسم في قائمة المقبولين حيث كان مجموعي أكبر مجموع في المتقدِّمين من كلِّيَّات الأزهر الثلاث: أصول الدين، والشريعة، واللغة العربيَّة، ولكن حين عرضت الأسماء على المباحث حذف اسمي من بينها.

لهذا حرصتُ على ألَّا أوقِّع باسمي الصريح المعروف، حتَّى لا أنبِّه الأجهزة المتربِّصة.

ومن الطرائف الَّتي تذكر هنا: أنَّه كان في الشــؤون الدينيَّة بالأوقاف موظَّف إداري اسمه: يوســف عبد الله، فلمَّا نُشِــرَ مقالي الأوَّل بعنوان: «أمنيــة عُمَريَّة» بتوقيع «يوســف عبد الله» ظــنَّ هذا الموظَّــف أنَّ أحد المشايخ كالشــيخ الغزالي أو الشــيخ سيِّد ســابق، كتب المقال ووقَّعه باسمه، ليستفيد منه، ويصرف المكافأة المخصَّصة له، وقد سارع بالفعل لطلب المكافأة وأوشــك أنْ يتمَّ له ذلك، لولا أنَّ زميــلًا له كان يعرف السرَّ، فأخبره من هو كاتب المقال.

وهكذا كادت تضيع الجنيهات الخمسة، الَّتي كانت في ذلك الوقت ثروةً كبيرةً بالنسبة لي!

QaradawiBooks.com

لا أدري لماذا طافت بـــي هذه الخواطر، وأنا أكتب هذه الســـطور؟ ولكنْ لعلَّ في سردها عظةً وعِبْرة، وتذكرة لنفسي وللناس، وقد أمرنا الله أنْ نذكر بأســـاء الماضي، لنقارنها بنعماء الحاضر، فنذكر آلاء الله تعالى وفضله، ونشكره على ما أنعم وأولى.

ومن هنا ذكَّر الله سبحانه رســـولَه ﷺ والمؤمنين معه في المدينة بما كانوا عليه في مكة، فقال: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمۡ وَأَيَّدَكُم بِنَصۡرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٦].

والمهمُّ في هـــذه التقدمة: أنَّ هذه الكلمـــات ـ وإنْ اختلفت أزمنتها وأمكنتها وظروف كتابتها ـ تنبع كلُّها من عينٍ واحدة، هي عين الإسلام الشامل المتوازن، الإسلام القويُّ الَّذي لا يضعف، الآمل الَّذي لا ييئس، المقاوم الَّذي لا يلقي الســـلاح. فجَّرت هذه العينُ هموم المسلمين الَّتي لا تزيدها الأيام إلَّا الامتداد طولًا وعرضًا وعمقًا!

كما أنَّها جميعًا ـ قديمها وحديثها ـ تتَّجه إلى مصبٍّ واحدٍ، وتسعى إلى هدفٍ واحدٍ: هو الإســـهام في إيجاد صحوة إسلاميَّة حقيقيَّة أصيلة، تتميَّز بالرُّشْـــد والنُّضْج والاســـتنارة؛ صحوة عقول ذكيَّة، وقلوب نقيَّة، وعزائم فتيَّة، صحوة تعرف غايتها، وتعرف طريقها، تعرف منْ لها، ومنْ عليها، من هو صديقها، ومن هو عدوُّها.

صحوة تعمل على تجديد الدين، وإنهاض الدنيا به؛ صحوة تُصحِّح المفاهيـــم المغلوطة، وتقوِّم المســـالك العُوج، وتوقـــظ العقول النائمة، وتُحَرِّك الحياة الراكدة، وتنفخ الرُّوح في الجُثَّة الهامدة، فتُعيد إليها الحياة والحركة والنماء.

QaradawiBooks.com

وها نحن بحمد الله نرى من معالم هـذه الصحوة اليوم، ما لم يكن واضحًا للكثيرين من قبل.

ونحمد الله أنَّ مـداد العلماء ودماء الشـهداء، وكلمـات الحداة، وجهود الدعاة، وجهاد المصلحين، لم تذهب سُـدًى، ولم تكن ـ كما ظنَّ الظانُّون ـ صيحةً فـي وادٍ، أو نفخةً في رمادٍ، بـل آتت أُكُلها في حينها بإذن ربها.

وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۝ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم: ٢٤، ٢٥].

أسأل الله الكريم ذا الفضل العظيم الَّذي جعل يوم هذه الصحوة خيرًا من أمسها، أنْ يجعل غدها خيرًا من يومها. اللهمَّ آمين.

﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧].

يوسف القرضاوي

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية

في تصحيح المفاهيم
تجديد الدِّين في ضوء السُّنَّة

عن أبي هُرَيْرة رضي الله عنه: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ الله يبعث لهذه الأُمَّة على رأس كلِّ مائة سنة من يُجَدِّد لها دِينَها**».

ذكره أبو داود أوَّل كتاب «الملاحم»: باب ما يذكر في قرن المائة[١].

سند الحديث:

قال: حدثنا سليمان بن داود المَهْرِي، أخبرنا ابنُ وهب، أخبرني سعيد بن أبي أيُّوب، عن شَرَاحيلَ بن يزيد المَعَافِري، عن أبي علقمة، عن أبي هُرَيْرة ـ فيما أعلم ـ عن رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ الله يبعث...**» الحديث.

قال أبو داود: رواه عبد الرحمٰن بن شُرَيْح الإسكندراني، لم يَجُز به شراحيلَ. أي: أوقفه عليه[٢].

قال المنذري في «مختصر السنن» رقم (٤١٢٣): وعبد الرحمٰن بن شُرَيْح الإسكندراني ثقة، اتَّفق البخاري ومسلم على الاحتجاج بحديثه،

(١) قال السهارنفوري: أي أنَّ المائة سنة: قرن، فيحدث فيه المحدثات فيبعث على رأسها المجدد. انظر: بذل المجهود (٣٣٥/١٢)، تحقيق د. تقي الدين الندوي، نشر مركز الشيخ أبي الحسن الندوي للبحوث والدراسات الإسلامية، الهند، ط١، ١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م.

(٢) رواه أبو دواد في الملاحم (٤٢٩١).

QaradawiBooks.com

وقد عضله[١]. يعني: أسقط راويَيْن من سنده: أبا علقمة، وأبا هُرَيْرة؛ فالحديث المُعْضَل هو الَّذي سقط من إسناده راويان على التوالي.

وقول أبي داود هذا لا يُعَلِّلُ الحديث؛ لأنَّ عبد الرحمٰن إذا كان قد عضله، فإنَّ سعيد بن أبي أيُّوب قد وصله وأسنده، وهي زيادة من ثقة، فتُقْبَل، كما هو مقرَّر في أصول الحديث.

وسند الحديث صحيح، رجالُه ثقات، رجالُ مسلم، ولذا صحَّحه غيرُ واحد، ورمز السُّيُوطي لصحَّته في «الجامع الصغير»[٢]، وأقرَّه عليه شارحه العلَّامة المُناوي[٣]، وذكر أنَّ الحاكم صحَّحه[٤]، وقال: قال الزَّيْن العراقي وغيره: سنده صحيح. وذكره الشيخ الألباني في «سلسلة أحاديثه الصحيحة» رقم (٥٥٩).

كلمة عن موضوع الحديث:

هذا الحديث الشريف يتكون من جملة خبرية واحدة، تتضمَّن نبأً من أنباء الغيب، أخبر به من لا ينطق عن الهوى، وهو لا يعلم من الغيب إلَّا ما أعلمه الله تعالى به، كما قال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ۝ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ...﴾ [الجن: ٢٦، ٢٧].

وقد رواه أبو داود في كتاب «الملاحم» من «سننه»، والملاحم جمع مَلْحَمة، ويُراد بها: المعارك الَّتي تقع في المستقبل بين المسلمين

(١) مختصر السنن للمنذري (١٢٠/٣)، تحقيق صبحي حلاق، نشر مكتبة المعارف، السعودية، ط١، ١٤٣١هـ ـ ٢٠١٠م.

(٢) الجامع الصغير (٢٧٥٥).

(٣) انظر: فيض القدير شرح الجامع الصغير (٢٨١/٢ ـ ٢٨٢)، نشر المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ط١، ١٣٥٦هـ، ونقل أيضًا: عن زين الدين العراقي تصحيحه لإسناده.

(٤) لم يذكر في المطبوع تصحيحًا له. ولكن نقل تصحيحه المناوي في فيض القدير (٢٨٢/٢).

QaradawiBooks.com

وأعدائهم، مأخوذة من التحام الجيشين المتقابلين، مثل ما نبَّأ به ﷺ من قتال المسلمين للتُّرْكِ والرُّوم واليهود وغيرهم.

وقد تحقَّق بعض ما أخبر به ﷺ، ولا زال البعض في ضمير الغيب، ونحن نوقن أنَّه واقع لا محالة في حينه الَّذي قدره الله، فما كَذَب محمَّد ﷺ يومًا، ولا كُذِب.

وموضوع الملاحم يُذكَر عادةً مع موضوعين آخرين هما: الفتن، وأشراط الساعة، وقد تُضَمُّ هذه كلُّها، وقد يفرد بعضُها عن بعض. وكلُّها تتحدَّث عن المستقبل، وما يُجْرِي الله فيه من أحداث.

والحقيقة أنَّ هذه الموضوعات: الفتن، والملاحم، وأشراط الساعة، من الأشياء الَّتي يجب على أهل البصيرة من العلماء أنْ يُوسِعُوها بحثًا، ولا يدَعوها للمتعجِّلين الَّذين يفرُّون منها بإنكارها إنكارًا كُلِّيًا، أو لآخرين يُصَدِّقون كلَّ ما يُروى فيها دون تمحيص، أو لغيرهم ممَّن يُؤَوِّلُونها على غير وجهها.

هدف الحديث:

يهدف هذا الحديث إلى بعث الأمل في نفوس الأُمَّة بأنَّ جذوتها لن تخبو، وأنَّ دينَها لن يموت، وأنَّ الله يُقَيِّض لها كلَّ فترة زمنيَّة (قرنٍ من الزمان) من يُجَدِّد شبابها، ويُحيي مَوَاتها.

وليس المقصود برأس المائة سنةُ مائةٍ أو مائةٍ وواحد مثلًا، بل أواخر كلِّ قرن، وأوائل القرن الَّذي يليه، فكلٌّ يطلق عليه «رأس»، بل نحن في الواقع لا نستطيع أنْ نجزم بأنَّ رأس المائة من الهجرة النبويَّة، أو من الوفاة، أو من البَعثة كما سنُبَيِّن بعدُ.

QaradawiBooks.com

المهمُّ أنَّ الله لا يَدَعُ هـذه الأُمَّة، دون أنْ يهيِّئ لهـا من يوقظها من سُبات، ويجمعها من شَتات.

ونحن في حاجة إلـى تأكيد هذا المعنى، حتَّى نقـاوم موجة اليأس الَّتي علا مداها، وأنَّه لا فائدة ولا أمل، وأنَّ الإسـلام في إدبار، والكفر في إقبال، وأنَّ علامات الساعة الصغرى قد ظهرت، وستظلُّ هكذا حتَّى تظهر العلامات الكبرى، وتقوم السـاعة على من لا يقول: «الله الله»، كما جاء في «الصحيح»[(١)].

ويؤكِّد قومٌ هذا المعنى بأحاديث يفهمونها على غير وجهها، مثل حديـث: «**بدأ الإسـلام غريبًـا، وسـيعود غريبًا كما بـدأ، فطُوبى للغرباء**»[(٢)].

ونَسِي هؤلاء أنَّ غربة الإسلام لا تعني ضعفَه بإطلاق، وكذلك غربة المتمسـكين به والداعين إليـه، لا تعني ضعفهـم أو هوانهم، بل تعني تميُّزَهم، وعدمَ ذوبانهم في غيرهم، فهم كالشَّامة في النَّاس.

وفي بعض روايـات هذا الحديث، وصف النبـيُّ ﷺ الغرباء بقوله: «**الَّذين يُصْلِحُون ما أفسـد النَّاس من سُـنَّتي**»[(٣)]، فهؤلاء الغرباء ليسوا يائسين ولا سلبيِّين في مجتمعاتهم، بل يصلحون ما أفسد النَّاس من سُنن الإسلام، ويُحيون ما مات من آدابه وأخلاقه.

---

(١) إشارة إلى حديث أنس مرفوعًا: «لا تقوم السـاعة حتى لا يقال في الأرض: الله، الله». رواه مسلم في الإيمان (١٤٨)، وأحمد (١٢٠٤٣)، عن أنس.

(٢) رواه مسلم في الإيمان (١٤٥)، وأحمد (٩٠٥٤)، عن أبي هريرة.

(٣) رواه الترمذي في الإيمان (٢٦٣٠)، وقال: حديث حسـن. والطبراني (١٦/١٧)، عن عمرو بن عوف المزني.

QaradawiBooks.com

وليس في الحديث ما يدلُّ على أنَّ هذه الغربة عامَّة وشاملةٌ ودائمة، فقد تكون غربةً في بلدٍ دون آخر، وفي قومٍ دون غيرهم، وفي زمنٍ دون زمن، كما ذكر ابن القَيِّم[١]، ثمَّ يتبدَّل الحال، فيصبح الضعيف قويًّا، والمقهور منصورًا.

ويستدلُّون هنا كذلك بحديث أنس عند البخاري: «**لا يأتي عليكم زمانٌ إلَّا والَّذي بعدَه شرٌّ منه**»[٢]، ولا ينبغي أنْ يؤخذ هذا الحديث على ظاهره وإطلاقه وعمومه.

فقد رأى بعض العلماء له تأويلًا حسنًا، ذكره الحافظ ابنُ حجر في شرحه، وهو: أنَّ الحديث مرادٌ به خصوصُ من سمعوه من الصحابة، وإنْ فهم أنس رضي الله عنه منه العموم[٣]. يعني: أنَّ النبي ﷺ أراد من هذا الحديث أنْ يُرشد هذه المجموعة الَّتي سمعت من أصحابه أنْ يُهيِّئوا أنفسَهم لتغيير الزمان، بعد عهد النبوَّة، حتَّى لا يصدمَهم الواقعُ الَّذي يعيشون بعدَه، والتغيرات المذهلة الَّتي سيشهدونها، ولا يدفعهم ذلك إلى زعزعة الثقة بدينهم ومنهجهم.

ولولا ذلك الفهم لتناقض الحديث مع الواقع، فقد كان زمنُ عمرَ بن عبد العزيز خيرًا مِن زمن مَنْ قبله مِنْ بني أُمَيَّة.

---

(١) انظر: مدارج السالكين لابن القيم (١٩٦/٣)، تحقيق محمد حامد الفقي، نشر دار الكتاب العربي، بيروت، ط ٢، ١٣٩٣هـ ـ ١٩٧٣م.

(٢) رواه البخاري في الفتن (٧٠٦٨)، عن أنس.

(٣) قال ابن حجر: واستدل ابن حبان في صحيحه بأنَّ حديث أنس ليس على عمومه بالأحاديث الواردة في المهدي، وأنَّه يملأ الأرض عدلًا، بعد أنْ مُلئت جورًا اهـ. فتح الباري (٢١/١٣)، نشر دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩هـ.

QaradawiBooks.com

وكذلك زمنُ نور الدِّين محمود[١] الشهيد، وصلاحُ الدِّين الأيُّوبي[٢] ـ اللَّذَيْن حرَّر الله على أيديهما أرض الإسلام من الصَّليبيِّين، وأحيا بهما السُّنَّة، وأمات البدعة ـ كان خيرًا من أزمنة من قبلهما.

وكذلك لو أُخِذَ الحديث على ظاهره كما يفهمه كثيرون، لتناقض مع الأحاديث الَّتي دلَّت على ظهور الإسلام، وانتشاره قبل قيام الساعة، وخصوصًا عند ظهور ذلك الخليفة أو الأمير الصالح الَّذي يملأ الأرض عدلًا، كما مُلئت ظلمًا وجورًا، وهو الَّذي اشتهر باسم «المَهديِّ»، وعند نزول المسيح عيسى ابن مريم ليحكمَ بالإسلام، ولا يقبل دينًا غيرَه[٣].

---

(١) هو محمود بن زنكي (نور الدين) المقلب بالملك العادل: ملك الشام وديار الجزيرة ومصر، وهو أعدل ملوك زمانه وأجلهم وأفضلهم، وكانت سيرته في صلاحه وعدله وحرصه على إقامة حكم الله في الداخل، وجهاد عدو الله في الخارج أشبه بسيرة الخلفاء الراشدين. قاتَل الصليبيين، وكان موفقًا في حروبه، وبنى المدارس والجوامع، والخانات في الطريق، وهو أوَّل من بنى دارًا للحديث، وكان محبًّا للعلم، مكرمًا للعلماء، ينهض للقائهم ولا يرد لهم قولًا... عارفًا بالفقه على مذهب أبي حنيفة دون تعصُّب، كما سمع الحديث بحلب ودمشق من جماعة، وسمع منه جماعة، (ت: ٥٦٩هـ). انظر: سير أعلام النبلاء (٥٣١/٢٠ ـ ٥٣٩)، نشر مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٣، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م، والبداية والنهاية لابن كثير (٤٨٠/١٦ ـ ٤٩٣)، تحقيق عبد الله عبد المحسن التركي، نشر دار هجر للطباعة والنشر، القاهرة، ط ١، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م، وراجع: نور الدين محمود سيرة مجاهد صادق للدكتور حسين مؤنس، نشر الدار السعودية للنشر والتوزيع، جدة، ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م.

(٢) هو أبو المظفر يوسف بن أيوب بن شاذي الملقب بالملك الناصر من أشهر ملوك الإسلام، وأحرصهم على إصلاح البلاد، والعدل بين العباد، قاهر الصليبيين الذي حرَّر الله على يديه بيت المقدس بعد بقائه في أيديهم أكثر من تسعين عامًا، ونصره عليهم في معركة حطين الشهيرة، حكم مصر والشام، وأسس الدولة الأيوبية، ولم يدخر لنفسه مالًا ولا عقارًا إلَّا ما بنى من مدارس ومستشفيات (ت: ٥٨٩هـ).
انظر: سير أعلام النبلاء (٢٧٨/٢١ ـ ٢٩١)، والبداية والنهاية (٦٥١/١٦ ـ ٦٥٨).

(٣) انظر: التصريح بما تواتر في نزول المسيح للعلامة أنور الكشميري، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة، نشر مكتبة المطبوعات الإسلامية، حلب، ط٣، ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م.

QaradawiBooks.com

ولا أدري لماذا تشـاع الأحاديث من هذا النوع، ويُهال التراب على نوعٍ آخر من الأحاديث الَّتي تحمل الأمل والبشـرى للأُمَّة، مثل حديث أحمد والتِّرْمِذي: «**مثل أُمَّتي مثلُ المطر لا يُدرى أوَّلُه خيرٌ أو آخره**»[١].

وحديث أحمد وابن حِبَّان والحاكم: «**بَشِّر هذه الأُمَّة بالسَّناء والدِّين والرِّفْعة والنصر والتمكين في الأرض...**»[٢].

وحديث أحمد والحاكم: «**ليبلغنَّ هذا الأمرُ** ـ يعني: هذا الدين ـ **ما بلغ الليلُ والنهار، ولا يترك اللهُ بيتَ مَـدَرٍ ولا وَبَرٍ، إلَّا أدخله هذا الدِّينَ بعزِّ عزيزٍ أو بذلِّ ذليل، عزًّا يعزُّ اللهُ به الإسلام، وذلًّا يُذِلُّ به الكفرَ**»[٣].

أمَّا ظهور بعض العلامـات الصغرى للسـاعة، فلا يعني أنَّ صفحة الإسلام قد طُوِيَت، وأنَّ الساعة ستقوم غدًا أو بعد غد، فإنَّ بعثة النبيِّ ﷺ مـن علامات السـاعة الصُّغرى، كما جـاء في «الصحيـح»: «**بُعثت أنا والساعة كهاتين**»[٤]، وأشار بإصبَعَيْه: السبَّابة والوسطى.

المسلم مطالب بالعمل لدينه ودنياه دائمًا:

على أنَّ المسلم مطالب بأنْ يعمل لدنياه منتجًا معطاءً، حتَّى تلفظ الحياة آخر أنفاسها، ولا يتوانى في عمارة الأرض لحظة واحدة، وهذا

(١) رواه أحمد (١٢٤٦١)، وقال مخرِّجوه: حديث قويٌّ بطرقه وشـواهده. والترمذي في الأمثال (٢٨٦٩)، وقال: حسن غريب. عن أنس بن مالك.

(٢) رواه أحمد (٢١٢٢٤)، وقال مخرِّجوه: حديث صحيح. وابن حبان في البر والإحسان (٤٠٥)، والحاكم في معرفة الصحابة (٣١١/٤)، وصحَّح إسناده، ووافقه الذهبي. عن أبي بن كعب.

(٣) رواه أحمد (١٦٩٥٧)، وقال مخرِّجوه: إسـناده صحيح على شرط مسلم. والحاكم في الفتن (٤٣٠/٤)، وصحَّحه على شرطهما، ووافقه الذهبي، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٩٨٠٧): رجال أحمد رجال الصحيح. عن تميم الداري.

(٤) متَّفق عليه: رواه البخاري في الرقاق (٦٥٠٤)، ومسلم في الفتن (٢٩٥١)، عن أنس.

QaradawiBooks.com

ما علمناه من رسول الله ﷺ حين قال: «**إنْ قامت الساعةُ وفي يدِ أحدِكم فسيلةٌ** ـ نخلة صغيرة ـ **فإن استطاع ألَّا يقومَ حتَّى يغرسها، فليغرِسْها**»[1].

ولماذا يغرسها والساعة قائمة، أو ستقوم للَّحظة؟ إنَّه لنْ يعيش حتَّى يجني ثمرة ما غرست يداهُ وليس هناك من سيعيش بعده حتَّى يقول: غرس لنا من قبلنا فأكلنا، ونغرس ليأكل من بعدنا! فالساعة تقوم على الجميع، الفكرة هنا هي تكريم العمل لذات العمل، ووجوب أنْ يبقى المؤمن عاملًا معطاءً إلى اللحظة الأخيرة ما دام فيه قدرة على العطاء.

فإذا كان هذا مطلوبًا لدُنيا المرء، فكيف لا يكون مطلوبًا لدِينه؟ كيف يكون الدِّين أهونَ عند الله من الدُّنْيا؟!

إنَّ المؤمنَ مطالبٌ أنْ يعمل لدِينه ما استطاع، داعيًا إلى الخير آمرًا بالمعروف ناهيًا عن المنكر، مجاهدًا في سبيل الله، مقاومًا للشر والفساد، متعاونًا مع إخوانه المؤمنين على البرِّ والتقوى، فإنَّ النصوص الَّتي أمرت بهذا كلِّه لم تنسخ، ولم تُخَصَّص بزمنٍ، بل هي باقية محكمة إلى أنْ يرث الله الأرض ومن عليها.

وقفة مع الحديث:

ولا بدَّ لنا أنْ نُبَيِّن في الحديث معنى المجدِّد، ومن يكون؟ وما الدِّين المجدَّد؟ ومن المجدِّد له؟ وما معنى التجديد؟ وما مداه؟ وجوانبه؟

---

(١) رواه أحمد (١٢٩٨١)، وقال مخرِّجوه: إسناده صحيح على شرط مسلم. والبخاري في الأدب المفرد (٤٧٩)، والضياء في المختارة (٢٧١٥)، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٩)، عن أنس.

QaradawiBooks.com

من يقوم بالتجديد؟

أمَّا من يقوم بالتجديد والإحياء، فذلك موقوفٌ على بيان معنى «مَن» هنا.

فكلمة «مَن» في الحديث الشريف «مَنْ يجدِّد» قد فهمها الأكثرون على أنَّها للمفرد؛ ولذلك اعتبروا المجدِّد فردًا واحدًا، من عباقرة الأُمَّة وأفذاذها تبعثه العناية الإلٰهية، ليجدِّد ما درس، ويقوِّي ما ضعف، ويرتق ما فتق.

ومن هنا ذكروا عددًا من المجددين الأفراد، فمجدد المائة الأولى هو خامس الراشدين عمر بن عبد العزيز (ت: ١٠١هـ)، ومجدد المائة الثانية محمَّد بن إدريس الشافعي (ت: ٢٠٤هـ)، واختلفوا في مجدد المائة الثالثة حيث كان على رأسها أكثر من علم، فذكروا أبا الحسن الأشعري (ت: ٣٢٤هـ)، وأبا العبَّاس بن سُرَيْج (ت: ٣٠٦هـ)، والنَّسائي صاحب «السنن» (ت: ٣٠٣هـ)، وذكروا في الرابعة القاضي أبا بكر الباقِلَّاني (ت: ٤٠٣هـ)، وأبا حامد الإسْفِرَايِيني (ت: ٤٠٦هـ)، وفي الخامسة أبا حامد الغزالي (ت: ٥٠٥هـ)، وفي السادسة الفخر الرازي (ت: ٦٠٦هـ)، وقيل: الرَّافِعِيُّ (ت: ٦٢٣هـ)، وفي السابعة ابنُ دَقِيقِ العيدِ (ت: ٧٠٣هـ)، وفي الثامنة: الحافظ زين الدِّين العراقي (ت: ٨٠٨هـ)، أو سراج الدين البِلْقِيني (ت: ٨٠٥هـ).

وقد نظم الحافظ جلال الدِّين السُّيوطي (ت: ٩١١هـ) منظومة في ذلك ضمَّنها أسماء المجدِّدين إلى زمنه[1]، وطمح إلى أنْ يكون هو مجدِّد المائة التاسعة، كما ادَّعى الاجتهاد المطلق، وأنكر عليه مَن أنكر مِن معاصريه.

وقد نقلها العلَّامة المُناوي في «فَيْض القدير»، وفيها قال:

(١) سمَّاها: تحفة المهتدين بأخبار المجددين.

QaradawiBooks.com

الْحَمْدُ لِلهِ الْعَظِيمِ الْمِنَّةْ ... الْمَانِحِ الْفَضْلَ لِأَهْلِ السُّنَّةْ
ثُمَّ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ نَلْتَمِسْ ... عَلَى نَبِيٍّ دِينُهُ لَا يَنْدَرِسْ
لَقَدْ أَتَى فِي خَبَرٍ مُشْتَهِرِ ... رَوَاهُ كُلُّ عَالِمٍ مُعْتَبَرِ
بِأَنَّهُ فِي رَأْسِ كُلِ مِئَةِ ... يَبْعَثُ رَبُّنَا لِدِينِ الْأُمَّة
مَنَّا عَلَيْهَا عَالِمًا يُجَدِّدُ ... دِينَ الْهُدَى لِأَنَّهُ مُجْتَهِدُ
فَكَانَ عِنْدَ الْمِئَةِ الْأُولَى عُمَرْ ... خَلِيفَةُ الْعَدْلِ بِإِجْمَاعٍ وَقَرْ
وَالشَّافِعِيُّ كَانَ عِنْدَ الثَّانِيَةْ ... لِمَا لَهُ مِنَ الْعُلُومِ السَّامِيَةْ
وَابْنُ سُرَيْجٍ ثَالِثُ الْأَئِمَّةْ ... وَالْأَشْعَرِيُّ عَدُّهُ مِنْ أُمَّةْ
وَالْبَاقِلَانِي رَابِعٌ أَوْ سَهْلٌ اوْ ... الِاسْفَرَايِينِيُّ، خُلْفٌ قَدْ حَكَوْا
وَالْخَامِسُ الْحَبْرُ هُوَ الْغَزَّالِي ... وَعَدُّهُ مَا فِيهِ مِنْ جِدَالِ
وَالسَّادِسُ الْفَخْرُ الْإِمَامُ الرَّازِي ... وَالرَّافِعِيُّ مِثْلُهُ يُوَازِي
وَالسَابِعُ الرَّاقِي إِلَى الْمَرَاقِي ... ابْنُ دَقِيقِ الْعِيدِ بِاتِّفَاقِ
وَالثَّامِنُ الْحَبْرُ هُوَ الْبِلْقِينِي ... أَوْ حَافِظُ الْأَنَامِ زَيْنُ الدِّينِ
والشَّرْطُ فِي ذَلِكَ أَنْ تَمْضِي الْمِائَةْ ... وَهْوَ عَلَى حَيَاتِهِ بَيْنَ الْفِئَةْ
يُشَارُ بِالْعِلْمِ إِلَى مَقَامِهْ ... وَيَنْصُرُ السُّنَّةَ فِي كَلَامِهْ
وَأَنْ يَكُونَ جَامِعًا لِكُلِّ فَنْ ... وَأَنْ يَعُمَّ عِلْمُهُ أَهْلَ الزَّمَنْ
وَأَنْ يَكُونَ فِي حَدِيثٍ قَدْ رُوِي ... مِنْ أَهْلِ بَيْتِ الْمُصْطَفَى وَقَدْ قَوِي
وَكَوْنُه فَرْدًا هُوَ الْمَشْهُورُ ... قَدْ نَطَقَ الْحَدِيثُ وَالْجُمْهُورُ
وَهَذِهِ تَاسِعَةُ الْمِئِينَ قَدْ ... أَتَتْ وَلَا يُخْلَفُ مَا الْهَادِي وَعَدْ
وَقَدْ رَجَوْتُ أَنَّنِي الْمُجَدِّدُ ... فِيهَا فَفَضْلُ اللهِ لَيْسَ يُجْحَدُ[1]

(١) فيض القدير (٢/٢٨٢).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

وإذا كان السيوطي قد رجَّح كون المجدِّدِ فردًا؛ لأنَّه المشهور عند الجمهور، فقد نقل المُناوي قولَ الحافظ الذهبي: «من» هنا للجمع لا للمفرد، فنقول مثلًا: على رأس الثلاثمائة: ابن سُرَيْج في الفقه، والأشعري في الأصول، والنَّسائي في الحديث، وعلى الستِّمائة مثلًا: الفخرُ الرازي في الكلام، والحافظ عبد الغني في الحديث، وهكذا[1].

وقال ابن الأَثِير في «جامع الأصول»: «قد تكلَّموا في تأويل هذا الحديث، وكلٌّ أشار إلى القائم الَّذي هو من مذهبه، وحملوا الحديث عليه، والأولى العموم، فإنَّ «مَنْ» تقع على الواحد والجمع، ولا تختصُّ أيضًا بالفقهاء، فإنَّ انتفاع الأُمَّة يكون أيضًا بأولي الأمر، وأصحاب الحديث، والقُرَّاء، والوعَّاظ، لكنَّ المبعوث ينبغي كونه مشارًا إليه في كلٍّ من هذه الفنون.

ففي رأس الأولى من أولي الأمر: عمر بن عبد العزيز، ومن الفقهاء: محمَّد الباقر، والقاسم بن محمد، وسالم بن عبد الله، والحسن، وابن سِيرِين، وغيرهم من طبقتهم، ومن القرَّاء: ابن كثير، ومن المحدِّثين: الزهري.

وفي رأس الثانية من أولي الأمر: المأمون، ومن الفقهاء: الشافعي، واللؤلؤي من أصحاب أبي حَنِيفة، وأشهب من أصحاب مالك. ومن القُرَّاء: الحَضْرَمي، ومن المُحدِّثين: ابن مَعِين، ومن الزُّهَّاد: الكَرْخي.

وفي الثالثة من أولي الأمر: المقتدر، ومن الفقهاء: ابن سُرَيْج الشافعي، والطحاوي الحنفي، والخلَّال الحنبلي، ومن المتكلِّمين: الأشعري، ومن المحدِّثين: النسائي.

(١) فيض القدير (١١/١).

QaradawiBooks.com

وفي الرابعة من أولي الأمر: القادر. ومن الفقهاء: الإسفراييني الشافعي، والخوارزميُّ الحنفي، وعبد الوهَّاب المالكي، والحُسَيْن الحنبلي[١]، ومن المتكلِّمين: الباقِلَّاني، وابن فُورَكَ. ومن المحدِّثين: الحاكم. ومن الزُّهَّاد: النوري، وهكذا يقال في بقية القرون»[٢].

وذكر الحافظ في «الفتح»[٣] ما نبَّه عليه البعض وهو: أنَّه لا يلزم أنْ يكون في رأس كل قرن واحد فقط، بل الأمر فيه كما ذكره النووي[٤] في حديث: «**لا تزال طائفةٌ من أُمَّتي ظاهرين على الحقِّ**»، من أنَّه يجوز أن تكون الطائفةُ جماعةً متعدِّدة من أنواع المؤمنين، ما بين شجاعٍ وبصيرٍ بالحرب، وفقيهٍ، ومُحَدِّث، ومُفَسِّر، وقائمٍ بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وزاهدٍ وعابد، ولا يلزم اجتماعُهم ببلدٍ واحد، بل يجوز اجتماعهم في قُطْرٍ واحد، وتَفَرُّقُهم في الأقطار، ويجوز تَفَرُّقُهم في بلد، وأنْ يكونوا في بعضٍ دون بعض، ويجوز إخلاء الأرض كلِّها من بعضهم، أوَّلًا فأوَّلًا، إلى ألَّا يبقى إلَّا فرقةٌ واحدة ببلدٍ واحد، فإذا انقرضوا أتى أمر الله.

قال الحافظ ابنُ حجر: وهذا متَّجِه، فإنَّ اجتماع الصفات المحتاج إلى تجديدها لا تنحصر في نوعٍ من الخير، ولا يلزم أنَّ جميع خصال

(١) هو الحسين بن خلف الفرَّاء.

(٢) جامع الأصول لابن الأثير (٣٢٠/١١ ـ ٣٢٥)، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط، نشر مطبعة الملاح ومكتبة الحلواني ودار البيان، ط١، ١٣٩١هـ ـ ١٩٧١م.
ويلاحظ أنَّ ابن الأثير ذكر بعض أفراد اعتبرهم من المجددين، وهم لا يرقون إلى هذا المستوى مثل أولي الأمر من العباسيين، فعليهم مآخذ كثيرة، والمقصود من نقل كلامه عدم حصر التجديد في واحد.

(٣) انظر: فتح الباري (٢٩٥/١٣).

(٤) شرح النووي على مسلم (٦٧/١٣)، نشر دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٢، ١٣٩٢هـ.

QaradawiBooks.com

الخير كلِّها في شخصٍ واحد، إلَّا أن يُدَّعَى ذلك في عمر بن عبد العزيز، فإنَّه كان القائم بالأمر على رأس المائة الأولى باتِّصافه بجميع صفات الخير، وتقدُّمه فيها، ومن ثَمَّ أطلق أحمد إنَّهم كانوا يحملون الحديث عليه (يعني: الحديث الوارد في التجديد). وأمَّا من بعدَه فالشافعي، وإن اتَّصف بالصفات الجميلة والفضائل الجمَّة، لكنَّه لم يكن القائم بشأن الجهاد والحكم بالعدل.

قال: «فعلى هذا كلُّ من اتَّصف بشيءٍ من ذلك عند رأس المائة هو المراد سواء تعدَّد أم لا»[(١)] انتهى.

مناقشة وترجيح:

والذي أختاره هنا ما ذهب إليه ابن الأثير والذهبي وغيرهما: أنَّ «مَنْ» في الحديث المذكور، تصلح للجمع كما تصلح للمفرد.

وذلك أنَّ «مَنْ» في أصل وضعها صالحة لهذا وذاك، وفي القرآن الكريم: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [النساء: ١٢٤][(٢)].

إذا عرفنا هذا، فقد يكون المجدد فردًا، يهيئه الله ليقوم بمهمة الإحياء والتجديد كعمر بن عبد العزيز، وقد قيل: فرد ذو همة، يحيي أمة! وقال الشاعر:

ليس على الله بمستنكر أنْ يجمع العالم في واحد[(٣)]!

(١) فتح الباري (٢٩٥/١٣).

(٢) وغيرها من الآيات الدالَّة على ذلك كثير.

(٣) هو الشاعر العباسي أبو نواس الحسن بن هانئ، انظر: الشعر والشعراء لابن قتيبة (٨١٣/٢)، نشر دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٣هـ.

QaradawiBooks.com

وقد يقوم بالتجديد والإحياء جماعة أو مدرسة أو حركة: فكرية، أو تربوية، أو جهادية، يتواصى أهلها بالحقِّ والصبر، ويتعاونون على البرِّ والتقوى.

وقد يقوم بمهمَّة التجديد أفرادٌ أو مجموعات متناثرة كلٌّ في موقعه ومجال اهتمامه واختصاصه، هذا في مجال العلم والفكر، وذاك في مجال السلوك والتربية، وثالث في مجال خدمة المجتمع، ورابع في مجال الحكم والسياسة، وآخرون في مجال الجهاد والمقاومة، وكلٌّ من ثُغرة من ثغر الإسلام، اتَّحدت أهدافهم ومبادئُهم، وإنْ اختلفت مواقعهم وطرائقهم.

وهنا أحبُّ أنْ أنبِّه على أمر ينبغي للعاملين للإسلام من الأفراد والجماعات أنْ يَعُوه وهو: إنَّ اختلاف مناهج العمل للإسلام، وتعدُّد الجماعات العاملة لتجديده، ليس ظاهرةً مَرَضِيَّةً، ولا أمرًا مذمومًا عند الله، ولا عند الَّذين آمنوا؛ بشرط أنْ يكون اختلاف تنوُّع وتخصُّص، لا اختلاف تضادٍّ وتناقض، بمعنى أنْ يكون هناك تكامُلٌ وتناسقٌ وتعاون بين هذه الأنواع من العمل، بحيث يُكْمِل بعضها بعضًا، ويشُدُّ بعضُها أَزْرَ بَعْض، وتجمعها القضايا الكبرى، والمواقف المصيريَّة، لتواجه العدوَّ المشترك صفًّا واحدًا كالبنيان المرصوص.

أمَّا أنْ يحاول كلٌّ منهم إثبات نفسه ونفي غيره، ويجعل أكبر همِّه بناء ذاته على أنقاض العاملين الآخرين، فإنَّه بذلك يُؤدِّي إلى ضعف القُوى الإسلاميَّة كلِّها، وتآكلها من داخلها. كما يفتح ثُغرةً للعدوِّ المشترَك، ليَضْرِبَ الجميع، وهو آمِنٌ مستريحٌ!

ويكون معنى «البعث» في الحديث: تهيئة الأسباب المواتية، وإتاحة

QaradawiBooks.com

الظروف المناسبة، وخلق المناخ الملائم، لظهور حركة التجديد للدِّين، والإحياء للأُمَّة، وَفْق سنن الله تعالى الَّتي لا تتبدَّل.

وليس معنى «البعث» إذنْ إظهار مُجَدِّد بخارقةٍ من الخوارق الكونيَّة، يهبط من السماء بغتةً، أو تنشقُّ عنه الأرض فجأة، ليُغَيِّر ما بالناس، وإن لم يُغَيِّروا هم ما بأنفسهم.

وهذا الَّذي فهمناه من الحديث، هو الموافق لما جاءت به الأحاديث الأخرى، الَّتي ناطت نُصرة الدِّين في الزمن بطائفةٍ تقوم على الحقِّ، لا بفردٍ واحد، كما في الحديث الصحيح المعروف: «**لا تزال طائفةٌ من أُمَّتي قائمين على أمر الله، لا يضرُّهم من خالفهم، حتَّى يأتيَ أمرُ الله وهم على ذلك**». وقد ورد عن عددٍ من الصحابة بألفاظٍ متقاربة[1].

بل هو الموافق لما في كتاب الله تعالى حيث يقول: ﴿ **وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ** ﴾ [الأعراف: ١٨١].

وقد ورد: هذه الآية لكم. يعني: المسلمين. وقد أُعْطِي القوم بين أيديكم مثلها[2]. يشير إلى قوله تعالى في السورة: ﴿**وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ** ﴾ [الأعراف: ١٥٩].

---

(١) منها ما رواه معاوية بن أبي سفيان: «لا يزال من أُمَّتي أُمَّة قائمة بأمر الله، لا يضرُّهم من خذلهم، ولا من خالفهم، حتى يأتيهم أمر الله وهم على ذلك». متَّفق عليه: رواه البخاري في المناقب (٣٦٤١)، ومسلم في الإمارة (١٠٣٧). وصحَّ من حديث عمر، والمغيرة، وثوبان، وأبي هريرة، وقُرَّة بن إياس، وجابر بن عبد الله، وعمران بن حُصَيْن، وعقبة بن عامر، وجابر بن سَمُرة، وأبي أُمامة، انظر: الأحاديث (٧٢٨٧) إلى (٧٢٩٦)، ومن (٧٧٠١) إلى (٧٧٠٤) من صحيح الجامع الصغير وزيادته.

(٢) رواه الطبري في التفسير (٢٨٦/١٣)، تحقيق محمود وأحمد شاكر، نشر دار التربية والتراث، مكة المكرمة.

QaradawiBooks.com

وهذا الَّذي جاء به الخبر الإلٰهي، جاء بمثله الأمر الإلٰهي في مثل قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤]، ويؤكده مثل قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٢]، وقوله: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر: ٣]، وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف: ٤]، وقوله ﷺ: «**يد الله مع الجماعة**»(١).

والحق أنَّ الفرد مهما تكن مواهبه، ومهما يكن عطاؤه، فهو محدود الطاقة والقدرة، ما لم يكن معه أعوان يشدُّون أزره، ويقوُّون أمره؛ فالمرء قليل بنفسه، كثير بإخوانه، ضعيف بمفرده، قويٌّ بجماعته وأعوانه.

ولهذا قال موسى عليه السلام ـ وهو القويُّ الأمين ـ حين كلَّفه الله بالرسالة: ﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ۝ هَٰرُونَ أَخِي ۝ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ۝ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ۝ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ۝ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ۝ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا﴾ [طه: ٢٩ ـ ٣٥]، وقال الله تعالى في جوابه: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا﴾ [القصص: ٣٥].

وهذا يدلُّنا على أنَّ الفرد مهما قَوِيَ، يحتاج إلى معونة غيره، حتَّى يشتدَّ عضدُه.

وأصرح من ذلك وأوضح قول الله تعالى لرسوله محمَّد عليه الصلاة والسلام: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ۝ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ...﴾ [الأنفال: ٦٢، ٦٣].

فقد مَنَّ الله عليه بأنَّه أيَّده بنصره والمؤمنين المؤلَّفة قلوبُهم على غايةٍ واحدة وعقيدةٍ واحدة، أي: أيَّده بالجماعة المؤمنة المترابطة.

---

(١) رواه الترمذي في الفتن (٢١٦٦)، وقال: حسن غريب. وصحَّحه الألباني في إصلاح المساجد (٦١)، عن ابن عباس.

QaradawiBooks.com

وإذا فهمنا الحديث هذا الفهم، لم نعُدْ في حاجة إلى انتظار «مجدِّد» أو مَهْدِيٍّ فرد، يهبط علينا من السماء في عُلبة مغلقة، دون أيِّ جهدٍ أو سعيٍ منَّا.

ولم نعُدْ في حاجة إلى أنْ يدَّعي واحدٌ من النَّاس أنَّه مُجَدِّد القرنِ الأوحدِ، فيقبل منه قومٌ ويرفضه آخرون، كما فعل الجلال السُّيُوطي رَحِمَهُ اللَّهُ، حين ادَّعى أنَّه مجدِّد المائة التاسعة، فأنكر عليه كثير من معاصريه.

ولم نعد في حاجة إلى أنْ يدَّعي واحدٌ أو فئةٌ لزيدٍ أو عمرٍو من النَّاس أنَّه مُجَدِّد المائة العاشرة أو الرابعة عشرة له، ولا نظير له، فيقبله من كان على مذهبه أو مشربه، ويُوسِعُه الآخرون تهكُّمًا وسخرية.

ولم نعد في حاجة إلى أنْ ينتصب كل فريق لترشيح مجدِّد منه، فأهل الحديث يُرَشِّحون مُحدِّثًا، وعلماء الكلام يقدِّمون مُتكلِّمًا، ورجال الفقه لا يذكرون إلَّا فقيهًا، وكلُّ جماعةٍ يُقدِّمون فقيهًا من مذهبهم، فالشافعيَّة يقدِّمون شافعيًّا، والحنابلة يرشِّحون حنبليًّا، وهكذا نجد المهتمِّين بالسياسة يُرَشِّحون خليفةً أو أميرًا، والمهتمِّين بالجهاد يرشحون قائدًا عسكريًّا.

إنَّنا بهذا الفهم نُشْرِكُ الأُمَّةَ كلَّها في التجديد المنشود، فهي الَّتي تفرز المُجَدِّدين، وتَصْقُلهم، وتُحَرِّكهم، وتُهيِّئ الظروف المناسبة لظهورهم وحركتهم، وهي الَّتي تساعدهم على تحقيق آمالهم، وإزالة العقبات من طريقهم، وتمدُّهم بالزاد والوقود في رحلتهم الطويلة إلى ما يَنْشُدون... وهي الَّتي تُعطي كلَّ فردٍ موقعه في قافلة التجديد، ليحرسه ويرعاه، كما قيل: أنت على ثَغَرَةٍ من ثَغَرِ الإسلام فلا يُؤْتَيَنَّ من قِبَلِك.

QaradawiBooks.com

وهنا يصبح سؤال كل مسلم: ماذا يكون دوري في حركة التجديد؟ وما واجبي نحوه؟

بدل أنْ يكون كلُّ همِّه وسؤاله: متى يظهر المُجدِّد؟!

متى يقع التجديد؟

ولكن متى يقع التجديد؟

إنَّ الحديث حدَّد للتجديد وقتًا هو «رأس كلِّ مائة سنة». ورأس الشيء أعلاه، ورأس السنة أوَّلها.

وقد تساءل الشُّرَّاح هنا عن بداية المائة، فقال المُناوي: يحتملُ المولد النبويَّ، أو من البعثة، أو الهجرة، أو الوفاة، قال: ولو قيل بأقربيَّة الثاني (أي: البعثة) لم يبعُد، لكن صنيع السُّبْكي وغيرهِ مُصَرِّحٌ بأنَّ المراد الثالث[1] (أي الهجرة) اهـ.

وذلك أنَّهم في حديثهم عن المجدِّدين اعتبروا التاريخ الهجري هو الأساس، وهو معقولٌ؛ لأنَّه التاريخ الَّذي ألهم الله المسلمين منذ عهد عمر أنْ يُؤرِّخوا به دون غيره، فلم يعتمدوا المولد ولا البعثة ولا الوفاة.

ويلاحظ أنَّهم جعلوا العِبْرة بوفاة المجدِّد في رأس القرن، كما يُوَضِّح ذلك تاريخ وَفَيَات الَّذين عيَّنوهم للتجديد، فعمر بن عبد العزيز (ت: ١٠١هـ)، والشافعي (ت: ٢٠٤هـ)، وابن سُرَيْج (ت: ٣٠٦هـ)، والباقِلَّاني (ت: ٤٠٣هـ)، والغزالي (ت: ٥٠٥هـ)، والرازي (ت: ٦٠٦هـ)، وابن دَقِيقِ العِيد (ت: ٧٠٣هـ)، والعراقي (ت: ٨٠٨هـ).

(١) فيض القدير (١٠/١).

QaradawiBooks.com

ولم يذكروا إمامًا مثل ابن تيمية برغم حركته التجديديَّة الضخمة في الفكر الإسلامي بمختلف جوانبه؛ لأنَّه تأخَّرت وفاتُه عن رأس المائة (ت: ٧٢٨هـ).

والحديث لم يقلْ: إنَّ الله يتوفَّى المجدِّد على رأس القرن، بل يبعثه على رأس القرن، ومعناه: أنَّ مُهِمَّته تبدأ في رأس القرن، وليست تنتهي عنده.

وقد رأيت العلَّامة المُناوي نبَّه على هذا المعنى، فقال: «وهنا تنبيهٌ ينبغي التفطُّن له، وهو أنَّ كل من تكلَّم على حديث: «**إنَّ الله يبعث...**» إلخ. إنَّما يُقرِّره بناءً على أنَّ المبعوث على رأس القرن يكون موتُه على رأسه، وأنت خبيرٌ بأنَّ المتبادر من الحديث إنَّما هو: أنَّ البعث ـ وهو الإرسال ـ يكون على رأس القرن، أي أوَّله. ومعنى إرسال العالم: تأهُّله للتصدِّي لنفع الأنام، وانتصابُه لنشر الأحكام، وموتُه على رأس القرن أخذٌ لا بعث! فَتَدَبَّرْ بإنصافٍ».

قال: «ثُمَّ رَأَيْتُ الطِّيبي قال: المرادُ بالبعث من انقضت المائة وهو حيٌّ عالم مشهورٌ مشارٌ إليه.

والكِرْمَاني قال: قد كان قُبَيْل كلِّ مائة أيضًا من يُصحِّح ويقومُ بأمر الدين، وإنَّما المراد من انقضت المائة وهو حيٌّ عالمٌ مُشارٌ إليه».

بل ذكر المُناويُّ أنَّه قد يكون في أثناء المائة من هو كذلك، بل قد يكون أفضل من المبعوث على رأس القرن، وأنَّ تخصيص رأس القرن، إنَّما هو لكونه مظنَّة انخرام علمائه غالبًا، وظهور البدع، ونجوم الدجَّالين[1]. وهو كلام وجيه.

(١) فيض القدير (١٢/١، ١٣).

QaradawiBooks.com

والَّذي أراه أنَّ الحديث يفيد أنَّه لا يَبزغُ قرنٌ، إلَّا ويبزغُ معه فجرٌ جديد، وأمل جديد، وبعثٌ جديد، حتَّى تستقبل الأُمَّة المسلمة القرن بقلوب يحدُوها الرجاء في غدٍ أفضل، وعزائم مُصَمِّمة على عملٍ أمثل، ونيَّات صادقةٍ في تغيير الواقع بما يوافق الواجب، وخصوصًا أنَّ المفروض في الأُمَّة أنْ تقف على رأس القرن مع نفسها وقفةَ محاسبةٍ وتقويم، محاولة أنْ تستفيد من ماضيها، وتنهض بحاضرها، وترقى بمستقبلها، مبتهلةً إلى ربِّها أنْ يكون يومُها خيرًا من أمسها، وغدها خيرًا من يومها.

ولم ينفِ الحديث وجود مُجَدِّدين في أواسط القرن وأواخره، بل هذا هو الواقع الملحوظُ لمن يقرأ تاريخ هذه الأُمَّة، ويجد من المُجَدِّدين أمثال الأئمَّة: ابن الجوزي، وابن تيمية، وابن القَيِّم، والشاطبي، وابن الوزير، وابن حَجَر، والدِّهْلوي، والشَّوْكاني، وغيرهم من الأعلام.

من المجدَّد له؟

أمَّا المجدَّد له، كما بيَّن الحديث، فهو «هذه الأُمَّة»، وهي الجماعة المحمَّديَّة، كما قال المُناوي، وأصل «الأُمَّة» الجماعة، مفرد لفظًا، جمع معنى، وقد يختصُّ بالجماعة الَّذين بُعِثَ فيهم نبيٌّ، وهم باعتبار بعثه فيهم، ودعائهم إلى الله، يُسَمَّون «أُمَّة الدعوة»؛ فإن آمنوا كلًّا أو بعضًا سُمِّيَ المؤمنون «أُمَّة الإجابة»، وهو المراد هنا، بدليل إضافة الدِّين إليها في قوله: «**دِينها**»[1].

فكلمة «**لهذه الأُمَّة**» إشارة إلى أُمَّة الإسلام، أُمَّة الإجابة، على امتداد قرونها وأجيالها، كان النبيُّ ﷺ يستحضرُها أمامَه، ويشير إليها بقوله: «**هذه الأُمَّة**».

(١) فيض القدير (١٠/١).

QaradawiBooks.com

وهي الأُمَّــة المذكورة فــي القرآن الكريــم، في مثل قولــه تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [البقرة: ١٤٣]، ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران: ١١٠].

ولا يعرف القرآن ولا السُّنَّة أُمَّة غير الأمة الإسلاميَّة، وهي أُمَّة واحدةٌ كما أمر الله تعالى، وإنْ اختلفت أجناسُها وألوانُها وأوطانها: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ [الأنبيــاء: ٩٢]، ﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴾ [المؤمنون: ٥٢].

ولا يجوز أنْ نقول كما يقول بعض الناس: «الأمم الإسلاميَّة»، فليس في الإسلام «أمم»، بل «أمة» واحدة، ولكن هناك «شعوب إسلاميَّة» داخل هذه الأمة.

والتجديد المطلق الكامل هو الَّذي يغطِّي مســاحة الأمة الإســلاميَّة كلها، ويؤثِّر فيها جميعًا، كما أنَّ التجديد الكامل هو الَّذي يشــمل العلم والعمل معًا، وقد رأينا هذا في مثل تأثير عمر بن عبد العزيز والشــافعي والغزالي ونحوهم، ممَّن أثَّروا في محيط الأمة المسلمة جمعاء، وإن كان تأثير كل منهم في جانب أو أكثر من جوانب الحياة الإسلاميَّة.

ولكن التجديد قد يكون جزئيًّا، خاصًّا بجانب من جوانب الحياة، أو بقطر من الأقطار، أو بفئة من الفئات، أو نحو ذلك، وقد يتَّسع لأكثر من جانب وأكثر من فئةٍ، وأكثر من بلد.

ما الدينُ المجدَّد؟

أمَّا «المجدَّد» في الحديث فهو «الدِّين»، ولكن ما المراد بـ «الدِّين» في الحديث؟

QaradawiBooks.com

وكلمة «الدِّين» ومثلها كلمة «الإسلام» إذا أطلقت تعني أحد أمرين:

أوَّلهما: المنهج الإلٰهي الَّذي بعث الله به رسوله وأنزل به كتابه، من العقائد والعبادات والأخلاق والشـرائع؛ لينظم بها علاقة الإنسان بربه، وعلاقة النَّاس بعضهم ببعض، وهو ما عبَّر عنه علماء الإسلام الدين بأنه: «وضع إلٰهي سـائق لذوي العقول باختيارهم إيَّاه إلى الصَّلاح في الحال والفلاح في المآل»[1].

وهذا المعنى ـ بالنظر إلى أُسُسِـه وأصوله ـ ثابـتٌ لا يقبل التغيير ولا التجديد من حيث هو حقيقة خارجيَّة.

والثاني: الحالة الَّتي يكون عليها الإنسـان في علاقته بالمعنى الأوَّل فكرًا وشعورًا، وعملًا، وخلقًا، وفي هذا المعنى يقال: فلانٌ ضعيف الدين أو قويُّه، حسُن الإسلام أو رديء الإسلام.

والدِّين هنـا متغيِّر متحرِّك، فهـو يزيدُ وينقـص، ويضعفُ ويقوى، ويصفو ويكدُر، ويستقيم وينحرف، بحسَب فهم الإنسان له، وإيمانه به، والتزامه بتعاليمه.

وهذا المعنى هو الَّـذي يقبل التجديد، ولا غـرو أنْ جاء الدين في الحديث الَّذي معنا مضافًا إلى الأمة، وليـس مضافًا إلى الله «ليجدِّد لها دينها» فالتجديد ينصبُّ على دين الأمة، وليس على دين الله تعالى.

معنى التجديد:

وبهذا نرى أنَّـه لا معنى لإنكار بعض العلماء عبـارة «التجديد» في الدِّين، وتوجُّسـهم خيفة أنْ يسـتخدمها بعض المنحرفين فيما لا يقبله

(١) كشاف اصطلاحات العلوم والفنون للتهانوي (٨١٤/١)، تحقيق د. علي دحروج، نشر مكتبة لبنان، ط١، ١٩٩٦م.

QaradawiBooks.com

الإسلام، فلسنا أحرص على الدِّين ممَّن بعثه الله به، وقد نطق بهذه الكلمة وصحَّ بها الحديث، فلم يعُد يسع مسلمًا أنْ يتخوَّف من استعمالها، وإنَّما المهمُّ هو تحديد مدلولها حتَّى لا يستخدمها كلُّ فردٍ أو كلُّ فريق بما يحلو له.

فما معنى التجديد هنا؟!

نقل العزيزي في «شرحه للجامع الصغير» عن العلقمي: أنَّ معنى التجديد: إحياء ما اندرس من العمل بالكتاب والسُّنَّة والأمر بمقتضاهما[١]، فجعل التجديد ينصبُّ على «العمل».

وقال المُناوي في معنى «**يُجَدِّد**»: يبيِّن السنَّة من البدعة، ويكثر العلم، وينصر أهله، ويكسر أهل البدعة[٢]، فجعل التجديد منصبًّا على «العلم».

وفي مقامٍ آخر قال: يُجَدِّد ما اندرس من أحكام الشريعة، وما ذهب من معالم السُّنَن، وما خَفِيَ من العلوم الظاهرة والباطنة[٣]. وهو يشمل العلم والعمل.

والتجديد المطلق يشمل العلم والعمل جميعًا.

وأودُّ أنْ أنبِّه هنا على معنى مهمٍّ في قضيَّة التجديد، وهو: أنَّ التجديد لشيءٍ ما، هو محاولة العودة به إلى ما كان عليه يوم نشأ وظهر، بحيث يبدو مع قدمه كأنَّه جديد، وذلك بتقوية ما وَهَى منه، وترميم ما بلي، ورتْق ما انفتق، حتَّى يعود أقرب ما يكون إلى صورته الأولى.

(١) السراج المنير للعزيزي (٣٨٢/١)، نشر المطبعة الخيرية، مصر، ١٣٠٤هـ.
(٢) فيض القدير (٢٨١/٢، ٢٨٢).
(٣) فيض القدير (١٠/١).

QaradawiBooks.com

فالتجديد ليس معناه تغيير طبيعة القديم، أو الاستعاضة عنه بشيء آخر مستحدَث مبتكَر، فهذا ليس من التجديد في شيء.

ولنأخذ بذلك مثلًا في الحسيَّات؛ إذا أردنا تجديد مبنًى أثريٍّ عريق، فمعنى تجديده: الإبقاء على جوهره وطابعه ومعالمه، وكل ما يبقي على خصائصه، وترميم كل ما أصابه من عوامل التعرية، وتحسين مداخله، وتسهيل الطريق إليه، والتعريف به إلخ، وليس من التجديد في شيء أنْ نهدمه، ونقيم عمارة ضخمة على أحدث طراز مكانه.

وكذلك الدين: لا يعني تجديده إظهار طبعة جديدة منه، بل يعني العودة به إلى حيث كان في عهد الرسول ﷺ وصحابته ومن تبعهم بإحسان.

وهذه العودة لا تخيف، كما يتوهم بعض الناس، إنَّها في الحقيقة العودة إلى التيسير لا إلى التعسير، إلى التبشير لا إلى التنفير، إلى الاهتمام باللباب لا الوقوف عند القشور.

إنَّ الَّذي يقرأ فقه الصحابة والتابعين يجد أنَّهم أفقه النَّاس لروح الإسلام ومقاصده، ولم يكونوا حرفيين، ولا شكليين. كانوا ملتزمين كلَّ الالتزام بشرع الله، ومع هذا كانوا يجتهدون في أحكام الوقائع بروح سمحة، تعلم النَّاس أنَّ الله لم يشرع دينه إلَّا لمصلحة عباده، وأنَّه يريد بهم اليسر ولا يريد بهم العسر، وكان منهجهم كما عبر عنه الإمام عليٌّ رضي الله عنه ترجيح «النمط الأوسط» الَّذي يلحق به التالي، ويرجع إليه الغالي[1].

(١) رواه ابن أبي شيبة في الزهد (٣٥٦٣٩).

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

إنَّ مفتاح التجديد للدين هو: الوعي والفهم، وبعبارة إسلاميَّة صميمة هو: الفقه، ولا أعني بالفقه المعنى الاصطلاحي المعروف، وهو ما يتعلق بمعرفة الأحكام الفرعيَّة من الوضوء والصلاة والرضاع والزواج والطلاق فقط، وإن كان هذا مطلوبًا ومحمودًا، ولكن أعني بالفقه: مفهومه القرآني والنبوي وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ [الأنعام: ٩٨]، وهو الَّذي نفاه الله عن المشركين وغيرهم من أعداء المسلمين حين وصفهم ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ [الأنفال: ٦٥]، وقال عن أهل جهنم: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٧٩]، وقال تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢]. وقال ﷺ: «**من يرد الله به خيرًا؛ يفقِّهْه في الدين**»[1].

والفقه هنا كما يدلُّ عليه القرآن والسُّنَّة فقهان: فقه في الكون، وفقه في الدين، فالأول يعني الفهم عن الله فيما خلق، والثاني يعني الفهم عن الله فيما شرع.

الفقه في الكون يراد به: الفقه لآيات الله في الأنفس والآفاق، ولسنَّته الَّتي لا تتبدل في الكون والإنسان، كما يدلُّ على ذلك سياق الآيات الكريمة.

والفقه في الدين هنا يعني المعرفة الَّتي نحصل عليها بعد دراستنا المتفحِّصة للإسلام من ينابيعه الصافية، بحيث يفهم فهمًا سليمًا، خالصًا من الشوائب، بعيدًا عن غلو المتطرفين، وتقصير المضيِّعين، مسترشدين بهدي الجيل الأوَّل الَّذين كانوا أفهمَ النَّاس لمقاصد الإسلام، وأحرصَهم على التزامه والعمل به، غير غافلين عما تميَّز به الإسلام من الشمول

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في العلم (٧١)، ومسلم في الزكاة (١٠٣٧)، عن معاوية.

QaradawiBooks.com

والاعتدال والتيسير، مفرِّقين بين الكليَّات والجزئيَّات، وبين الأصول والفروع من الأحكام، مميِّزين بين ما شأنه الثبات والخلود، وما شأنه المرونة والتغيُّر، مفرِّقين بين مراتب الأعمال ودرجاتها في ميزان الشرع، حسنات كانت أو سيئات، فليست الأركان كبقية الفرائض، وليست الفرائض كالواجبات، ولا الواجبات كالسنن الرواتب، ولا الرواتب كالمستحبات.

ومن ناحية أخرى: ليس الكفر كالمعاصي وإن كانت كبائر، وليست كبائر المحرَّمات كصغارها، وليست الصغائر المتَّفق عليها كالمشتبهات المختلف فيها، وليست المحرَّمات كالمكروهات، ولا المكروه تحريمًا كالمكروه تنزيهًا، ولا المكروه تنزيهًا كخلاف الأولى، ولكلِّ عمل مرتبته، ولكلِّ مرتبة حكمها.

ومن أعظم الخطل والخطر: تذويب الفروق بين هذه المراتب والأعمال، واعتبار الجميع شيئًا واحدًا، فإنَّ الجمع بين ما فرَّقه الله، كالتفريق بين ما جمعه الله، كلاهما لا يجوز.

ونحن في مطالع القرن الخامس عشر الهجري في حاجة إلى تجديد فكري ثقافي واسع عميق، تجديد يعيد للاجتهاد حياتَه ونشاطه من جديد، والاجتهاد بنوعيه: الترجيحي الانتقائي والإبداعي الإنشائي. اجتهاد يضع للمشكلات المعاصرة حلولها من داخل شريعة الإسلام، ويصف لأدواء مجتمعاتنا أدويتَها الناجعة من صيدليَّة الإسلام نفسه، لا من مصنوعات الغرب العلماني أو الشرق الإلحادي.

وهذا يوجب على المجامع العلمية المعنيَّة بهذا المجال أنْ تعين على ذلك، ولا تضيق صدرًا بالآراء الاجتهادية، كما يجب على كلِّيَّات الشريعة أنْ تجعل مناهجها وكتبها ودراستها في الفقه وأصوله وتاريخه

QaradawiBooks.com

ـ وبخاصَّة فقه القرآن والسُّـنَّة فـي ضوء المقارنة العلميـة ـ قادرة على تكويـن العقلية الفكرية المسـتقلة، المرشـحة للاجتهاد فـي مجالاته الانتقائية والإنشـائية، وأنْ تنمِّـي قدرات النابهين مـن طلابها، وتقوِّي عزائمهم على المضيِّ في هذا الطريق.

تجديد قادر على أنْ يعيد عرض الإسـلام بلغة العصر، مخاطبًا كل قوم بلسـانهم، واعيًا لخصائص العصر، وخصائص الإسلام، وخصائص الأقوام، مدرِكًا المفهوم الأوسع والأعمق لقول الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ ﴾ [إبراهيم: ٤].

فليس معنى الآية أنْ نكلِّم الإنجليز بالإنجليزية، والصينيين بالصينية فحسـب، بل أنْ نعرِف كيف ندخل إلى عقـل الإنجليزي وقلبه، وكيف ندخل إلـى عقل الصينـي وقلبه، ولـكلٍّ منهما مدخل قـد يصلح له، ولا يصلح للآخر.

وهذا يعني تطوير أجهزة الدعوة وأساليبها وقدرات رجالها، وفقًا لما يتطلَّبه العصر، ويوجبه الإسلام، ويحتِّمه ما يصنعه الآخرون.

والحديث إلى قوم وصلوا إلى سـطح القمر، غير الحديث إلى من يعيشون في الأدغال؛ فلهؤلاء لسـان، ولأولئك لسان، ولا بدَّ أنْ نعرف لسان كل قوم لنعقل عنهم، ونبيِّن لهم.

تجديد يعيد النظر في العلوم الإنسانيَّة والاجتماعية من خلال منظور إسلامي صحيح، مستمد من فلسفة الإسـلام الكلية، ونظرته إلى الدين والحياة والإنسـان والمجتمع والتاريخ، ومسـتفيد مـن كل المدارس القائمة، ومن نتائج بحوثها وتحليلاتها، دون أنْ يكون أسـيرًا لفلسـفة واحدة منها، أو لفلسفاتها جميعًا.

QaradawiBooks.com

وهذا يعني: أنْ تتحرر جامعاتنا من ربقة التقليد للفكر الغربي بشقيه الليبرالي والماركسي، وأنْ ترجع إلى الجذور والأصول في تراثنا الحافل. تأخذ منه وتضيف إليه، وتعدِّل فيه، وتنشئ أجيالًا مستقلة الفكر، تجمع بين الأصالة الإسلاميَّة والحداثة العصرية.

وهذا واجب كل الجامعات في بلادنا العربيَّة والإسلاميَّة، وواجب الجامعات الإسلاميَّة فيها على وجه الخصوص، مثل جامعة الأزهر، وجامعة الإمام محمَّد بن سعود، والجامعة الإسلاميَّة العالمية بإسلام آباد، ونحوها، وذلك بحكم تكوينها وانتمائها ونوعية القائمين عليها.

تجديد يتيح لأمة الإسلام التفوق في «فروض الكفايات» من العلوم الكونيَّة والرياضية، وتطبيقاتها «التكنولوجية» في المجالات المدنيَّة والعسكرية، ويجعل أُمَّة «سورة الحديد» قادرة على تصنيع الحديد، وعلى استغلال ثرواتها المطمورة والمنشورة، بحيث لا تكون عالة على غيرها في القوت الَّذي يُحييها، وفي السلاح الَّذي يحميها، وهذا يقتضي تطوير مناهج التعليم وأجهزته وغاياته وأساليبه، وفقًا لما يتطلبه العصر ويفرضه الإسلام، ويحتِّمه التطور.

وإذا كان أهل الشأن في الولايات المتحدة الأمريكية يتنادون بوجوب تطوير التعليم عندهم بما يتناسب وطفرات العصر، ويرون أنَّ الأُمَّة على حافة الخطر، إذا لم تتدارك مسيرتها التعليمية، فماذا يكون حالنا نحن؟

والتجديد للدين ليس فكريًّا فحسب، كما هو مفهوم الكثيرين، عندما يذكرون التجديد ويتحدثون عنه، فلا يكاد يدور بخلدهم إلَّا تجديد الاجتهاد، وإيقاظ العقل المسلم لمواجهة تطورات الحياة.

QaradawiBooks.com

ولا ريب في أنَّ تجديد الفكر، وإحياء الاجتهاد، وتصحيح الفهم، يأتي في طليعة التجديد المنشود، فإنَّ العلم يسبق العمل، والفكرة تسبق الحركة.

وحسبنا أنَّ الله بدأ وحيه لرسوله ﷺ بآية: ﴿اقْرَأْ﴾ والقراءة هي مفتاح العلم والفكر والتأمُّل.

ولكن الإنسان ليس عقلًا فقط، بل هو عقل وقلب، وجسم وروح، فلا بدَّ للتجديد أنْ يشمل كيان الإنسان كله، وهو ما رعاه الإسلام أعظم الرعاية، فأعطى لكلٍّ منها حقَّه.

وقد اتفق العلماء الَّذين عنوا بتحديد أسماء المجددين في تاريخ الإسلام، على أنَّ عمر بن عبد العزيز هو مجدد المائة الأولى (ت: ١٠١هـ)، على رغم قصر مدة خلافته، فلم تزد على ثلاثين شهرًا.

وتجديد عمر لم يكن في الجانب الفكري، أو العلمي ـ كتجديد الشافعي في رأس المائة الثانية ـ بل كان تجديده في ميدان العمل والحكم، حيث أبطل تقاليد الجور، وأحيا سنن العدل، وأزال المظالم، وردَّ الحقوق إلى أهلها، ورفض مطالب الطامعين من أهله، وأشاع جو التقوى لله والخشية منه، والرغبة فيما عنده، ولهذا اعتبروه خامس الراشدين.

فعل ذلك كله بلا ادِّعاء ولا تظاهر ولا تفاخر؛ بل كان يناجي ربه راجيًا خائفًا، فيقول: اللهمَّ إنَّ عمر ليس أهلًا أنْ ينال رحمتك، ولكن رحمتك أهل أنْ تنال عمر[1]!

(١) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٢٢٤/٤٥)، تحقيق عمرو بن غرامة العمروي، نشر دار الفكر للطباعة والنشر، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م.

QaradawiBooks.com

وقال له مرة أحد النَّاس بعد موقف من مواقفه المحمودة: جزاك الله عن الإسلام خيرًا يا أمير المؤمنين. فقال: بل جزى الله الإسلام عني خيرًا[1]!

فردَّ الحقَّ لأهله، ووضع الأمر في نصابه، فالإسلام هو الَّذي صنع عمر وليس عمر الَّذي صنع الإسلام.

تجديد الإيمان:

ونعني بالإيمان هنا: العقيدة الإسلاميَّة وأساسها التوحيد، وعناصره ثلاثة أساسية: ألَّا نبتغي غير الله ربًّا، ولا نتَّخذ غير الله وليًّا، ولا نبتغي غير الله حكمًا.

وهذا معنى شهادة أنْ لا إلٰه إلَّا الله.

وبعد التوحيد يأتي الشق الثاني من العقيدة، وهو الإيمان بالرسالة: «وأنَّ محمدًا رسول الله» ليس إلٰهًا ولا ابن إلٰه، ولا ثلث إلٰه، ولا محلًّا حلَّ فيه الإلٰه؛ إنَّما هو عبد الله ورسوله، أنزل الله عليه كتابه، وبلَّغ ما أوحي إليه من ربه، لم يخن ولم يكتم، ولم ينطق عن الهوى: ﴿**إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ**﴾ [النجم: ٤].

ومن أركان هذه العقيدة الَّتي بلَّغها محمَّد عن ربِّه: الإيمان بالآخرة والجزاء، وأنَّ الموت ليس نهاية المطاف، وأنَّ وراء هذه الحياة الفانية حياةً أخرى باقية، تُوفَّى فيها كلُّ نفس ما كسبت، وتُجْزى بما عملت: ﴿**فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۞ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ**﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

---

(١) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٣٣١/٥)، نشر دار الكتاب العربي، بيروت، ط٢، ١٣٨٧هـ ـ ١٩٦٧م.

QaradawiBooks.com

أهمية الإيمان في حياتنا:

والإيمان في حياتنا نحن المسلمين ليس شيئًا على هامش الحياة، إنَّه جوهر وجودنا، وسـرُّ بقائنا، ولبُّ رسـالتنا، وبدونـه لا معنى لحياتنا ولا مبرر لوجودنا.

وإذا كان لكلِّ شـخصيةٍ مفتاح، تسـتطيع إذا عرفته واستخدمته أنْ تعرف بـه مكنوناتها، وتفجر بـه مخزون طاقاتها؛ فإنَّ مفتاح شـخصية الإنسان في أمتنا هو الإيمان.

وكما أنك بلمسـة المفتاح أو زر خاص للسيارة في البر، أو الباخرة في البحر، أو الطائرة في الجو... تسـتطيع أن تحركهـا وتدفع بها إلى الأمام، وتقطع بها المسـافات، فكذلك نستطيع بعامل الإيمان أن نحرِّك كوامن هذه الأُمَّة، ونصنع منها وبها العجائـب وروائع البطولات، الَّتي تُحكى كالأساطير.

لقد عزف عازفون على نغمات شتَّى لتحريك هذه الأمة، فما تحركت ولا استجابت.

عزفـوا على نغمـة القوميَّة، وعلى نغمـة الاشـتراكيَّة، وعلى نغمة الديمقراطية، فما صنعوا شيئًا غير النكسات والوكسات!

ولكن حين تقود هذه الأمة بالمصحف ترفعه، أو حين تصدع بصيحة «الله أكبر»، وحينما تنـادي: يا ريح الجنة هبِّي؛ سـتجد الجماهير معك ووراءك بالملايين مستعدة للموت في سبيل الله.

هذا الإيمان المرصود في فطرة الأُمَّة، المذخور في كيانها المعنوي، أشبه ببذرة طيبة في أرض طيبة، يجب علينا أنْ نرعاها وننمِّيَها ونتعهدها

QaradawiBooks.com

ونغذيها من ناحية، وأنْ نحميَها ونحافظ عليها من المواد السامة، والحشرات الضارة، حتَّى تنمو وتزهر وتثمر وتؤتي أُكُلها بإذن ربِّها.

حاجتنا إلى تربية إيمانية:

ولهذا كنا في حاجة إلى تربية إيمانية سليمة، تزرع في القلوب المعاني الربَّانية الأصيلة: الخشية من الله، والرجاء فيه، والأنس به، والحب له، والرضا عنه، والتوكل عليه، والإنابة إليه، لأمره، والتسليم لحكمه، وحكم رسوله، كما قال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥]، ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [النور: ٥١].

ومن عناصر هذه التربية: استحضار معاني الآخرة وما يتعلق بها: الموت، القبر، البعث، الحشر، الموقف، الحساب، الصحف، الميزان، الصراط، الجنة، النار.

وبعبارة أخرى: نحن في حاجة إلى لون من الصوفية الربَّانية الإيجابية المعتدلة، الَّتي عبَّر عنها بعضهم بأنَّها: الصدق مع الحق، والخُلُق مع الخلق، وإليها يشير قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [النحل: ١٢٨].

وهذا هو روح الدين الحق: التقوى لله، والإحسان للناس؛ فالتصوف الحقيقي تقوى وأخلاق، قبل كل شيء.

يقول ابن القيم: الدين كلُّه خُلُق، فمن زاد عليك في الخُلُق، زاد عليك في الدين، وكذلك التقوى.

QaradawiBooks.com

وينقل ابن القيم في «مدارج السالكين» عن بعض متقدِّمي الصوفية في تعريف التصوف قوله: التصوف هو الخُلُق، فمن زاد عليك في الخلق فقد زاد عليك في التصوف[١].

فهذا هو التصوف الَّذي نريد: تصوُّف التربية والأخلاق القرآنية والنبويَّة، التصوف الَّذي يغذِّي الإيمان، ويرقِّق القلوب، ويحرِّك الدوافع، ويشحذ الإرادة، ويهذِّب النفس، ويقوِّم السلوك في ضوء الكتاب والسُّنَّة، وهدي السلف الصالح، فهو الَّذي نحرص عليه، وندعو إليه، وهو الَّذي يقوم بمهمة «التزكية» الَّتي أشار إليها القرآن في معالم الرسالة المحمَّديَّة: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ [الجمعة: ٢]، وهو «مقام الإحسان» الَّذي جاء في حديث جبريل المشهور، وعرفه النبي ﷺ بقوله: «**الإحسان: أنْ تعبد الله كأنَّك تراه، فإن لم تكن تراه فإنَّه يراك**»[٢].

أما إذا كان التصوف سلبية كالَّتي عبَّر عنها بعضهم بقوله: دع الخلق للخالق، واترك الملك للمالك! يريد تعطيل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فهو مرفوض، ومثل ذلك قولهم: أقام العباد فيما أراد! فهو كلام حقٍّ يراد به باطل!

وإذا كان التصوف إلغاء لشخصية المريد أمام شيخه، كما قالوا، من قال لشيخه: لِمَ؟ لم يفلح! وقالوا: المريد بين يدي الشيخ كالميت بين يدي الغاسل! فهو كذلك مرفوض.

(١) مدارج السالكين (٢/٣٠٧).

(٢) متَّفق عليه: رواه البخاري (٥٠)، ومسلم (٩)، كلاهما في الإيمان، عن أبي هريرة.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

وإذا كان التصوف تفرقة بين الحقيقة والشـريعة، كالذين قالوا: من نظر إلى الخلق بعين الشـريعة مقتهـم، ومن نظر إليهـم بعين الحقيقة عذرهم! فلسنا منه في شيء.

وإذا كان التصوف كهانة وتجارة بالدين لـدى العوام، الَّذين يقادون بالأساطير وتصنع لهم التمائم والأحجبة والتعاويذ، فهو باطل نبرأ منه.

وبالجملة: إذا كان التصوف مباءة للخرافات في الفكر، والشـركيات في العقيدة، والمبتدَعات في العبادة، والضعف في الأخلاق، والسلبيات في السلوك، والإهمال للحياة، فنحن أوَّل من يحاربه.

فإنَّما يتجدد الدين حقًّا، بالدعوة إلى «الإسلام الأول»: الإسلام الَّذي جاء به القرآن الكريم وشرحته السُّنَّة المطهرة، وفهمه الصحابة وتابعوهم بإحسـان، قبل أنْ يخلط بشـوائب الملل والنحل، وفلسفات الأمم في الشـرق والغرب، ندعو إليه خالصًا بلا شـركة، نقيًّا بلا شوائب، شاملًا بلا تجزئـة، متوازنًـا بلا غلـوٍّ ولا تفريـط، صراطًا مسـتقيمًا بلا ميل ولا انحراف إلى اليمين أو الشـمال: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين.

* * *

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

الاجتهاد والتجديد
بين الضوابط الشرعية والحاجات المعاصرة

حول قضيَّتَي الاجتهاد والتجديد كان هذا الحوار الَّذي أجرته مجلة «الأُمَّة» القطرية مع المؤلف:

*** الاجتهاد من الدين وهو أصل من أصوله الَّتي تثبت حيويَّة الإسلام وقدرته على إيجاد الحلول المناسبة لمشكلات الحياة المتجددة، فما هي المراحل التاريخيَّة لحركة الاجتهاد، وهل أغلق بابه ـ كما قال بعضهم ـ في عصور معينة، ومن يتحمل مسؤولية هذا الأمر؟ هل هي الدولة العثمانية كما قيل؟**

ـ بدأ الاجتهاد منذ عهد النبي ﷺ، كما ظهر ذلك في قصة «صلاة العصر في بني قريظة»[(١)]، وفي حديث معاذ حين أرسله النبي ﷺ إلى اليمن وسأله: «**بماذا تقضي إنْ عرض لك قضاء؟**». فقال: بكتاب الله. فقال: «**فإن لم تجد؟**». قال: فبسُنَّة رسول الله ﷺ. قال: «**فإن لم تجد؟**». قال: أجتهد برأيي ولا آلو. فأقرَّه وأثنى عليه[(٢)]. وهو حديث مشهور جَوَّدَ

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في المغازي (٤١١٩)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٧٠)، عن ابن عمر. وفي مسلم (الظهر) بدل (العصر).

(٢) رواه أحمد (٢٢٠٠٧)، وقال مخرِّجوه: إسناده ضعيف لإبهام أصحاب معاذ، وجهالة الحارث بن عمرو. وأبو داود في الأقضية (٣٥٩٢)، والترمذي في الأحكام (١٣٢٨)، وقال: هذا حديث لا نعرفه إلاَّ من هذا الوجه، وليس إسناده عندي بمتصل. وضعَّفه الألباني في =

QaradawiBooks.com

إســناده عدد من الأئمَّة مثل ابن تيمية وابن القيــم والذهبي وابن كثير وغيرهم. وقد اجتهد عدد من الصحابة فــي عدد من القضايا في غيبتهم عن النبي ﷺ، وبلغه ذلــك، فمنهم من أقرَّه على اجتهــاده، ومنهم من صحَّح خطأه.

بعد عهد النبي ﷺ اجتهد الصحابة رضي الله عنهم، وواجهوا مشــكلات الحياة المتجدِّدة في مجتمعات الحضارات العريقة الَّتي ورثوها بحلول إسلاميَّة اقتبسوها من نصوص الإسلام أو من هديه العام، ووجدوا فيه لكل عقدة حلًّا، ولكلِّ داءٍ دواء.

واجتهاد الصحابة فــي وقائع الحياة وفقههم لديــن الله في علاجها، يمثل بحقٍّ الفقه الأصيل للإســلام، الَّذي يتَّســم بالواقعية، والتيســير، ومراعاة الشريعة لمصالح العباد، دون تجاوز أو افتئات على النصوص.

= ضعيف أبــي داود (٧٧٠)، قال الخطيب في الفقيــه والمتفقــه (١٨٩/١، ١٩٠): فإن اعترض المخالف بأن قال: لا يصح هذا الخبر؛ لأنَّه يروى عن أناس من أهل حمص لم يسموا فهم مجاهيل. فالجواب: أن قول الحارث بن عمرو، عن أناس من أهل حمص من أصحاب معاذ، يدلُّ على شــهرة الحديث، وكثرة رواته... على أن أهل العلم قد تقبلوه واحتجُّوا به، فوقفنا بذلك على صحته عندهــم ـ وذكر أحاديث ـ وإن كانت هــذه الأحاديث لا تثبت من جهة الإسناد، لكن لما تلقتها الكافة عن الكافة غَنَوا بصحتها عندهم عن طلب الإسناد لها. وقال ابن القيم في إعلام الموقعين (٢٠٢/١) نحو هذا، ثم قال: كيف وشهرة أصحاب معاذ بالعلم والدين والفضل والصدق بالمحل الــذي لا يخفى، ولا يعرف في أصحابه متهم ولا كذَّاب ولا مجروح، بل أصحابه من أفاضل المسلمين وخيارهم، لا يشــك أهل العلم بالنقل في ذلك. كيف شعبة حامل لواء هذا الحديث، وقد قال بعض أئمة الحديث: إذا رأيت شعبة في إسناد حديث فاشدد يديك به.

وجود إســناده ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٣٦٤/١٣)، تحقيق عبد الرحمٰن بن محمد بن قاســم، نشــر مجمع الملك فهد، المدينة المنورة، ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٥م. وابن كثير في التفسير (٧/١)، تحقيق سامي بن محمد سلامة، نشر دار طيبة، ط٢، ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م.

QaradawiBooks.com

والناظر في فقه الخلفاء الراشدين، أو في فقه ابن مسعود وابن عباس وعائشة وغيرهم، رضوان الله عليهم، يجد ذلك واضحًا للعيان، ويوقن أنَّ الصحابة هم أفقه الأجيال لروح الإسلام.

ومن الأمثلة على ذلك: موقف عمر ومن معه من فقهاء الصحابة، مثل: عليٍّ ومعاذ، حين أبى قسمة أرض العراق على الفاتحين باعتبارها غنيمة لهم أربعة أخماسها، كما هو ظاهر قوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ...﴾ [الأنفال: ٤١]، ورأى أنْ توقَفَ الأرض لمصلحة الأجيال الإسلاميَّة، وقال لمن عارضه: أتريدون أنْ يأتي آخر النَّاس وليس لهم شيء؟!

وقال له عليٌّ ومعاذ: انظر أمرًا يسع أولَ النَّاس وآخرهم!

وقرَّر بذلك وجوب تكافل الأمة في جميع أجيالها، إلى جوار تكافلها في جميع أقطارها.

ومثل ذلك: موقف عثمان رضي الله عنه من ضالة الإبل، فقد جاء في الحديث الأمر بتركها، وقال لمن سأله عنها: «**ما لك وما لها؟ معها حذاؤها وسقاؤها، ترد الماء وتأكل الشجر حتَّى يأتي ربُّها**»[(١)]. وهكذا كانت تترك ضوالُّ الإبل في عهد أبي بكر وعمر مرسلة تتناتج، لا يمسها أحد، حتَّى يجدها صاحبها، فلما كان عهد عثمان، وجد النَّاس قد تغيَّروا، وامتدَّت الأيدي إلى ضوالِّ الإبل، فلم يعد بعضها يصل إلى أصحابها، فرأى المصلحة قد تعيَّنت في التقاطها، فعيَّن راعيًا يجمعها ويعرِّفها، فإن لم يجد صاحبها باعها وحفظ الثمن له حتَّى يجيء[(٢)].

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري (٢٤٢٩)، ومسلم (١٧٢٢)، كلاهما في اللقطة، عن زيد بن خالد الجهني.

(٢) رواه مالك في الموطأ (٢٨١٠)، تحقيق الأعظمي.

QaradawiBooks.com

وفي عهد عليٍّ ﷺ رأى تضميـــن الصُّنَّاع إذا ضاع ما في أيديهم من متاع الناس، مع أنَّ يدهم في الأصل يد أمانة، ولكن عليًّا قال: لا يُصلح النَّاس إلَّا ذاك[1]. لما رأى من تغيُّر أحوال الناس.

وهكذا كان فقه الصحابة في سعة أفقه وواقعيته وتيسيره، مع التزامه بالأصول ولا ريب.

وقد ســـار في هذا الاتجاه تلاميذ الصحابة من التابعين الَّذين كوَّنوا مدارس فقهية، فـــي كل الأمصار تعلِّم وتفتي في النـــوازل، وتواجه كل حادث بحديث، ومن هذه المـــدارس أو الجامعات الَّتي نشـــأت تحت سقوف الجوامع، برز مشـــاهير الأئمَّة أصحاب المذاهب المتبوعة مثل: أبي حنيفة، ومالك، والشافعي، وأحمد، والثوري، والأوزاعي، والطبري، وداود الظاهري.

وقد كان المجتهـــدون في القرون الأولى أكثر مـــن أن يحصروا، قد تنوَّعت مشاربهم ومداركهم في استنباط الأحكام، ولكنَّهم اتفقوا على أنَّ المصدر الأساسي لأحكام الشـــريعة هو الكتاب والسُّـــنَّة؛ فالكتاب هو الأصل، والسُّنَّة هي الشـــارحة والمبيِّنة، ويأتي بعد ذلك المصادر التبعية الأخرى، مثل: الاستحسان، والاستصلاح، وسد الذرائع، ورعاية العرف، وشـــرع من قبلنا، وغيرها مما اختلف فيه الفقهـــاء، ما بين مثبت ونافٍ، وموسع ومضيق.

المهم أنَّ الفقه نما واستبحر، وكثرت مســـائله الواقعة والمتوقعة أو المفترضة ودُوِّنت كتبه وقُعِّدت قواعده، وضبطت طرائق استنباطه بواسطة

(١) رواه البيهقي في الإجارة (١٢٢/٦).

QaradawiBooks.com

«علم الأصول» الَّذي ابتكره المسلمون، ولا يوجد عند أمة مثله، ويعد من مفاخر التراث الإسلامي.

وقد ظلَّ الفقه الإسلامي أساس القضاء والفتوى في المجتمعات الإسلاميَّة كلها، حتَّى دخل الاستعمار بلاد المسلمين، وعزل الشريعة عن التقنين والقضاء، إلَّا في دائرة ضيِّقة هي ما سمَّوه: «الأحوال الشخصية».

وليس صحيحًا ما يقال: إنَّ الإسلام قد عُطل بعد عصر الخلفاء الراشدين، فإنَّ الَّذي لا شكَّ فيه أنَّ المسلمين طوال اثني عشر قرنًا، لم يكن لهم دستور ولا قانون يتحاكمون إليه غير الشريعة الإسلاميَّة، برغم ما حدث من سوء الفهم، أو سوء التطبيق لأحكامها السمحة.

إغلاق باب الاجتهاد:

أما عن إغلاق باب الاجتهاد فنقول: أصبحت الدولة العثمانية مشجبًا يعلِّق عليه الكثيرون كل الأخطاء والعثرات في شتى المجالات، ولكن الواقع أنَّ سيطرة التقليد والتعصب المذهبي وذبول شجرة الاجتهاد المطلق، أمور سبقت الدولة العثمانية، واستشرت في أقطار العالم الإسلامي بنسب متفاوتة، وإن لم يخل عصر من العصور من مجتهدين، حتَّى وجدنا الإمام السيوطي (ت: ٩١١هـ) يعلن أنَّه بلغ مرتبة الاجتهاد المطلق، ويرجو لنفسه أنْ يكون مجدد المائة التاسعة، كما هو المشهور في فهم الحديث الوارد في «التجديد»، ويؤلف كتابه: «الرد على من أخلد إلى الأرض وجهل أنَّ الاجتهاد في كل عصر فرض».

وفي القرن الثاني عشر نجد المجدد الكبير حكيم الإسلام أحمد بن عبد الرحيم المعروف باسم: شاه ولي الله الدِّهلوي (ت: ١١٧٦هـ)،

QaradawiBooks.com

صاحب «حجة الله البالغة» وغيره من الكتب الأصيلة، وفي القرن الثالث عشـــر يظهر في اليمن الإمام المجتهد المطلق محمَّد بن عليٍّ الشوكاني (ت: ١٢٥٠هـ)، والَّذي تجلَّى اجتهاده في الفروع والأصول في كتبه: «نيل الأوطار»، و«السيل الجرار»، و«الدراري المضية»، وشرحه «الدرر البهية»، و«إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول».

على أنَّه من الإنصاف للواقع وللتاريخ أنْ نقول: إنَّ الدولة العثمانية اهتمت بالجهاد، أكثر من اهتمامها بالاجتهاد، مع أنَّ القيادة الإســـلاميَّة تحتاج إلى كلا الأمرين: الاجتهاد لمعرفة الهدى ودين الحق الَّذي بعث الله به رسوله ﷺ، والجهاد لحمايته والذود عنه.

وقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «لا بدَّ للدِّين من كتابٍ هادٍ، وحديدٍ ناصر...»[1]. مشـــيرًا إلى قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ [الحديد: ٢٥].

وكان اهتمام الدولة العثمانية بالحديد أكثر، أي: بالجانب العسكري أكثر من الجانب الفكري، حتَّى كانـــت الصدمة المذهلة بمواجهة نهضة الغرب الحديثة.

*** يرى بعضهم أنَّ حركة الاجتهاد في العصر الحديث قد بدأها «جمال الدين الأفغانـــي»، إلَّا أنَّ تلامذته من بعده عـــادوا تدريجيًّا إلى الاقتصار على النص، فأصبحوا أقرب إلى التقليد، وبخاصَّة محمَّد رشيد رضا، فهل يمكن وضع هذه الجهود في إطارها المناسب من حركة الاجتهاد؟**

(١) مجموع الفتاوى (١٣/١٠).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

ـ هـذه المقولة تدلُّ على أنَّ قائلها لم يحـط علمًا بمدلول الاجتهاد ومجاله وشـروطه، ولو أحـاط بذلك علمًـا لعرف أنَّ المسـيرة كانت تصاعدية، ولم تنتكس كما زعمـوا، بل بدأت بالعموميات والمجملات ثمَّ أخذت تتخصَّص، وبدأت رجراجة ثمَّ شرعت تنضبط، فالشيخ محمَّد عبده كان أقرب إلى الانضباط بمحكمات الشـرع من شـيخه الأفغاني بحكم ثقافته الأزهرية المتعمِّقة، والسيد محمَّد رشيد رضا كان أقرب إلى الانضباط بمحكمات الشرع من شيخه الأسـتاذ الإمام، بما له من سعة اطلاع على كتب السُّـنَّة والآثار، وإنتاج المدرسة السـلفية، الَّتي يمثلها الإمام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم، وهو الَّذي شـنَّ حملاته القوية من مجلتـه العتيدة «المنـار» علـى الجمـود والتقليد، وكتـب المقالات الإصلاحية، والفتاوى العلمية التجديدية، خلال ثلث قرن من الزمان أو يزيد، وذاعت اجتهادات الشـيخ رشـيد، وفتاواه التجديديـة في العالم الإسـلامي كله، ولقيت من القبول أكثر مما لقيته اجتهادات شيخه على قلَّتها. أما اجتهادات السيد جمال الدين فلا نكاد نعرف له اجتهادًا معينًا، وقد كانت شخصيته شـخصية الزعيم «الثائر» الموقظ للعقول، المحرِّك للمشـاعر، المثير للهمم والعزائم، لا شـخصية الفقيه المنضبط بأصول وقواعد، وكلٌّ ميسَّر لما خُلق له.

وقد أخذ على الشـيخ محمَّد عبده بعض آرائه في تأويل القرآن، كقوله في قصة آدم، وكلامه عن الطير الأبابيل، ونحو ذلك، وعذره أنَّ الحضارة الغربيَّة كانت في أوجها، وكان الانبهار بها على أشـدِّه؛ لذا غلبت عليـه النزعـة العقلية، ومحاولـة إخضاع النـصِّ حتَّى يوافق المفاهيم الجديدة، وتقريب تعاليم الدين من المثقفين بالثقافة الغربيَّة، ولو بالتكلُّف.

ومن الإنصاف لمن يريد تقويم شخص ما، وتقدير فكره وعمله، أنْ يضعه في إطاره التاريخي الخاص، لا يعــدو به زمانه ومكانه إلى زماننا نحن ومكاننا، فبعض ما يبدو لنا اليوم واضحًا مسلَّمًا، لم يكن كذلك في زمنه، فرحم الله امرأً أنصف من نفســه، وأعطى كل عامل ما يســتحقه، وأقام الشهادة لله.

*** الاجتهاد الشــرعي فرض كفاية حينًا، وفرض عين حينًا آخر، وله مدلوله ومجاله وشروطه. هل يمكن تحديد هذه القضايا حتَّى لا تختلط الأمور، ويدخل باب الاجتهاد من ليس أهلًا له؟**

ـ الاجتهاد هو: بذل غاية الجهد، واســتفراغ غاية الوسع في استنباط الأحكام الشرعية من أدلتها بطريق النظر وإعمال الفكر، وهو فرض كفاية على الأمــة في مجموعها، تأثــم إذا لم يتوافر لها عدد من أبنائها يســدُّ حاجتها فيه، وهو فرض عين على من أنس في نفسه الكفاية له، والقدرة عليه، إذا لم يجد في المسلمين من يسدُّ مسدَّه.

والاجتهاد يعمل في منطقتين:

إحداهما: منطقة ما لا نصَّ فيه، مما تركه الشارع لنا قصدًا منه، رحمةً بنا غير نســيان، ليملأ المجتهدون هذا الفراغ بما يحقق مقصد الشــارع، وفق مســالك الاجتهاد الَّتي يتبعها المجتهدون من القياس أو المصلحة المرسلة أو الاستحسان أو استصحاب الحال، أو غير ذلك. ومن الملاحظ أنَّ بعض المجالات كثرت فيها النصوص إلى حدِّ التفصيل أحيانًا، مثل: العبادات، وشؤون الأسرة؛ لأنَّها مما لا يكاد يتغير بتغير الزمان والمكان، والحاجة ماسة فيه إلى نصوص ضابطة لمنع التنازع ما أمكن ذلك. وإلى جانب ذلك توجد مجــالات تقل فيها النصوص إلى حــدٍّ كبير، أو تأتي

QaradawiBooks.com

عامَّة مجملة، لتدع للناس حرية الحركة في الاجتهاد لأنفسهم ـ في ضوء الأصول الكلية ـ وَفْق مصالح مجتمعهم، وظروف عصرهم، دون أن يجدوا من النصوص المفصَّلة ما يقيدهم، أو يعوق مسيرتهم، كما في شؤون الشورى ونظام الحكم وقوانين الإجراءات والمرافعات وغيرها.

وثانيتهما: منطقة النصوص الظنِّيَّة، سواء أكانت ظنِّيَّة الثبوت ـ ومعظم الأحاديث النبويَّة كذلك ـ أم ظنِّيَّة الدلالة، ومعظم نصوص القرآن والسُّنَّة كذلك، فوجود النص لا يمنع الاجتهاد كما يتوهم واهم، بل تسعة أعشار النصوص أو أكثر قابل للاجتهاد وتعدُّد وجهات النظر، حتَّى القرآن الكريم ذاته يحتمل تعدُّد الأفهام في الاستنباط منه، ولو أخذت آية مثل «آية الطهارة» في سورة المائدة، وقرأت ما نقل في استنباط الأحكام منها، لرأيت بوضوح صدق ما أقول.

وبجانب هاتين المنطقتين المفتوحتين للاجتهاد، توجد منطقة في الشريعة مغلقة بإحكام، لا يدخلها الاجتهاد، ولا يجد حاجة لدخولها: إنَّها منطقة القطعيات في الشريعة، مثل: وجوب الفرائض الأصلية، كالصلاة والزكاة والصيام، وتحريم المحرَّمات اليقينيَّة، كالزنى، وشرب الخمر، والربا، وأمهات الأحكام القطعية، كأحاديث المواريث المنصوص عليها بصريح القرآن، وأحكام الحدود والقصاص، وعِدد المطلَّقات والمتوفى عنهنَّ أزواجهنَّ، ونحو ذلك مما جاءت به النصوص القطعيَّة في ثبوتها، القطعيَّة في دلالاتها.

هذا النوع من الأحكام ـ الَّتي لا يدخلها الاجتهاد ـ هو الَّذي يجسِّد الوحدة الفكرية والسلوكية للأمة، فلا يجوز أن تدخل معترك الاجتهاد، ليبحث باحث:

QaradawiBooks.com

هل يجوز السماح بالخمر من أجل السياح؟

أو نعطل الصيام من أجل زيادة الإنتاج؟

أو نجمِّد الحج توفيرًا للعملة الصعبة؟

أو نعلق الزكاة اكتفاءً بالضرائب الوضعية؟

أو نعطِّل الحدود والقصاص إشفاقًا على المجرمين؟ كأنَّنا أرحم من الله بعباده! ﴿قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ١٤٠].

وهذا هو الَّذي يجب الاحتراس منه: أنْ نجتهد فيما لا يجوز فيه، أو أنْ يلج باب الاجتهاد من ليس أهلًا له، ولا تتحقق فيه شروطه، وهذا هو الَّذي دعا بعض العلماء قديمًا أنْ ينادوا بإغلاق باب الاجتهاد، ليسدوا الطريق على الأدعياء والمتطفِّلين. على أنَّ باب الاجتهاد سيظلُّ مفتوحًا، ولا يملك أحدٌ إغلاقه بعد أنْ فتحه رسول الله ﷺ، ولا يسع فردًا أو مجموعةً من العلماء أنْ يقولوا في واقعة تعرض عليهم: ليس لنا حق الاجتهاد فيها؛ لأنَّ الأقدمين لم يقولوا شيئًا في شأنها؛ إذ الشريعة لا بدَّ أنْ تحيط بكل أفعال المكلفين، وأنْ يكون لها حكم في كل واقعة، وهذا ما لا يختلف فيه اثنان.

*** لا بد من توافر شروط محددة فيمن يتصدَّى للاجتهاد الشرعي؛ فما هي هذه الشروط؟ وهل تنسحب على المجتهدين عمومًا، أم أن هناك فرقًا بين من يتصدى للاجتهاد المطلق، ومن يتصدى للاجتهاد الجزئي؟**

ـ ليس في الإسلام طبقة خاصة تحتكر الاجتهاد أو تتوارثه، إذ ليس فيه كهنوت ولا «إكليروس»، ولكن هناك عالِمًا متخصِّصًا يملك أدوات الاجتهاد وتتحقق فيه شروطه، فهو الَّذي يجتهد فيما يعرض عليه من وقائع، ويصدر فيها رأيه بما انتهى إليه اجتهاده، أصاب أو أخطأ.

QaradawiBooks.com

وشـــروط المجتهد معروفة ومفصَّلـــة في كتب أصـــول الفقه، منها: شروط علمية ثقافية، مثل: العلم باللغة العربيَّة، والعلم بالكتاب والسُّنَّة، والعلم بمواضع الإجماع المتيقن، والعلم بأصول الفقه، وطرائق القياس والاستنباط، والعلم بمقاصد الشريعة وقواعدها الكلية. وهذا الأخير هو الَّذي ركَّز عليه الإمام الشـــاطبي، وجعله سبب الاجتهاد؛ ولا بدَّ مع هذا كله أنْ يكون لديه ملكة الاســـتنباط، وهي تنمو بممارســـة الفقه ومعرفة اختلاف الفقهاء ومداركهـــم، ولهذا قالوا: «من لم يعرف اختلاف الفقهاء لم يشم رائحة الفقه»[1].

وشرط آخر نبَّه عليه الإمام أحمد، وذكره ابن القيم في كتابه: «إعلام الموقعين»، وهو: «معرفـــة الناس». وهذا أمر مهـــم: ألَّا يعيش المجتهد الَّذي يفتي النَّاس في بـــرجٍ عاجيٍّ أو صومعة منعزلـــة، ويصدر أحكامًا بعيدة عن الواقع، أو يطبِّق أحكام عصر انقضى وأناس مضوا، على عصر آخر وأناس آخرين، مغفلًا هذه القاعـــدة العظيمة: أنَّ الفتوى تتغيَّر بتغيُّر الزمان والمكان والحال والعرف، كما ذكر المحققون.

ويســـتلزم هذا اطِّـــلاع المجتهد على أحـــوال مجتمعـــه، وإلمامه بالأصول العامَّة لثقافة عصره بحيث لا يعيش فـــي وادٍ والمجتمع من حوله في وادٍ آخر، فهو يُسأل عن أشياء، وقد لا يدري شيئًا عن خلفيتها وبواعثها، وأساســـها الفلسفي أو النفســـي أو الاجتماعي، فيتخبَّط في تكييفها والحكم عليها؛ لأنَّ الحكم على الشـــيء فرع عن تصوره كما يقول علماء المنطق.

(١) رواه ابن عبد البـــر في جامع بيان العلم (١٥٢٣)، عن هشـــام بن عبيـــد الله الرازي، تحقيق أبي الأشبال الزهيري، نشر دار ابن الجوزي، السعودية، ط١، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م.

QaradawiBooks.com

والمجتهد الحقُّ هو الَّذي ينظر إلى النصوص والأدلة بعين، وينظر إلى الواقع والعصر بعين أخرى، حتَّى يوائم بين الواجب والواقع، ويعطي لكل واقعة حكمها المناسب لمكانها وزمانها وحالها.

ذكر المحقق ابن القيم أنَّ شيخه شيخ الإسلام ابن تيمية: مَرَّ في زمنه على جماعة من جنود التتار قد استغرقوا في شرب الخمر، فأنكر عليهم بعض أصحابه، فما كان منه إلَّا أنْ قال لهم: دعوهم في سكرهم ولهوهم، فإنَّما حرَّم الله الخمر؛ لأنَّها تصدُّ عن ذكر الله وعن الصلاة، وهؤلاء تصدُّهم الخمر عن قتل الأنفس وسفك الدماء[1]!

وهذا يتمشى مع قاعدة مقررة؛ وهي السكوت على منكر ما، مخافة منكر أكبر منه، ارتكابًا لأخفِّ الضررين، وأهون الشَّرَّين.

وهناك شرط آخر في المجتهد، وهو شرط دينيٌّ أخلاقيٌّ، وهو أنْ يكون عدلًا مرضيَّ السيرة، يخشى الله فيما يصدر عنه، ويعلم أنَّه في فتواه في مقام رسول الله ﷺ، فلا يتبع هواه، ولا يبيع دينه بدنياه، فما بالك بدنيا غيره؟!

وإذا كان الله تعالى قد اشترط العدالة لقبوله الشهادة في معاملات النَّاس فكيف بمن يشهد في دين الله، ويتحدَّث عن الله بأنَّه أحلَّ كذا، وحرَّم كذا، وأوجب كذا، ورخص في كذا.

وهذه الشروط العلمية الَّتي ذكرناها إنَّما يجب توافرها في حقِّ المجتهد المطلق، أي: الَّذي يجتهد في جميع أبواب الفقه ومسائله؛ أما

(١) إعلام الموقعين لابن القيم (٥/٣)، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد، نشر دار الجيل، بيروت، ١٩٧٣م.

QaradawiBooks.com

المجتهد الجزئي فيكفيه أنْ يحيط من العلم بما يتعلق بمسألته، بعد أنْ تكون عنده المؤهِّلات العلمية العامَّة، بناءً على أنَّ الاجتهاد يتجزَّأ، وهو القول الراجح عند الأكثرين.

فيستطيع أستاذ الاقتصاد أنْ يجتهد في مسألة ما في مجال تخصُّصه، إذا أحاط بكل ما ورد فيها من نصوص، وما يتعلق بها من اجتهادات، إذا كان لديه المعرفة بأصول الاستدلال وقواعد التعارض والترجيح وغير ذلك.

*** ثارت مناقشات كثيرة حول قضيَّة الاجتهاد في السنوات الأخيرة، مما أدى إلى ظهور بعض الاجتهادات المنحرفة في هذا السبيل، وما دام الأمر كذلك فلا بدَّ من وضع ضوابط تجب مراعاتها في الاجتهاد الشرعي المعاصر؛ حتَّى يمكن للمسلمين التعرف على هذه الاتجاهات ونبذها. فما هذه الضوابط في رأيكم؟**

ـ الضوابط الَّتي ينبغي مراعاتها في الاجتهاد المعاصر أستطيع أنْ أجملها في هذه النقاط:

البعد عن منطقة «القطعيَّات»، فمجال الاجتهاد ما كان دليله ظنيًّا من الأحكام، ولا يجوز لنا أنْ ننساق وراء المتلاعبين الَّذين يريدون أنْ يحوِّلوا القطعيَّ إلى ظنِّيٍّ، والمحكم إلى متشابه؛ وبذلك لا يبقى لنا معول نعتمد عليه، ولا أصل نحتكم إليه.

وكما لم نجز تحويل القطعي إلى ظنِّيٍّ، يجب ألَّا نحوِّل الظنِّيَّ إلى قطعي، ونزعم الإجماع فيما يثبت فيه الخلاف، فلا يصح أنْ نشهر سيف الإجماع في وجه كل مجتهد، كما فعل معاصرو ابن تيمية في اختياراته

QaradawiBooks.com

واجتهاداته، مع أنَّ الإمام أحمد قال: «من ادَّعى الإجماع فقد كذب، ما يدريه: لعل النَّاس اختلفوا وهو لا يدري»[١].

أخشى ما أخشاه هو الهزيمة النفسيَّة أمام الحضارة الوافدة، والاستسلام للواقع القائم في مجتمعاتنا المعاصرة، وهو واقع لم يصنعه الإسلام، ولم يصنعه المسلمون، بل صنعه لهم الاستعمار المتسلِّط، وفرضه عليهم بالقوة والمكر، وقام هذا الباطل الدخيل، في غفلة من أهل الحق الأصيل، الَّذي لدى المسلمين.

لهذا يجب رفض ذلك النوع من الاجتهاد ـ إنْ صحَّ أنْ يسمَّى اجتهادًا ـ وهو اجتهاد «التبرير للواقع» خاصة إذا كان فيه إرضاء للسلطة الحاكمة، واجتهاد «التقليد للآخرين» كاجتهاد الَّذين يحاولون منع الطلاق وتعدد الزوجات، ومحاربة الملكية الفردية، وتسويغ الفوائد الرِّبويَّة، وغيرها.

يجب أنْ يتحرَّر المجتهد من الخوف بكل ألوانه، الخوف من سلطان المتسلطين من الحكام، الَّذين يريدون فتاوى جاهزة دائمًا تبرِّر تصرُّفاتهم، وتضفي الشرعيَّة على أعمالهم. والخوف من سلطان الجامدين المقلِّدين من العلماء، الَّذين يشنُّون الغارة على كل اجتهاد جديد، وهم الَّذين كانوا وراء سجن ابن تيمية ومِحنه المتتابعة، فقد كانت محنته رَحِمَهُ اللَّهُ منهم لا من السلاطين. وأن يتحرَّر من الخوف من سلطان الجماهير والعوام الَّذين يستطيع هؤلاء المقلدون أنْ يثيروهم على كلِّ رأي مخالف لما ألفوه.

(١) انظر: مسائل الإمام أحمد بن حنبل رواية ابنه عبد الله (١٥٨٧)، تحقيق زهير الشاويش، نشر المكتب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م.

QaradawiBooks.com

يجب أنْ نفسح صدورنا للاجتهاد وإنْ خالف ما نشأنا عليه من آراء، وأنْ نتوقَّع الخطأ من المجتهد، ولا نضيق به ذرعًا؛ لأنَّه بشر غير معصوم، وقد يكون ما حسبناه خطأً هو الصواب بعينه، ورُبَّ رأي رفضه جمهور النَّاس يومًا، ثمَّ أصبح بعد ذلك هو الرأي المقبول والمرتضى، وليس في الإسلام سلطة «بابوية» تقول: هذا الرأي صواب فيغدو صوابًا، ويستحق البقاء، وذلك خطأ فيحذف من الوجود، ويحكم عليه بالإعدام[1].

*** هناك قضايا معاصرة يحتاج المسلمون فيها إلى فقه متجدد يحل لهم مشكلاتهم... ما هي أهم هذه القضايا، وكيف ترى هذه الأمور داخل إطار العملية الاجتهادية؟**

ـ نظرًا لتغير الحياة عما كانت عليه في الأعصار الماضية، وتطور مجتمعات اليوم تطورًا هائلًا في الأفكار والسلوك والعلاقات، فإنَّ عصرنا الحاضر أحوج ما يكون إلى الاجتهاد، وذلك بعد «الثورة البيولوجية» و«الثورة التكنولوجية» الَّتي يشهدها العالم، وكان من جرائها أنْ طرحت قضايا جديدة كل الجدة مثل: أطفال الأنابيب، وشتل الجنين، وبنوك الأجنَّة المجمَّدة، والتحكم في جنس الجنين، وزرع الأعضاء، ونقل الدم... وما جدَّ في العلاقات الدولية والأنظمة المالية والاقتصادية من أشياء لم يعرفها السابقون، أو عرفوا بعضها في صورة مصغرة جدًّا.

فهذه وما شابهها تقتضي اجتهادًا جديدًا، وهو ما نسمِّيه: «الاجتهاد الإنشائي» أي: الَّذي يُصدر فيه المجتهدون حكمًا جديدًا، وإن لم يتقدم من قال به من فقهائنا السابقين، ولم ينص عليه أحد؛ مثل: زكاة العمارات

(١) انظر كتابنا: الاجتهاد في الشريعة الإسلامية صـ ٢٢٥ ـ ٢٤٥، فصل: معالم وضوابط لاجتهاد معاصر قويم، نشر دار القلم، الكويت، ط ٣، ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م.

QaradawiBooks.com

والمصانع والأسهم والسندات والرواتب، واعتبار الذهب وحده أساس نصاب النقود، وإيجاب زكاة الأرض المستأجرة على كل من المالك والمستأجر: يزكي المستأجر الخارج من زرع أو ثمر... طارحًا منه الأجرة؛ لأنَّها دَيْنٌ عليه، ويزكي المالك الأجرة.

وهناك اجتهاد آخر أسمِّيه: «الاجتهاد الانتقائي»، وهو اختيار أرجح الأقوال من تراثنا الفقهي العظيم[1]، مما نراه أقرب إلى تحقيق مقاصد الشرع ومصالح الخلق، وأليق بظروف العصر؛ وقد يكون الانتقاء داخل المذاهب الأربعة، مثل: ترجيح مذهب أبي حنيفة في إيجاب الزكاة في كل ما أخرجت الأرض، وترجيح مذهب الشافعي في إعطاء الفقير كفاية العمر، وترجيح مذهب مالك في إبقاء سهم المؤلَّفة قلوبُهم.

وقد يكون الانتقاء من خارج المذاهب الأربعة؛ فالأئمَّة الأربعة ـ على جلالتهم وفضلهم ـ ليسوا كل الفقهاء، فهناك من عاصرهم من نظرائهم ومن يمكن أنْ يكون قد تفوَّق عليهم، وهناك من سبقهم من شيوخهم، وشيوخ شيوخهم من فقهاء الصحابة والتابعين لهم بإحسان، ممَّن هم أفضل منهم بيقين.

فلا حرج في الأخذ بمذهب أحدهم ترجح لدينا باعتبارات شرعية، كالأخذ بمذهب عمر رضي الله عنه في التضييق في زواج الكتابيات إذا خيف منهنَّ على نساء المسلمين أو الذرية، أو خيف عدم التدقيق في شرط الإحصان: المنصوص عليه في قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ...﴾ [المائدة: ٥]، أي: العفيفات منهن، أو الأخذ

(١) انظر كتابنا: شريعة الإسلام صالحة للتطبيق في كل زمان ومكان صـ ٧٩ ـ ١٠٤، فصل: كيف نختار من تراثنا الفقهي، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، ط ٥، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م.

QaradawiBooks.com

بمذهب عطاء في إيجاب المتعة لكل مطلقة، أو الأخذ بمذهب بعض السلف في عدم وقوع الطلاق في حالة الغضب الشديد، وهو ما فسَّروا به حديث: «**لا طلاق في إغلاق**»[1]، أو مذهب بعضهم في إيقاع طلاق الثلاث بلفظة واحدة أو في مجلس واحد، طلقة واحدة رجعيَّة فقط، وهو ما أفتى به ابن تيمية وابن القيم، ومثله: عدم إيقاع الطلاق البدعي، أي الطلاق في حالة الحيض، وكذلك الطلاق إذا أريد منه الحمل على شيء أو المنع منه، فيعامل معاملة اليمين، وفيه كفارة يمين.

ونحو ذلك الأخذ بمذهب بعض السلف في وجوب الوصية لمن لا يرث من الأقربين، وعلى أساسه قام في مصر وغيرها قانون «الوصية الواجبة» للأحفاد إذا مات آباؤهم أو أمهاتهم في حياة والديهم فلهم نصيب الوالدين بشرط ألَّا يزيد على الثلث، من باب الوصية، لا من باب الميراث.

ومن ذلك ما رجَّحه العلامة الشيخ عبد الله بن زيد آل محمود، رئيس المحاكم الشرعية والشؤون الدينيَّة بدولة قطر من الإفتاء بمذهب عطاء وطاوس من التابعين، في جواز رمي الجمرات قبل الزوال في الحج؛ تيسيرًا على الناس، ورفعًا للحرج والمشقَّات الهائلة، الَّتي يتعرَّض لها النَّاس من الزحام حول الرمي، إلى حدِّ الهلاك تحت الأقدام.

والاجتهاد الَّذي نحتاج إليه في عصرنا هو «الاجتهاد الجماعي» الَّذي يقوم في صورة مجمع فقهي عالمي، يضمُّ الكفايات العلمية العالية،

(١) رواه أحمد (٢٦٣٦٠)، وقال مخرِّجوه: إسناده ضعيف. وأبو داود (٢١٩٣)، وابن ماجه (٢٠٤٦)، كلاهما في الطلاق، وحسَّنه الألباني في صحيح أبي داود (١٦٦٥)، عن عائشة.

QaradawiBooks.com

ويصدر أحكامه بعد دراسة وفحص، بشجاعة وحرية، بعيدًا عن ضغط الحكومات، وضغط العوام.

ومع هذا أؤكِّد أنَّه لا غنى عن الاجتهاد الفردي الَّذي ينير الطريق أمام الاجتهاد الجماعي بما يقدم من دراسات متأنية مخدومة.

*** يتهم بعض الدعاة إلى الإسلام أحيانًا بأنَّهم أنصار للجمود والتشدد، ومعاداة أي تجديد، فهل يرتبط هذا بحقيقة واقعة، أم أنَّه يرتبط برغبة أخرى خفية؟**

وهل لنا أنْ نتعرف على الموقف الصحيح للدعاة من قضيَّة التجديد؟

ـ ينقسم النَّاس بشأن التجديد إلى أصناف ثلاثة:

١ ـ أعداء التجديد الَّذين يريدون أنْ يبقى كل قديم على قدمه، حكمتهم المأثورة: ما ترك الأوَّل للآخر شيئًا! وشعارهم المرفوع: ليس في الإمكان أبدع مما كان!

وهم بجمودهم يقفون في وجه أيِّ تجديد: في العلم، في الفكر، في الأدب، في الحياة، فما بالك بالدين؟! إنَّ مجرد كلمة «التجديد» بالنسبة للدين يعتبرونها هرطقة.

وفي مجال الدين وجدت فئتان ينتهي موقفهما إلى «تجميد الإسلام» تحدثت عنهما في بعض ما كتبته في مجلة «الأمة» بمناسبة القرن الخامس عشر، وهما: فئة «مقلدي المذاهب» المتعصِّبين لها، الَّذين يرفضون أي خروج عليها، ولا يعترفون بحق الاجتهاد لفرد ولا لجماعة في هذا العصر، إلَّا في إطار ما قررته مذاهبهم وحدها، بل في حدود ما حرَّره المتأخرون من علماء المذهب، وأفتوا به؛ فلا يجوز الخروج عن الرأي المفتى به في المذهب، إلى أقوال وآراء أخرى داخل المذهب نفسه!

QaradawiBooks.com

والفئة الأخرى هي الَّتي سـمَّيتها: «الظاهرية الجدد»، وأعني بهم: الحرفيين الَّذين يقفـون جامدين عند ظواهـر النصوص، ولا يمعنون النظر إلـى مقاصدهـا، ولا يفهمـون الجزئيَّات في ضـوء الكليات، ولا غرو أنْ تراهم يقيمـون معارك حامية من أجل أمور هامشـية في الدين، وهـؤلاء وأولئك قوم مخلصون للإسـلام، ولكنَّهم معه كالأم الَّتي تسـبَّبت في موت وليدها بحبسـه والإغلاق عليه خوفًا عليه من مسّ الشمس ولفح الهواء!

٢ ـ ويقابل هؤلاء: الغلاة في التجديد، الَّذين يريدون أنْ ينسـفوا كل قديم، وإنْ كان هو أسـاس هُوية المجتمع، ومبرِّر وجوده، وسـرُّ بقائه، كأنَّما يريدون أنْ يحذفوا «أمس» من الزمـن، ويحذفوا «الفعل الماضي» من اللغة، ويحذفوا «علم التاريخ» من علوم الإنسان!

وتجديد هؤلاء هو التغريب بعينه. إنَّ قديم الغرب عندهم جديد، فهم يدعون إلى اقتباسه بخيره وشره، وحلوه ومره... وهؤلاء هم الَّذين سخر منهم الرافعي رَحِمَهُ اللَّهُ حين دخل معركته معهم «تحـت راية القرآن» وقال: إنَّهم يريدون أن يجدِّدوا الدين واللغة والشمس والقمر!

وردَّ عليهم شاعر الإسـلام محمَّد إقبال بأنَّ «الكعبة لا تجدَّد بجلب حجارة لها من أوربا»! وأشار إليهم أحمد شوقي أمير الشعراء في قصيدته عن الأزهر:

وَلَوِ اسْتَطَاعُوا فِي الْمَجَامِعِ أَنْكَرُوا مَنْ مَاتَ مِـنْ آبَائِهِـمْ أَوْ عُمِّرا!
مِنْ كُلِّ سَـاعٍ فِي الْقَدِيمِ وَهَدْمِهِ وَإِذَا تَقَـدَّمَ لِلْبِنَايَـةِ قَصَّـرَا[1]!

(١) أحمد شوقي الأعمال الشعرية الكاملة (١٥١/١)، نشر دار العودة، بيروت، ١٩٨٨م.

QaradawiBooks.com

وهذا الصنف والَّذي قبله هما اللذان شكا منهما الأمير شكيب أرسلان حين قال في كتابه: «لماذا تأخَّر المسلمون؟» إنَّما ضاع الدين بين جامد وجاحد، ذلك ينفر النَّاس منه بجموده، وهذا يضلُّهم عنه بجحوده.

٣ ـ وبين هذين الصِّنْفين يبرز صِنْفٌ وَسَط، يرفض جمود الأوَّلين، وجحود الآخرين، يلتمس الحكمة من أيِّ وعاءٍ خرجت، ويقبل التجديد، بل يدعو إليه، وينادي به، على أنْ يكون تجديدًا في ظلِّ الأصالة الإسلاميَّة، يفرق بين ما يجوز اقتباسه، وما لا يجوز، ويميِّز بين ما يلائم وما لا يلائم.

إنَّه يدعو إلى أخذ العلم المادي والتقني بكل ما يستطيعه مما تحتاج الأُمَّة إليه، بشرط أنْ نهضم التكنولوجيا وننشئها، لا أنْ نشتريها ونظل غرباء عنها.

وهذا هو موقف دعاة الإسلام الحقيقيين: إنَّ شعارهم: الجمع بين القديم النافع والجديد الصالح، الانفتاح على العالم دون الذوبان فيه، الثبات على الأهداف والمرونة في الوسائل، التشديد في الأصول والتيسير في الفروع.

*** بين الاجتهاد والتجديد ـ كمفهوم معاصر ـ صلة، فإذا كان الإسلام يعتبر الاجتهاد أداةً لفهم أحكام القرآن والسُّنَّة، فهل يقبل الإسلام التجديد كما يقبل الاجتهاد؟ أم أنَّه ينافي طبيعة الدين الَّذي جاء ليضبط الحياة بعقائده وقيمه ومفاهيمه وأحكامه، أم لكل منهما مجاله الَّذي يعمل فيه؟**

ـ أدهشني إنكار عالم فاضل نسبة التجديد إلى الدين ـ في حوار مع أحد الصحفيين ـ باعتبار أنَّ الدين ثابت لا يتجدَّد ولا يتطوَّر، ودافعه إلى هذا ـ فيما أعتقد ـ خشيته أنْ يفهم النَّاس من إطلاق كلمة «تجديد الدين»

QaradawiBooks.com

إعمال يد التغيير فيه بالحذف أو الزيادة، فأراد أنْ يسدَّ الباب كلية بإنكار مطلق التجديد.

والحقيقة أنَّ الحديث النبوي الشريف قد فصل في هذه القضيَّة، وذلك فيما رواه أبو داود والحاكم والبيهقي وغيرهم، بإسناد صحيح: «**إنَّ الله يبعث لهذه الأُمَّة على رأس كل مائة سَنَةٍ مَن يُجدِّد لها دينها**»[1]، وليس بعد قول رسول الله ﷺ قول، ولا بعد حكمه حكم.

وكثير من العلماء المخلصين ينكرون أشياء ثابتة، لسوء استخدام بعض النَّاس لها، وهم بهذا يعالجون الخطأ بخطأ، والمنهج السليم هو إثبات الثابت، وإعطاؤه التفسير الصحيح، ورد كل فهم أو تفسير خاطئ، أو تطبيق غير سليم.

فتجديد الدين ثابت بالنصِّ، ولكنَّه ليس هو الاجتهاد بعينه، وإن كان الاجتهاد فرعًا منه، ولونًا من ألوانه، فالاجتهاد تجديد في الجانب الفكري والعلمي، أما التجديد فيشمل الجانبَ الفكري، والجانبَ الروحي، والجانبَ العملي، وهي الجوانب الَّتي يشملها الإسلام، وهي: العلم، والإيمان، والعمل.

وأُمَّتنا أحوج ما تكون اليوم إلى مَن يجدِّد إيمانها، ويجدِّد فضائلها، ويجدِّد معالم شخصيتها، ويعمل على إنشاء جيل مسلم يقوم في عالم اليوم بما قام به جيل الصحابة من قبل، وهو الَّذي سمَّيناه: «جيل النصر المنشود». وقد بدأ هذا التجديد رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه؛ فمنهم من قضى نحبه، ومنهم من ينتظر، من أمثال: حسن البنَّا، وعبد الحميد بن

(١) سبق تخريجه صـ١١.

QaradawiBooks.com

باديس، وأبي الأعلى المودودي، رحمهم الله تعالى، وعلى من بعدهم أنْ يكملوا المسيرة ويصحِّحوها حتَّى يتمَّ الله نوره.

*** للحديث الشريف: «إنَّ الله يبعث على رأس كل مائة سنة لهذه الأمة مَن يجدد لها دينها» أهمية في القضيَّة، فماذا تعني كلمة «مَنْ» كما وردت في الحديث؟ وهل تظل عملية ترقب المسلمين لفرد مجدد ملازمة لتفكير المسلم في بداية أو نهاية كل قرن هجري، في ظل الفهم الإسلامي لدور الجماعة في حياة الفرد؟ يبدو أنَّ مفهوم الحديث يحمِّل المسلم مهمَّات وتبعات في إطار تجديد أمر الدين.**

ـ هذا الحديث الَّذي رواه أبو داود في سننه، والحاكم في «مستدركه»، والبيهقي في «معرفة السنن والآثار»، والطبراني في «الأوسط»: يُمِدُّ الأُمَّة بشعاع قوي من الأمل، يطرد عنها ظلام اليأس، ويبعث فيها الروح والأمل في أنَّ الله لا يدَعها طويلًا لأنياب الضعف حتَّى تفترسها، ولا لدخان الهمود حتَّى يخنقها، ولا لمخالب التمزق حتَّى تقتلها، بل يهيِّئ لها بين قرن وآخر، من يجمعها من شتات، ويحييها من موات، ويوقظها من سبات، وهذا بعض معاني التجديد، فهو يُجدِّدها بالدين، ويُجدِّد بها الدين.

وقد فهم جُلُّ شراح الحديث ـ كما تبيَّن ذلك من الدراسة السابقة ـ أنَّ المراد بـ «مَنْ» يجدد الدين فيه: فرد واحد، يهبه الله من الفضائل العلمية والخُلُقيَّة والعملية ما يجدد به شباب الدين، ويعيد إليه الحيوية والقوة، عن طريق علم نافع، أو عمل صالح، أو جهاد كبير، وهذا ما جعلهم يحاولون تجديد هذا «المجدد» على رأس كل قرن، فاتفقوا حينًا، واختلفوا حينًا آخر؛ فقد اتفقوا على أنَّ مجدد المائة الأولى: خامس

QaradawiBooks.com

الراشـــدين عمر بن عبد العزيز، ومجدد المائة الثانيـــة: الإمام محمَّد بن إدريس الشـــافعي، ومجدد المائة الخامســـة: أبو حامد الغزالي، ومجدد المائة السادسة: ابن دقيق العيد، واختلفوا فيما عدا ذلك اختلافًا شاسعًا.

وأرى أنَّ «مَنْ» في الحديث، وفي لغة العرب عامَّة تدلُّ على الجمع، كما تدلُّ على المفرد، وهـــي هنا تدلُّ على الجمـــع كذلك، فمن يجدِّد الدِّين في كل قرن ليس بالضرورة فردًا معينًا، بل جماعة من الناس، قد يكون منهم العلماء، ومنهم الـــولاة، ومنهم القوَّاد، ومنهم المربُّون، وقد يكونون في بلد واحد، وقد يكونون في عـــدد من البلاد، وقد يعمل كلٌّ منهم وحده فـــي مجاله، وقد يتعاونون فيما بينهم فيما يشـــبه الرابطة أو الجمعية، وقد يكون تجديد بعضهم في مجال الدعوة والثقافة، وآخر أو آخرين في مجال الفقه، وجماعة في مجال التربية والتكوين، وغيرهم في مجال الإصلاح الاجتماعي، وفئة أخرى في المجال الاقتصادي، وخامسة في المجال السياسي، ولا مانع من تعدُّد هذه المجالات واختلاف ألوان العمل والتجديد، على أنْ يكون اختلاف تنـــوُّع وتخصُّص، لا اختلاف تضادٍّ وتناقض، أعني: أنْ يكون هناك تكامل وتناســـق وتعاون بين هذه الأنواع المختلفة من العمل، بحيث يكمل بعضها بعضًا، ويشـــدُّ بعضها أزر بعض، لا أنْ ينكر بعضها على الآخر، أو يعوق بعضها بعضًا فيؤدي ذلك إلى ضعفها جميعًا وقوة أعدائها.

إنَّ ربط التجديد بفردٍ واحـــدٍ فذٍّ، يجعل النَّاس يعيشـــون على أمل ظهوره، وكل ما عليهم انتظاره حتَّى تنشق الأرض عنه ليجدد ما عجزوا عنه، هذا ســـرُّ تعلق الجماهير بفكرة «المهدي المنتظر»، والَّذي أراه أنْ يُربط التجديد بجماعة أو مدرســـة أو حركة، يقوم كل مســـلم غيور فيها

QaradawiBooks.com

بنصيبه في موكب التجديد، ويسهم على قدر طاقته في مسيرته، ولا يصبح السؤال إذن متى يظهر المجدد للدين؟ بل يكون: ماذا أعمل لتجديد الدين؟

*** في عالمنا الإسلامي ارتبط التجديد والمجدِّدون باتجاهات مختلفة، ودعاوى باطلة من عِلمانيَّة، أو إلحاد خفي، لتجريد المسلمين من حقيقة دينهم، فهل هذا التجديد، وهؤلاء هم المجددون؟**

ـ تسمية هؤلاء بـ «المجدِّدين» تسمية خاطئة، هؤلاء «مبدِّدون» لا مجددون؛ لإنَّهم لا يمتُّون إلى التجديد الحقيقي بصلة، فتجديد شيء يعني العودة به إلى ما كان عليه عند بدايته وظهوره لأول مرة، وترميم ما أصابه من خلل على مرِّ العصور، مع الإبقاء على طابعه الأصيل، وخصائصه المميزة، هذا ما نصنعه في أي قصر أو بناء أثري عريق نريد تجديده، فلا نسمح بتغيير طبيعته، وتبديل جوهره، أو شكله أو ملامحه، بل نحرص كلَّ الحرص على الرجوع به إلى عهده الأول، أما إذا هدمناه وأقمنا مكانه بناءً شامخًا على الطراز الحديث، فهذا ليس من التجديد في شيء.

والذين أشرت إليهم في سؤالك هم من هذا النوع الَّذي يريد هدم «الجامع» القديم ليقيم على أنقاضه «كنيسة» حديثة، بكل مقوماتها وخصائصها، إلَّا أنَّه كتب عليها اسم «جامع»!

والذي سمَّى هؤلاء «مجدِّدين» إنَّما هو الاستعمار وتلاميذه وعملاؤه من المستشرقين والمنصِّرين، وتسميتهم الحقيقيَّة «عبيد الفكر الغربي»، فهم لا يرقون ليكونوا تلاميذ الفكر الغربي، فإنَّ التلميذ يناقش أستاذه، وقد يخالفه ويردُّ عليه، ولكن موقف هؤلاء من الفكر الغربي هو التبعية

QaradawiBooks.com

والعبوديَّة، الَّتي ترى أنَّ كل ما يؤمن به الغرب هو الحقُّ، وكلَّ ما يقوله فهو صدق، وكلَّ ما يفعله فهو جميل!

ويستوي في هذا عبيد اليمين وعبيد اليسار، فمنبع الجميع واحد، وكلهم فرع من الشجرة الملعونة في القرآن والتوراة والإنجيل: شجرة المادِّيَّة الخبيثة الَّتي تفرغ الإنسان من الروح، والحياة من الإيمان، والمجتمع من هداية الله؛ وقد كشف زيف هؤلاء من أدعياء التجديد أستاذنا الدكتور محمَّد البهي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه القيم: «الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي»[1].

المجدِّد الحقيقي هو الَّذي يجدِّد الدين بالدين وللدين، أمَّا من يريد تجديد الدين من خارجه، أي: بمفاهيم مستوردة وأفكار دخيلة، ويُجدِّده لمصلحة الغرب أو الشرق فهو أبعد ما يكون عن التجديد الحق.

* * *

(١) لمزيد من المعرفة بهذا الموضوع راجع كتابنا: بينات الحل الإسلامي وشبهات العلمانيين والمتغربين صـ ١٠٨ ـ ١٥٤، فصل: أصالة لا رجعية، وتحديث لا تغريب، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، ط ٥، ١٤٣٤هـ ـ ٢٠١٣م.

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

الإسلام والتطور
أيسلم التطوُّر أم يتطوَّر الإسلام؟

مما لا خلاف عليه أنَّ حياة الإنسان فوق هذا الكوكب تتغيَّر وتتطوَّر من حال إلى حال، يتَّسع في بعض المجالات هذا التطور، ويضيق في أخرى.

وأوسع مجال للتطور، إنَّما هو في الأشياء الَّتي يستخدمها الإنسان، من مطعم، وملبس، ومركب، ومسكن، وسلاح، وآلة، ونحو ذلك.

ونستطيع أنْ نضرب مثلًا واضحًا بوسائل النقل والمواصلات: فقد كان الإنسان يمشي إلى غرضه على قدميه، ثمَّ استطاع أنْ يستأنس بعض الدوابِّ ليستخدمها في الركوب والحمل كالبعير والحصان والحمار، ثمَّ اهتدى إلى صنع سفينة تجريها الرياح في البحر، وصنع عربة تجرها الدابة في البر، وظل آلاف السنين حتَّى هدي إلى صنع العربة الَّتي تدار بالبخار أو بغيره من القوى المحركة، ثمَّ صنع الطائرة الَّتي قرَّبت العالم بعضه ببعضٍ حتَّى كأنَّه قرية واحدة، وأخيرًا الصاروخ ومركبة الفضاء الَّتي استطاع بها أنْ يصعد إلى كوكب القمر.

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الوسائل إشارةً خاطفة، ولكن لها دلالتها وإيحاؤها حين قال: ﴿ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: ٨].

وبجوار هذا النوع من التطوُّر يوجد آخرُ في عالم المعاني والأفكار، وفي العادات والتقاليد، وفي المُثُل والأخلاق، والتطوُّر هنا قد يُحمَد كما قد يذمُّ؛ لأنَّه ليس دائمًا في مصلحة الإنسان، فقد يرقى به حتَّى يدنو من أفق الملائكة، وقد يهبط به حتَّى ينزل إلى دَرَك الحيوان.

والسؤال الَّذي يُطْرَح هنا: ما موقف الإسلام من التطوُّر؟ هل يقبله ويرحِّب به، أم يرفضه ويقاومه؟

مواقف النَّاس من التطور:

ولكي يتَّضح لنا موقف الإسلام جليًّا من هذا الأمر؛ ينبغي علينا أنْ نُبيِّن أنَّ هناك مواقف ثلاثة وقفها النَّاس من التطوُّر:

موقف الرفض المطلق:

الأوَّل: موقف الرفض المطلق لكل تغيير أو تجديد، في أيِّ جانبٍ من الحياة ـ علميًّا كان أو عمليًّا، ماديًّا أو معنويًّا ـ وإبقاء كلِّ قديم على قدمه، ومقاومة كلِّ جديد، من أيِّ مصدر جاء، وعلى أيِّ صورة ورد.

وهذا هو موقف الكنيسة الغربيَّة في العصور الوُسطى المسيحيَّة، فقد تبنَّت أفكارًا ونظريَّات في علوم الجغرافيا والفلك والطبِّ والأحياء وغيرها، وأضفت عليها من القداسة ما جعلها جزءًا من الدِّين نَفْسِه، ومثل ذلك ما اعتنقته من أفكارٍ وتقاليدَ بصيغة الدِّين، فلم تَعُدْ تسمح لأحدٍ أنْ يخالفها أو ينتهي به بحثٌ حُرٌّ إلى مخالفتها، وويلٌ ثمَّ ويلٌ لمن حدَّثته نفسه بمخالفتها!

وقد ذكر الأستاذ الإمام محمَّد عبده في كتابه: «الإسلام والنَّصْرانيَّة مع العلم والمدنيَّة» من مواقف الكنيسة ورجالها ما يثير العجب والدهشة.

QaradawiBooks.com

قال دي رومنيس: إنَّ قوس قُزَح ليست قوسًا حربيَّة بيد الله ينتقم بها من عباده إذا شاء، بل هي من انعكاس ضوء الشمس في نقط الماء؛ فجُلب إلى روما وحُبس حتَّى مات، ثمَّ حوكمت جثتُه وكتبُه فحكم عليها وأُلْقِيَتْ في النار!

وأظهر «بلاج» رأيه في أنَّ الموت كان يوجد قبل آدم، أي أنَّ الحيوانات كان يدركها الموت قبل أنْ يخطئ آدم بالأكل من الشجرة، فقامت لذلك ضوضاء، وارتفعت جلبة، وانتهى الجدال والجلاد إلى صدور أمر إمبراطوري بقتل كل شخص يعتقد ذلك الاعتقاد.

إنَّ القول بكرويَّة الأرض قد أحدث اضطرابًا شديدًا في عالم المسيحيَّة، مع أنَّ المسلمين قد عرفوه منذ أوَّل الخلافة العبَّاسيَّة، ولم تتحرَّك له شعرة من بدن، بل صار يذكر في كتب التفسير والتوحيد وغيرها بلا حرج.

اكتشف بعض الأمريكان تخدير المرأة عند الولادة، حتَّى لا تُحِسُّ بألمِ الطلق، فقامت قيامةُ القِسِّيسِين؛ لأنَّه يخلص المرأة من اللعنة أو العقوبة الأبديَّة الَّتي سُجِّلت عليها في التوراة في سفر التكوين، الإصحاح الثالث. ففيه: «وقال ـ أي الربُّ ـ للمرأة: تكثيرًا أكثر أتعابَ حملك، بالوجع تلدين أولادًا».

وفي الآستانة اكتشف المسلمون طريقة طبيَّة للحقن تحت الجلد ثمَّ نقلتها إلى أوربا ـ سنة (١٧٢١م) ـ امرأةٌ تُسَمَّى: ماري موناجو، فثار رجال الكهنوت وعارضوا استعمالها، وعادت هذه الشدَّة في المعارضة عند اكتشاف طريقة التطعيم ضد الجُدَري.

QaradawiBooks.com

أنشئت محكمة التفتيش في أوربا لمقاومة العلم والفكر الحرِّ، عندما خيف ظهورها بسعي تلامذة ابن رُشد وتلامذة تلامذته، وبخاصَّة في جنوب فرنسا وإيطاليا، وكان الَّذي طلب إنشاءها هو الراهب «تور كماندا».

قامت هذه المحكمة الغربيَّة بأعمالها حقَّ القيام، ففي (١٨) سنة، من سنة (١٤٨١م) إلى سنة (١٤٩٩م)، حكمت على (١٠٢٢٠) عشرة آلاف ومائتين وعشرين شخصًا بأنْ يُحرقوا وهم أحياء، فأُحْرِقوا، وعلى (٦١٨٦٠) بالشنق بعد التشهير فشُهِّروا وشُنِقوا، وعلى (٩٧٠٢٣) بعقوباتٍ مختلفة فنُفِّذَت ثمَّ أُحْرِقَت كلُّ توراة بالعبريَّة.

هذا كان موقف الكنيسة، ولكن التطوُّر كان أقوى منها، فإنَّ الشرارة الَّتي انتقلت من الشرق المسلم إلى الغرب المسيحي، ظلت تتَّسع وتعلو، حتَّى أصبحت نارًا هائلةً لا يقف دونها شيء، فلا غرو أنْ ثارت الجماهير الهائجة على الكنيسة الَّتي وقفت مع الجهل ضدَّ العلم، ومع الخرافة ضدَّ الفكر، ومع الملوك والنبلاء ضدَّ الشعب، وقالت الجماهير قولتها: «اشنُقوا آخرَ مَلِكٍ بأمعاءِ آخِرِ قِسِّيس».

موقف الخضوع المطلق للتطور:

والموقف الثاني: على نقيض الموقف السابق، فهو موقف الخضوع المُطلَق، والمسايرة العمياء لكلِّ تغييرٍ وكلِّ جديد، دون تمييزٍ بين ما يجوز وما لا يجوز، وما ينبغي وما لا ينبغي، بناءً على فكرة غربيَّة مؤدَّاها: أنَّ اللاحق خير من السابق، وأنَّ أي جديد خير من أيِّ قديم، وأنَّ مولود اليوم خير من مولود الأمس، وأكثر من ذلك إنَّهم لا يقنعون بمجاراة التطوُّر بل ينادون بتطوير كل شيء، وتغيير كل القيم والفضائل والتقاليد والشرائع، يجب قلب الحياة رأسًا على عقب.

QaradawiBooks.com

يمثل هذا الموقف في مجتمعاتنا فريقان من الناس:

فريق الأذناب المقلِّدين للمعسكر الغربي الَّذين هالهم صنم الحضارة الغربيَّة، فبرَّروا كل ما تجيء به، وتحمَّسوا له، ودعوا إليه، باسم التطوُّر والتجديد، ولو كان هو العُري والانحلال، والإلحاد والإباحيَّة، على حين بدأ الغربيُّون أنفسهم يراجعون موقفهم، وينقدون حضارتهم، ويُغيِّرون مفاهيمهم في كثير من الأمور.

وهؤلاء هم الَّذين سخر منهم أديب العربيَّة والإسلام المرحوم مصطفى صادق الرافعي فقال: إنَّهم يريدون أنْ يجدِّدوا الدين واللغة والشمس والقمر! وقال فيهم شوقي في قصيدته عن «الأزهر»[1]:

لا تَحْذُ حَذْوَ عصابةٍ مَفْتُونَةٍ يجدون كُلَّ قَدِيمِ شَيْءٍ مُنْكَرَا
ولو استطاعوا في الْمَجَامِعْ أَنْكَرُوا مَنْ مَاتَ مِنْ آبَائِهم أَوْ عُمِّرَا
مِنْ كُلِّ مَاضٍ فِي الْقَدِيمِ وَهَدْمِه وَإِذَا تَقَدَّمَ لِلْبِنَايَةِ قَصَّرَا!

والفريق الثاني هم «الماركسيُّون» الَّذين يقولون بحتمية التطوُّر، وينادون بأنَّ ما يأتي به التطوُّر أفضل ـ ولا بدَّ ـ مما كان قبله.

وهم يتحدَّثون دائمًا عن الجانب المتطور من حياة الإنسان، ويغفلون الجانب الثابت فيها.

ولا شكَّ أنَّ الحياة البشرية تتعرَّض لكثير من التغيُّر والتطوُّر، ولكن جل هذا التطوُّر إنَّما يتعلق بما حول الإنسان أكثر من تعلقه بالإنسان ذاته، أما جوهر الإنسان فهو هو.

(١) أحمد شوقي الأعمال الشعرية الكاملة (١٥/١).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

فآدم الَّذي استدرجه الشيطان بغريزة حبِّ الخلود والبقاء إلى الأكل من الشـــجرة، لا يزال ماثلًا في أبنائه الَّذين تدفعهم نفـــس الغريزة إلى مخالفات أخرى.

وابن آدم الَّذي حســـد أخاه فقتله بحجر أو نحـــوه، ثمَّ حار في دفنه حتَّى علَّمه غراب يبحث في الأرض كيف يواري سوأة أخيه، لا يزال إلى اليوم يحســـد ويقتل، وإنْ تطـــوَّرت أدوات القتل، وتنوَّعـــت في يديه، وأصبح قادرًا على إذابة الجثة ببعض الحوامض والمحلولات الكيميائيَّة حتَّى لا يبقى لها أثر!

والوازع الأخلاقي الَّذي جعل آدم بعد خطيئته يندم ويتوب ويستغفر قائـــلًا: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]، وهو الوازع الَّذي تمثل بأجلى صورة في خير ابني آدم حين قال لأخيه: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٨]، وتمثَّل ـ بصورةٍ ما ـ في ندم القاتل بعد دفن أخيه، هـــذا الـــوازع لا زال قائمًا في فطرة البشـــر وإنْ وطئت أقدامهم سطح القمر، على تفاوت بينهم.

إنَّ الدوافع الفطريَّة في الإنســـان لم تتغيَّر، وإنْ تغيَّرت بعض طرائق إشـــباعها، كان الإنســـان يأكل الطعام نِيئًا كالحيوان والطير، ثمَّ تعلَّم أنْ يطبخه على نار وقودها الحطب أو الخشـــب أو الفحم، ثمَّ اخترع موقدًا بالزيت ثمَّ بالكهرباء، ولكنَّه على كلِّ حال بقي إنســـانًا يأكل ويشـــرب، ويجوع ويشـــبع، ويظمأ ويرتوي، ويحس بالتوتـــر والانفعال إذا جاع أو عطش، وبالراحة واللذَّة إذا شبع وارتوى.

QaradawiBooks.com

والقِيَـــم الدينيَّـــة والخُلُقيَّة الأصيلة من الشـــعور بالحاجـــة إلى الله، واللجوء إليه عند الشـــدَّة والندم على الخطيئـــة، وحب الصدق والأمانة والفضيلة، وكراهية الرذيلة والكذب والخيانة، لا يزال لها وزنها وقيمتها في حياة البشر وسلوكهم، وإنْ غشيتها الغواشـــي عند بعض الناس، أو أدركها الرين والصدأ.

فليس لنا أنْ نبالغ في التطوُّر الَّذي أدركه الإنسان، فإنَّما هو تطور في محيط الإنسان، لا في جوهر الإنسان، تطوَّر فيما يستخدم الإنسان لا في حقيقة الإنسان.

صحيح أنَّ معرفة الإنسان بظواهر الكون وما فيه من أشياء قد تغيَّرت واتَّسعت، ولكنَّ هذا لم يغيِّر جوهر الإنسان.

الموقف الوسط وهو موقف الإسلام:

والموقف الثالث: هو الموقف الوسط، موقف التميُّز والاعتدال بين المتزمِّتين والمتحلِّلين، بين الَّذين يريـــدون أنْ يُجمِّدوا الحياة، ويقفوا في ســـبيل نموِّها وتقدُّمهـــا، والَّذين يريـــدون أنْ يجعلوهـــا فوضى، لا تحكمها قيم ولا عقائد، ولا تضبطها فضائل ولا شـــرائع. إنَّه موقف يواجه التطوُّر بالحكمة، بل يوجهه بالحق، بل يدفع إلى التطوُّر النافع، ويخلقه ويُغَذِّيه بالوقود.

إنَّه موقف الإســـلام الصحيح، الَّذي يجمع بين الثبات والمرونة في أحكامه وتعاليمه.

الثبات على الأهداف والغايات، والمرونة في الوسائل والآلات.

الثبات على الأصول والكُلِّيَّات، والمرونة في الفروع والجزئيَّات.

QaradawiBooks.com

الثبات على الأخلاقيَّات والدِّينيَّات، والمرونة في المادِّيَّات والدُّنْيويَّات.

نجد هذا الثبات في العقائد الرئيسيَّة، والفرائض الأساسيَّة، وأمَّهات الفضائل وأصول المحرَّمات، وكليَّات الشريعة، ونحو ذلك مما لا يختلف باختلاف الأزمان والبيئات والأحوال، كما نجد المرونة في الأحكام الفرعيَّة الجزئيَّة الَّتي تتَّسع لأكثر من نظرة، وأكثر من اجتهاد، ولم يضيِّق الله فيها على عباده، فمن اجتهد فيها فأصاب فله أجران، ومن اجتهد فأخطأ فله أجر، وهي الَّتي قال فيها فقهاؤنا: إنَّ الفتوى فيها تتغيَّر بتغيُّر المكان والزمان والعرف والحال.

ونجد مرونة أكثر وأكثر في أمور الدنيا: الأمور التقنيَّة والفنِّيَّة الَّتي تتعلَّق بالوسائل والأساليب، فهذه هي الَّتي قال فيها الرسول ﷺ: «**أنتم أعلم بأمر دُنياكم**»[1].

وهذه الأمور يجب أنْ يتقنها المسلمون، ويتفوَّقوا فيها، ولا حرج عليهم أنْ يقتبسوها من غيرهم إن لم تكن عندهم.

لقد كان الرسول ﷺ يخطب على جذع نخلة في المدينة فلمَّا كثر المسلمون، واستقرَّ لهم الأمر، استدعي له نجار رومي، فصنع له منبرًا من ثلاث درجات[2]، فكان يخطب عليه ولم يقل: هذا من صنع رجل رومي فلا أستعمله.

---

(١) رواه مسلم في الفضائل (٢٣٦٣)، عن أنس وعائشة.

(٢) إشارة إلى الحديث المتفق عليه: أرسل رسول الله ﷺ إلى امرأة من الأنصار: «انظري غُلامَكِ النجَّار، يعمل لي أعوادًا أُكلِّم الناسَ عليها». فعمل هذه الثلاث درجات. رواه البخاري في الجمعة (٩١٧)، ومسلم في المساجد (٥٤٤)، عن سهل بن سعد الساعدي.

QaradawiBooks.com

وفي غزوة الأحزاب أشار عليه سلمان بحفر خندق حول المدينة يحميها من الغزاة المشركين، فأعجب برأيه ونفذه، ولم يقل: هذا من أساليب المجوس، لا نأخذ به.

وكذلك جاء أصحابه من بعده، فسنُّوا أنظمةً وأعمالًا لم تكن في عهد الرسول ﷺ مثل: تدوين الدواوين، وتمصير الأمصار، وجمع القرآن في مصاحف، وتوزيعه على الأقاليم، وتخصيص أناس لوظيفة القضاء وحدها، وإدخال نظام البريد، وغير ذلك من الأمور الَّتي لا ريب في فائدتها، وحسن أثرها، والَّتي لم يضق هذا الدين بها صدرًا، كيف وقد سنَّها الراشدون المهديون الَّذين تعدُّ سنَّتهم جزءًا من هذا الدين، يهتدى بها، ويعضُّ عليها بالنواجذ؟!

لقد شاء الله أنْ يتضمَّن هذا الدين كلمات الله الأخيرة للبشرية، بعد أنْ بلغت أشدَّها، واستحقَّت أنْ ينزل عليها الرسالة العامَّة الخالدة؛ فلا عجب أنْ أودع فيه من السعة والتيسير والمرونة ما يواجه به التطور، ويصلح لكل بيئة، وكل أُمَّة، وكل جيل، بل أودع فيه من القيم والأفكار والأصول الفكرية والخُلُقيَّة والتشريعية ما يدفع إلى النموِّ والحركة والرقيِّ، وما يكفي لخلق حضارة ربَّانيَّة إنسانيَّة تلتقي فيها الدُّنْيا والدِّين، والعلم والإيمان، والتمدُّن والأخلاق.

إنَّه لا يرفض كلَّ تطوُّر ولو كان يحمل في ثناياه العلم والحكمة والحقَّ والخير، ولا يقبل كلَّ تطور ولو كان يحمل في تياره الفساد والانحراف والسقوط، وإنَّما يردُّ كلَّ أمر إلى الكتاب الَّذي أنزله الله بالحقِّ والميزان؛ فإنَّ الله لم يدَعْ خَلْقه هملًا، ولم يتركهم سُدًى، بل أعطاهم المعيار الَّذي به يُقَوِّمون كلَّ شيءٍ في الحياة.

QaradawiBooks.com

إنَّ الإسلام يرفض الجمود ويدعو إلى الحركة، والحركة الدائبة المستمرَّة، ولكنَّه يريدها حركة هادفة عاقلة، لا حركة هوجاء مخرِّبة، يريدها حركة النهر الدافق في مجراه الأمين، لا حركة السيل المتهدِّر المنطلق بلا مجرًى ولا ضوابط ولا حدود. إنَّ النهر والسيل كلاهما يجري ويتحرَّك بماءٍ عذب، ولكنَّ النهر يشيع الحياة والخضرة والبركة حيثما جرى، والسيل يُعْقِب الدمار والخراب، ويُهْلِك الزرع والضَّرْع حيثما سار.

إنَّ الإسلام يريد للإنسان أنْ يتحرَّك ويعمل، بشرط أنْ تكون حركته إلى هدف يليق بإنسانيَّته الكريمة على الله، وأنْ تكون في مدار مأمون، يأمن فيه أنْ يتحطم أو يحطم. إنَّها كما قال الشهيد سيِّد قطب بحق: «الحركة داخل إطار ثابت وحول محور ثابت»[1].

إنَّ الإسلام يقبل التطوُّر العاقل الصالح الَّذي تحكمه قيم الحق والخير والفضيلة، وتضبطه موازين العدل الَّذي أنزل الله به كتابه وبعث به رسوله، أما الانطلاق العربيد فهو كالجمود البليد، كلاهما مرفوض في نظر الإسلام.

متى يتعرض المجتمع الإسلامي للخطر:

وإنَّما يتعرَّض المجتمع الإسلامي للخطر والضرر نتيجةً لأحد أمرين:

الأول: أنْ يجمِّد ما من شأنه التغيُّر والتطوُّر والحركة، فتصاب الحياة بالعُقم وتصبح كالماء الراكد الآسن، الَّذي يجعله الركود مرتعًا للجراثيم والميكروبات.

(١) خصائص التصور الإسلامي ومقوماته صـ ٧٥ ـ ٩٤، خصيصة الثبات، نشر دار الشروق، القاهرة.

QaradawiBooks.com

وهذا ما حدث في عصور الانحطاط والشرود عن هدى الإسلام الصحيح، فرأينا كيف أغلق باب الاجتهاد في الفقه، وتوقف الإبداع في العلم، والأصالة في الأدب، والابتكار في الصناعة، والافتنان في الحرب وغيرها، وضربت الحياة بالجمود والتقليد في كل شيء وأصبح المثل السائر: ما ترك الأوَّل للآخر شيئًا! وليس في الإمكان أبدع مما كان! على حين أخذت المجتمعات الأخرى الراكدة ـ الَّتي طالما تتلمذت على المجتمع الإسلامي ـ تستيقظ وتنهض وتتطوَّر، ثمَّ تنمو وتتقدَّم، ثمَّ تزحف غازية مستعمرة، والمسلمون في غمرة ساهون، وفي غفلة لاهون.

الثاني: أنْ يخضع للتطوُّر والتغيُّر ما من شأنه الثبات والدوام والاستقرار، كما نرى ونسمع في عصرنا الحديث من أبناء المسلمين فئة يريدون خلع الأمة من دينها، وعزلها عن تراثها كله باسم التطور. يريدون أنْ يفتحوا الباب للإلحاد في العقيدة، والانسلاخ من الشريعة، والتحلُّل من الفضيلة، كلُّ ذلك باسم هذا الصنم الجديد «التطوُّر».

إنَّهم يريدون أنْ يطوِّروا الدِّين نفسه، لكي يلائم ما يريدون استيراده من الشرق أو الغرب من عقائد وأفكار، وقيم وموازين، وأنظمة وتقاليد، ومُثل وأخلاق، وما جعل الله الدين إلَّا ليمسك البشرية أن تتدحرج وتنقلب على عقبيها؛ لهذا أوجب أنْ يكون الدين هو الميزان الثابت الَّذي يحتكم إليه النَّاس إذا اختلفوا، ويرجعون إليه إذا انحرفوا، أما أنْ يصبح الدين خاضعًا لتقلبات الحياة وظروفها، يستقيم إذا استقامت، ويعوجُّ إذا اعوجَّت، فإنَّه بذلك يفقد وظيفته في حياة الإنسان: أنْ يوجِّهها ويحكمها لا أن توجِّهه وتحكمه، وأنْ يخضعها لمثله وهداه، لا أنْ تخضعه لواقعها وهبوطها.

QaradawiBooks.com

ومن هنا نقول للذين يطالبون الإسلام أنْ يتطور: لماذا لا تطالبون التطوُّر أن يسلم؟! فالإسلام حاكم، والتطوُّر محكوم عليه.

عبيد التطوُّر لا يقفون عند حدٍّ:

ثم إنَّ عبيد التطوُّر لا يقفون عند حدٍّ، ولا يقبلون تنازلًا حتَّى يطالبون بثانٍ وثالثٍ، وسلسلة من التنازلات لا تتناهى! وهم إذا قبلوا الإسلام فإنَّما يريدونه إسلامًا من صنع أيديهم وأفكارهم!

إنَّهم يقولون: لا نأخذ بأقوال الأئمَّة ولا الفقهاء ولا الشرَّاح والمفسِّرين، فإنَّها آراء بشر مثلنا، ولا نأخذ إلَّا من الوحي المعصوم.

فإن وافقتهم على ذلك ـ افتراضًا ـ قالوا: إنَّما نأخذ ببعض الوحي دون بعضه، نأخذ بالقرآن ولا نأخذ بالسُّنَّة! فإنَّ فيها الضعيف والموضوع والمردود، أو نأخذ بالسُّنَّة المتواترة، ولا نأخذ بسنن الآحاد!

فإن سُلِّمَ لهم ذلك قالوا في جراءة ووقاحة: القرآنُ نفسه إنَّما كان يعالج أوضاع البيئة العربيَّة المحدودة، وشؤون المجتمع البدوي الصغير، فلا بدَّ أنْ نأخذ منه ما يليق بتطوُّرنا وندع منه ما ليس كذلك!

فإذا قال القرآن: ﴿حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ﴾ [البقرة: ١٧٣، والنحل: ١١٥]، وإذا سمَّى لحم الخنزير «رجسًا» قالوا: إنَّما قال القرآن ذلك في خنازير كانت سيئة التغذية، أما خنازير اليوم فليست كذلك!

وإذا قال القرآن في الميراث: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ [النساء: ١١]، قالوا: إنَّما كان ذلك قبل أن تخرج المرأة للعمل، وتثبت وجودها في ميادين الحياة المختلفة، أمَّا اليوم فقد أصبح لها

QaradawiBooks.com

شخصيتها واستقلالها الاقتصادي؛ فلزم أن ترث كما يرث الرجل، ولم يعد مجال للتفرقة بين الجنسين!

وإذا قال القرآن: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ﴾ [المائدة: ٩٠]، قالوا: إنَّما حرَّم القرآن ذلك في بيئة حارة، ولو نزل القرآن في بيئة باردة، لكان له موقف آخر!

ومعنى هذا إنَّهم ينسبون إلى الله تعالى الجهل بأحوال خلقه، وأنَّه لا يعلم منها إلَّا ما هو واقع، وأما ما يخبئه الغد وما يضمره المستقبل، فلا يعلمه ولا يحسب حسابه، تعالى الله عمَّا يقولون علوًّا كبيرًا.

إنَّ الإصلاح الحقيقي: أنْ نتفهَّم جيدًا ما يجب أنْ يتطور من شؤون الحياة فنبذل جهودنا لتطويره وتحسينه، بمنطق الحكماء الشجعان، لا الأغرار المقلدين ـ والإسلام يشُدُّ أزرنا في ذلك بما أطلق فينا من قوى الفكر والعمل، وما شرع لنا من الاجتهاد والجهاد، وما أوجب علينا من التماس الحكمة أنَّى وُجدت ـ نتفهَّم كذلك ما يجب أنْ يبقى ثابتًا راسيًا من القيم، والعقائد، والمفاهيم، والأخلاق، والآداب، والشرائع، الَّتي تزول الجبالُ الشمُّ ولا تزول.

بهذا الموقف الحكيم نواجه التطوُّر ونوجِّهه: نعيش عصرنا، ونرضي ربَّنا، فنفوز بالحُسنيَيْن، ونربح الدُّنيا، ولا نخسر الدِّين، ونظفر برضوان الله، وإعجاب العقلاء من النَّاس.

* * *

غير مراجعة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

مكانة الإنسان في الإسلام

كتاب باسم: «حضارة الإسلام» للمستشرق النمساوي الأصل: فون جرو نيباوم، ترجمه الأستاذ عبد العزيز توفيق جاويد ضمن مشروع «الألف كتاب» الَّذي تشرف عليه «إدارة الثقافة العامَّة» بوزارة التربية والتعليم.

وفي الكتاب أخطاء كثيرة عن الإسلام في عقيدته وتشريعه وحضارته وتاريخه، وهو ما لا يمكن أنْ يخلو منه مستشرق لا يؤمن بالإسلام دينًا، ولا بالقرآن وحيًا، ولا بمحمد رسولًا، فلا بدَّ أنْ يفسِّر هذا الدين وآثاره بما يلائم اعتقاده فيه.

وقد عقَّب الأستاذ المترجم على بعض هذه الأخطاء، ولكنَّه أولًا: لم يستوعب، وثانيًا: لم يوف التعقيب حقَّه، وثالثًا: فصل التعقيب عن أصله، وجعله في آخر الكتاب.

ولسنا في مقام النقد للكتاب كلِّه الآن، وإنَّما نكتفي بإيراد مثل من انحراف المؤلف عن السداد مما لم يعقِّب المترجم عليه.

قال في فصل «الإنسان الكامل»: «والإسلام منذ بداءته لم يعترف للإنسان إلَّا بقليل من التقدير، وينزع القرآن إلى إقناعه بمهانة أصله

الجسدي؛ فيصف خلق الفرد وتكوينه تفصيلًا: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۞ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۞ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ [المؤمنون: ١٢ ـ ١٤].

فليس لإنسان أيُّ فخر في بداياته؛ فهو ليس مكونًا من مادة مهينة فحسب، بل هو ضعيف عديم الحس، ساعة ينحدر إلى هذه الحياة، ولا يحفظه في وجوده المحفوف بالخطر إلَّا إرادة الله، وهو غرض لسهام الأمراض والآلام، وهو يكابد الجوع والعطش، شاء أم لم يشأ، وهو يريد المعرفة ولكن الجهل نصيبه، وهو يريد أنْ يتذكَّر ولكنَّه ينسى، وإنَّه ليدبِّر ما يدبر من خطط الفكاك ولا يبلغ قط حدَّ الاطمئنان على الحياة أو المركز.

ويتأمَّل الغزالي أمره قائلًا: «وما نهايته إلَّا الموت الَّذي يرده إلى خمود الحسّ المصاحب لبداياته، والَّذي يعرضه للتجيُّف الكريه المنفِّر»[1] اهـ.

وإنَّ أدنى تأمل في مصادر الإسلام ليردُّ على المؤلف دعواه، أنَّ الإسلام لم يعترف للإنسان إلَّا بقليل من التقدير، ويدحض استدلاله الواهن على ما ادَّعاه.

وقد اعتمد المؤلف في هذه النقطة ـ كما ذكر في مراجعه ـ على كلمات ذكرها الإمام الغزالي في كتاب «الكبْر» من «الإحياء»، ومثل هذه الكلمات الَّتي ذكرها الغزالي لا تصلح معتمدًا لتقرير مبدأ خطير يتعلق بمكانة الإنسان؛ فهو إنَّما ذكرها في بيان الطريق إلى معالجة الكبْر، وفي مخاطبة المستكبرين، ولكلِّ مقامٍ مقالٌ كما يقولون.

(١) حضارة الإسلام صـ ٢٨٣.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

إنَّه يريد أنْ يذكِّر هذا المتكبر بأيام ضعفه يوم كان جنينًا في بطن أمه، بل حين لم يكن شيئًا مذكورًا؛ ليعلم أنَّه لا قيام له بذاته، ولا استغناء له عن ربِّه: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۞ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۞ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ١ ـ ٣].

قال الغزالي بعد ذكر هذه الآيات: ومعناه أنَّه أحياه بعد أنْ كان جمادًا ميتًا: ترابًا أولًا، ونطفةً ثانيًا، وأسمعه بعدما كان أصم، وبصَّره بعدما كان فاقدًا للبصر، وقوَّاه بعد الضعف، وعلَّمه بعد الجهل، وخلق له الأعضاء بما فيها من العجائب والآيات بعد الفقد لها، وأغناه بعد الفقر، وأشبعه بعد الجوع، وكساه بعد العري، وهداه بعد الضلال، فانظر كيف دبَّره وصوَّره، وإلى السبيل كيف يسَّره، وإلى طغيان الإنسان ما أكفره، وإلى جهل الإنسان كيف أظهره؟ فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ [يس: ٧٧]، ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ [الروم: ٢٠].

فانظر إلى نعمة الله عليه كيف نقله من تلك الذلة والخسَّة والقذارة ـ خسَّة التراب وقذارة النطفة ـ إلى هذه الرفعة والكرامة، فصار موجودًا بعد العدم، وحيًّا بعد الموت، وناطقًا بعد البكم، وبصيرًا بعد العمى، وقويًّا بعد الضعف، وعالِمًا بعد الجهل، ومهديًّا بعد الضلال، وقادرًا بعد العجز، وغنيًّا بعد الفقر، فكان في ذاته «لا شيء» وأي شيء أخس من لا شيء، وأي قلة أقل من العدم المحض ثمَّ صار بالله شيئًا[1].

(١) إحياء علوم الدين (٣٥٨/٣)، نشر دار المعرفة، بيروت.

QaradawiBooks.com

هذا ما ذكره الغزالي عن الإنسان فيما اقتضاه مقام معالجة الكبر والمتكبرين، وهو لا يثمر النتيجة الَّتي انتهى المؤلف إليها.

ولو أنصف المؤلف لاستشهد بما ذكره الغزالي في مناسبات شتى، فيها مكانة الإنسان في الكون، وقيمته عند الله وخصائصه الرُّوحيَّة العالية، وحسبنا من ذلك ما ذكره في كتاب: «المحبة» من ربع «المنجيات» من إحيائه؛ فهو بعد أنْ ذكر أنَّ من أسباب المحبة المناسبة والمشاكلة؛ لأنَّ شبيه الشيء منجذب إليه، والشكل إلى الشكل أميل، قال[1]: وهذا السبب أيضًا يقتضي حب الله تعالى لمناسبة باطنة، لا ترجع إلى المشابهة في الصور والأشكال، بل إلى معانٍ باطنة، يجوز أنْ يذكر بعضها في الكتب، وبعضها لا يجوز أنْ يسطر.

فالذي يذكر: هو قرب العبد من ربه ﷻ في الصفات الَّتي أمر فيها بالاقتداء والتخلق بأخلاق الربوبيَّة، حتَّى قيل: تخلَّقوا بأخلاق الله؛ وذلك في اكتساب محامد الصفات الَّتي هي من الصفات الإلٰهية، من العلم والبر والإحسان واللطف وإفاضة الخير والرحمة على الخلق، والنصيحة لهم، وإرشادهم إلى الحقّ، ومنعهم من الباطل، إلى غير ذلك من مكارم الشريعة، فكل ذلك يقرِّب إلى الله تعالى، لا بمعنى طلب القرب بالمكان بل بالصفات.

وأمَّا ما لا يجوز أنْ يسطَّر في الكتب ـ من المناسبة الخاصة الَّتي اختصَّ بها الآدمي ـ فهي الَّتي يومئ إليها قوله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسراء: ٨٥]، إذ بيَّن أنَّه أمر ربَّاني خارجٌ عن حدِّ عقول الخلق.

(١) إحياء علوم الدين (٣٠٦/٤).

QaradawiBooks.com

وأوضح من ذلك قوله تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [صٓ: ٧٢]؛ ولذلك أسجد له ملائكته.

ويشير إليه قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾[١] [صٓ: ٢٦]؛ إذ لم يستحق آدم خلافة الله تعالى إلَّا بتلك المناسبة.

وإليه يرمز قوله ﷺ: «**إنَّ الله خلق آدمَ على صورته**»[٢]، حتَّى ظنَّ القاصرون أنْ لا صورة إلَّا الصورة الظاهرة المدركة بالحواسِّ، فشبَّهوا وجسَّموا وصوَّروا، تعالى اللهُ ربُّ العالمين عمَّا يقول الجاهلون علوًّا كبيرًا.

وإليه الإشارة بقوله تعالى في الحديث القدسي: «**مَرِضْتُ فلم تعُدْني، فقال: يا ربِّ، وكيف ذلك؟! قال: مرض عبدي فلانٌ فلم تعُدْه، ولو عُدْتَه وجدْتَني عنده**»[٣].

وهذه المناسبة لا تظهر إلَّا بالمواظبة على النوافل بعد إحكام الفرائض، كما قال الله تعالى ـ يعني في الحديث القدسي ـ: «**لا يزال العبد يتقرَّب إليَّ بالنوافل حتَّى أحبَّه، فإذا أحببتُه كنتُ سمعَه الَّذي يسمع به، وبصرَه الَّذي يُبصر به...**»[٤] إلخ.

إنَّ الآية الَّتي استدلَّ بها المستشرق ـ والَّتي بيَّنت أطوار خلق الإنسان من نطفةٍ فعلقةٍ فمُضغة، إلخ ـ لا تهدف إلى إقناع الإنسان بمهانة أصله الجسدي ـ كما يقول ـ وإنَّما تهدف هي وما يماثلها من آيات إلى الردِّ على

(١) هذه الآية في شأن داود عليه السلام، والأولى من سورة البقرة: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، فهي في شأن أبي البشر عليه السلام، وأعتقد أنَّ الغزالي يقصد إليها.

(٢) متَّفق عليه: رواه البخاري في الاستئذان (٦٢٢٧)، ومسلم في البر والصلة (٢٦١٢)، عن أبي هريرة.

(٣) رواه مسلم في البر والصلة (٢٥٦٩)، عن أبي هريرة.

(٤) رواه البخاري في الرقاق (٦٥٠٢)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

قوم أنكروا الآخرة والبعث بعد الموت، واستبعدوا أنْ يحيا الإنسان بعد ما رَمَّ وبَلِيَ، فجاءت هذه الآيات تلفت أنظار منكري النشأة الأخرى إلى النشأة الأولى، وتُنبِّه العقول الغافية إلى قدرة الله الكبير الَّذي خلق الإنسان من ضعف، ثمَّ جعل من بعد ضعف قوَّة، ولنقرأ قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ۞ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٦٦، ٦٧]، ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۞ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ۞ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٧ ـ ٧٩].

فهل يفهم منصف من سياق هذه الآيات تحقير الإنسان؟ وأنَّ الإسلام لا يعترف له إلَّا بقليل من التقدير؟

لقد عُني القرآن بالحديث عن الإنسان في عشرات من آياته، وعشرات من سوره، وحسبنا أنَّ أوَّل فوج من آيات الوحي الإلٰهي استقبله قلبُ رسول الله ـ وهي خمسُ آيات ـ لم تغفل شأن الإنسان، وعلاقته بربِّه: علاقة الخلق والإيجاد، وعلاقة التعليم والهداية، واختارت الآيات لفظ «الربِّ» لما يشعر به من التربية والرعاية والترقية في مدارج الكمال: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۞ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۞ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۞ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۞ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١ ـ ٥].

بيَّن القرآن في كثير من آياته علاقة الإنسان بالله، وهي علاقة القرب القريب، الَّذي حطَّم أسطورة الوسطاء والسماسرة المرتزقين بالأديان: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [قَ: ١٦]، ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ١٨٦]، ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥]، ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤].

QaradawiBooks.com

وبيَّن القرآن مكانة الإنسان عند العوالم الرُّوحيَّة العلويَّة، وهي مكانة اشرأبَّت إليها أعناق الملائكة، وتطاولت إليها نفوسهم فما بلغوها: مكانة خليفة الله في الأرض: ﴿قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠]. مكانة من علَّمه الله الأسماء كلها، وأمر ملائكته بالسجود له تحيةً وإجلالًا: ﴿إِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن طِينٖ ۝ فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ۝ فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ ۝ إِلَّآ إِبۡلِيسَ...﴾ [صٓ: ٧١ ـ ٧٤].

وكانت عاقبة عدوِّ الإنسان الَّذي تمرَّد على أمر ربِّه بتحيته والسجود له هي اللعنة والطرد الأبدي، قال: ﴿قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ۝ وَإِنَّ عَلَيۡكَ لَعۡنَتِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ [صٓ: ٧٧، ٧٨].

وبيَّن القرآن مركز الإنسان في هذا الكون الماديِّ العريض، وهو مركز السيِّد المتصرِّف، الَّذي سُخِّر له ما في السماوات وما في الأرض جميعًا: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ لِتَجۡرِيَ فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡأَنۡهَٰرَ ۝ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ دَآئِبَيۡنِۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ۝ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلۡتُمُوهُ﴾ [إبراهيم: ٣٢ ـ ٣٤].

وما الَّذي بوَّأ الإنسان هذه المكانة في الكون ـ على ما فيه من أجرامٍ ضخام ـ؟ إنَّه استعداده لحمل الأمانة الكبرى: المسؤوليَّة، التكليف، تلك المسؤوليَّة الَّتي صوَّرها القرآن تصويرًا أدبيًّا رائعًا، فقال: ﴿إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ [الأحزاب: ٧٢]، تلك المسؤوليَّة الَّتي جعلت مصير كل إنسان بيده،

QaradawiBooks.com

إمَّا إلى جنة وإمَّا إلى نار: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ﴾ [القيامة: ١٤]، ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ [الإسراء: ١٥].

ذلك بعض ما ذكره القرآن عن مكانة الإنسان، وإنَّ فيه لغَناء لمن أراد الإنصاف، وحسْب الإنسان شرفًا هذان النداءان المباشران من الله إليه بعنوان: الإنسانيَّة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: ٦ ـ ٨]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦].

* * *

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

حوار في قضايا فكرية مع التيارات الوافدة
لا بدَّ من مقياس نحتكم إليه

كنتُ أتحدَّث مع صاحبي عن ضرورة العودة إلى الإسلام عقيدة وشريعة، وقيمًا وأخلاقًا، وثقافة وحضارة؛ لنسعد في دُنيانا، ونفوز في أخرانا، فإذا هو يقول في صراحة: الحقيقة يا صاحبي، أنَّنا في حيرة وبلبلة أمام الدعوات والمبادئ الكثيرة المختلفة، هذه تجرُّنا إلى اليمين، وتلك إلى اليسار، هذه تشرِّق وأخرى تغرِّب، أنت تدعو إلى الإسلام، وثانٍ يدعو إلى القوميَّة، وآخر إلى الاشتراكيَّة.

دعاة الإسلام منهم المتزمِّت والمتسامح، ودعاة القوميَّة منهم من يوسِّع ومن يضيِّق، ودعاة الاشتراكيَّة منهم من يتطرَّف ومن يعتدل.

وكل واحد من هؤلاء يضفي على سلعته أجمل الأوصاف، ويبرِّئها من كل عيب، والقارئون والمستمعون حائرون إزاء ما يقرؤون من كتب ورسائل ومقالات، وما يسمعون من محاضرات وأحاديث ومناقشات، فقل لي بربك: ماذا يصنع الإنسان أمام هذه المبادئ والأفكار؟ وهذه التيارات من يمين ويسار؟

قلت: وماذا يفعل النَّاس إذا اختلفوا في طول قطعةٍ من القماش، أو في ثقل مقدارٍ من الحلوى، أو في حجم كمِّيَّة من القمح؟

QaradawiBooks.com

قال صاحبي: إنَّهم يحتكمون إلى معيار اتَّفقوا عليه، كالمتر مثلًا في قياس الأبعاد والأطوال، والكيلو جرام أو الرَّطل في تقدير الموزونات، واللتر والقَدَح في تقدير المَكِيلات إلخ، فيرتفع الخلاف، وينحسم النزاع.

قلت: وهذا ما يجب أنْ نصنعه أيضًا في الأمور المعنوية، أعني لا بدَّ من معيار نتَّفق عليه ونحتكم إليه، في أفكارنا وآرائنا وقيمنا، فإذا أمرنا جميع، وإذا كلمتنا سواء.

قال صاحبي: ولكن المشكلة هنا فيمن يصنع هذا المعيار العجيب الَّذي توزن به الأقوال والمذاهب، وتقاس به النِّحل والمعتقدات، ويعرف به الرشد من الغي، والهدى من الضلال، مَنْ الَّذي يدَّعي القدرة على وضع هذا المعيار؟ ومن يرضى به إذا ادَّعى ذلك؟

قلت: أمَّا نحن المسلمين فإنَّ هذا المعيار في أيدينا فعلًا، وليس هو وضع بشر؛ فالبشر أعجز من أنْ يضعوا مثل هذا المعيار. إنَّه معيار منزل من السماء إلى الأرض، من الخالق إلى الخلق: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١]. «**تركت فيكم ما إنْ تمسَّكتم به لن تضلوا أبدًا: كتاب الله، وسنتي**»[(١)]. بل إنَّه من مهمة الرسل الأساسيَّة أنْ يضعوا هذه المعايير للبشر، ليحتكموا إليها إذا اختلفوا، ويرجعوا إليها إذا انحرفوا، وفي القرآن الكريم: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَ

(١) رواه الحاكم في العلم (٩٣/١)، وقال: احتج البخاري بعكرمة واحتج مسلم بأبي أويس عبد الله وله أصل في الصحيح. ووافقه الذهبي. وصحَّحه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٤٠)، عن ابن عباس.

QaradawiBooks.com

ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ﴾ [البقرة: ٢١٣]، ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ﴾ [الحديد: ٢٥].

ولكنَّ العجيب أنَّنا لا نحتكم إلى هذا المعيار السماوي، إلى الإسلام الَّذي أكرمنا الله به، ورضيه لنا دينًا، بل نبذناه وراءنا ظهريًّا، وطفقنا نلتمس الفتوى والحكم من غيره، «**ومن ابتغى الهدى في غيره أضلَّه الله**»[1].

قال صاحبي مندهشًا: أيلزمنا أنْ نحتكم في كل أفكارنا وآرائنا إلى الإسلام والقرآن؟

قلت: نعم، بمقتضى إسلامك إلى الله، وإلى رسوله، فهذا معنى «لا إلٰه إلَّا الله، محمَّد رسول الله»، فإنَّ رضاك بالله ربًّا، وبمحمَّدٍ رسولًا، وبالقرآن إمامًا، يقتضيك الاحتكام إلى الله ورسوله وكتابه، فيما يشكل عليك، وفيما تنازع الناس، أو ينازعونك فيه، ولا يصح بغير هذا إيمان أبدًا: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ [الأحزاب: ٣٦]، ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥].

قال صاحبي: وهل معنى هذا أنْ نحتكم إلى ما أنزل الله في كل أمورنا، حتَّى الاجتماعية والسياسيَّة والاقتصادية؟ لا بأس بالاحتكام إلى ما أنزل الله في شؤون الدين، أعني في العقائد والعبادات والأخلاق، أما

(١) جزء من حديث رواه الترمذي في فضائل القرآن (٢٩٠٦)، وقال: حديث غريب لا نعرفه إلَّا من هذا الوجه وإسناده مجهول، وفي الحارث مقال. وضعَّفه الألباني في الضعيفة (٦٣٩٣)، عن علي بن أبي طالب. وقال ابن كثير في مقدمة التفسير (٢١/١): قصارى هذا الحديث أنْ يكون من كلام أمير المؤمنين علي رضي الله عنه، وقد وهم بعضهم في رفعه، وهو كلام حسن صحيح على أنَّه قد روي له شاهد عن عبد الله بن مسعود، عن النبي ﷺ.

QaradawiBooks.com

شؤون الحياة المتغيِّرة المتطوِّرة، فلماذا لا نحكم فيها منطقنا البشري، أو نقتبسها من تجارب غيرنا؟

قلت: إنَّ تجزئة ما أنزل الله: إلى دينيٍّ، وغير ديني، تجزئة مضلِّلة، ولا تقوم على أساس سليم. أتريد منَّا أنْ نطيع الله سبحانه إذا قال: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [المزمل: ٢٠]؛ لأنَّ الصلاة من شؤون الدين؛ فإذا قال: ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [المزمل: ٢٠]، قلنا له: عفوًا يا رب، هذا من شؤون المال والدنيا، فدعنا ندبرها وحدنا دون هدايتك ووحيك يا ربنا!

وإذا قال الله تعالى: ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُ﴾ [فصلت: ٦]، قلنا له: سمعنا وأطعنا؛ فإذا قال: ﴿إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠]، قلنا له: سمعنا وعصينا، إنَّ تحريم الخمر يا رب خطر على نشاط السياحة، وحجر على حرية الفرد، فدعنا أحرارًا في تناولها.

وإذا قال الله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١]، قلنا: يا لها موعظة! فإذا قال قبلها بآيتين: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ۝ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٧٨، ٢٧٩]، قلنا: أمَّا هذه فلا، فإنَّ عصرنا لا يستغني عن الربا؟ وعجلة الاقتصاد لا تدور إلَّا بالفوائد الرِّبويَّة.

وإذا قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ [البقرة: ١٨٣]، قلنا: سمعًا وطاعةً. فإذا قال في نفس السورة، ونفس السياق: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَى﴾ [البقرة: ١٧٨]، قلنا هنا: لا سمع ولا طاعة، فأمر العقوبات لنا يا رب وليس لك، فدعنا نقرِّر فيها ما نراه، فنحن أعلم بمصلحتنا منك!

QaradawiBooks.com

لا يا صاحبي! إنَّ كل ما أنزل الله دين يجب أنْ يُتَّبع ويُرعى وينفَّذ، وإهمال بعضه ضارٌّ بمجموعه، وهو أشبه شيء بوصفة الطبيب الماهر للمريض، إنَّها مجموعة متكاملة من الأدوية، ربما كان حذف دواء منها يجعل ضرر الأدوية الأخرى أكبر من نفعها؛ ولهذا حذَّر الله سبحانه من ترك بعض ما أنزله من كتاب وحكمة، انخداعًا بتزيين أهل الكتاب وغيرهم من الكفرة والمشركين. قال تعالى: ﴿وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَ﴾ [المائدة: ٤٩]، فحذَّر من الفتنة عن بعض الأحكام المنزلة من الله، وقد ذمَّ الله قومًا من المنافقين ارتدُّوا على أدبارهم من بعد ما تبيَّن لهم الهدى، وسوَّل لهم الشيطان وأملى لهم، فقال في تعليل ما أصابهم من سخطه ولعنته: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمۡ فِي بَعۡضِ ٱلۡأَمۡرِ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِسۡرَارَهُمۡ﴾ [محمد: ٢٦].

قال صاحبي: كلامُك صحيح، ولكن ليس كل النَّاس مسلمين، حتَّى يحتكموا إلى معيار الإسلام، ويحكِّموه فيما شجر بينهم.

قلت: أمَّا غير المسلمين فلهم حديثٌ غير هذا، ولكنِّي أتحدَّث مع الَّذين رضوا بالإسلام دينًا، ولا زالوا يعلنون إنَّهم مسلمون، وهم ينزلون على أحكام الإسلام. أتحدَّث مع هؤلاء الَّذين يقرؤون ويسمعون قول الله تعالى: ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ١٠]، ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ [النساء: ٥٩].

أتحدَّث مع هؤلاء الَّذين قرؤوا في كتاب ربهم: ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]، ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ

QaradawiBooks.com

فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [المائدة: ٤٥]، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [المائدة: ٤٧].

وأحبُّ أنْ تعلم أنَّ هذه الآيات ليست في شأن الحكام والقضاة فحسْب، بل إنَّها تشمل كلَّ من حكَّم في تفكيره وسلوكه مذهبًا غير الإسلام، وكتابًا غير القرآن، وموجِّهًا غير محمَّد ﷺ.

فليخترْ له أحدَ هذه الأوصاف الثلاثة أو كلَّها إن شاء: الكفر والظلم والفسق، كما صرَّحت بها آيات ثلاثٌ في كتاب الله.

وَلَوْ كَانَ سَهْمًا وَاحِدًا لاتَّقَيْتُهُ وَلَكِنَّهُ سَهْمٌ وَثَانٍ وثَالِثُ[1]**!**

* * *

(١) البيت للقاضي أبي بكر ابن العربي، كما في الحُلَّة السِّيَراء لابن الأبَّار (٦/١)، تحقيق د. حسين مؤنس، نشر دار المعارف، القاهرة، ط٢، ١٩٨٥م. بلفظ رمح بدل سهم.

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

مذاهب أم عقائد وأديان جديدة؟!

قال صاحبي: رضينا بالإسلام مقياسًا لأفكارنا وقِيَمنا، وبالقرآن حَكَمًا في كل شؤوننا، فما يقول الإسلام في هذه المذاهب والدعوات «الأيديولوجيَّة» الحديثة، الَّتي نشط دعاتها في هذه الآونة، والَّتي تحمل طابع التجديد والتحرير والبعث والتقدم والثورية؟ هل يتَّسع صدر الإسلام لهذه الأيديولوجيَّات، ويعقد معها عقد تعايش سلمي؟ أم يرفضها وينكرها ويأبى معايشتها، هل يجوز للجماعة أو للفرد المسلم أنْ يعتنق أحد هذه المذاهب ويسترشد بها ويجعل نفسه داعية إليها؟ وبخاصَّة ما يعرف الآن باسم: «الاشتراكيَّة الثورية».

قلت: لقد سألت عن أمر خطير يجب على كل مسلم أن يحدِّد موقفه منه، كما يجب على كل عالم مسلم أنْ يبيِّن حكم الله ورسوله فيه بلا مواربة ولا مداهنة.

ولنْ أناقش الآن مضمون هذه المذاهب والدعوات وما تحتويه من أفكار ونظريَّات وقواعد صحيحة أو باطلة، فإنَّ المناقشة الموضوعية لكل مذهب أو فكرة منها لها مكان آخر. ولكن هنا أناقش الشكل والجوهر العام لهذه المذاهب جميعًا.

نسخة مجانية

إنَّ هذه المذاهب والأيديولوجيَّات في حقيقتها أديان جديدة، أديان تنكر مضمون الدين، ولكنَّها تتخذ شكله. إنَّها تسخر من كل ما جاء به الدين من الغيبيات، ومن عقليَّة المتديّنين وإيمانهم الدافق الحار، ولكنَّها في نفس الوقت تأخذ كل خصائص الدين!

ما هي خصائص الدين؟

إنَّها الثورة على الأفكار والقيم الجاهليَّة القديمة والتخلص منها.

إنَّها الإيمان بمجموعة من الأفكار لا تقبل المناقشة في صحتها، وبمجموعة من القيم لا تقبل الشكَّ في عدالتها. إنَّها إخلاص للفكرة لا يقبل الشركة، وولاء لا يقبل المزاحمة، واعتزاز لا يقبل المهادنة أو المداهنة، وتضحية لا تقبل الإحجام، وثبات لا يقبل الردة.

هذه أهم خصائص الأديان «التقليدية»، وهذا ما تريده من المؤمنين بها، وهذا أيضًا ما تريده الأيديولوجيَّات العِلمانيَّة الانقلابيَّة الحديثة من أنصارها.

إنَّها جميعًا تعتبر الدين هو الجاهليَّة الَّتي يجب التحرُّر من ربقتها، وأفكاره وقيمه ومثله، إنَّما هي أمور «رجعيَّة» بالية يجب التمرد عليها، ووزنها بميزان الفكرة الجديدة، فما كان منسجمًا معها؛ قبل بقاؤه تابعًا للأيديولوجية وخادمًا لمقاصدها، وما لم يكن كذلك؛ «شطب» عليه بالقلم الأحمر.

إنَّ هذه الأيديولوجيَّات لا ترضى لنفسها أنْ تأخذ جانبًا من الحياة أو المجتمع لتصلحه أو تطوره، كلَّا، إنَّها تتَّسم بطابع الشمول والإطلاق والكلية، كالدِّين تمامًا؛ ولذا فهي تريد تغييرًا جذريًّا، وتحولًا ثوريًّا،

QaradawiBooks.com

يحطم القديم، ويعـدِّل المفاهيم، ويضع للناس قيمًـا جديدة، وأخلاقًا جديدة، ومفاهيم جديدة، وأنظمةً جديدة.

يقول أحد الدارسـين لهذه الأيديولوجيَّات والموالين لها في صراحة، وبعد شرح وتفصيل: «هكذا تجد الأيديولوجيَّات الانقلابيَّة نفسها مضطرة ـ إنْ أرادت تحقيق حركة انقلابيَّة متكاملة ـ أنْ تعمل على تحويل المجتمع إلى جمهور، أي إلى أفراد خسـروا جذورهم وتقاليدهـم، وأن تنقض ـ مبدئيًّا وأساسيًّا ـ التراكيب الاجتماعية السـائدة، وأنْ تساعد كل حركةٍ أو موقفٍ هدَّام يساهم في تمزيق عراها، وأنْ تدعم كلّ تغيير يؤدي إلى اقتلاع جذور التقاليد والنظم والقيم التقليدية، وعندما تصل إلى السلطة وتتسلم زمام الدولة، تعمل بجميع الوسائل السياسـيَّة، وجميع ما يتوافر لها من وسائل تكنولوجية وعلمية، على تحقيق تهديم التراكيب والنظم والعلاقات الاجتماعية تهديمًا عامًّا؛ لأنَّ الفرد يسـتطيع أنْ يتحول إلى الأيديولوجية الجديـدة، فيصبح انقلابيًّـا إنْ هو خسـر روابطه بهـا (أي القيم والنظم القديمة) من كتاب «الأيديولوجية الانقلابيَّة» تأليف د. نديم البيطار.

ولقد سمَّى بعض الباحثين هذه الأيديولوجيَّات: «الأديان العِلمانيَّة»، أو «الأديان الملحدة»، أو «العِلمانيَّة الدينيَّة»، وألَّف فيها جوليان هكسلي كتابه: «دين بغير وحي»!

ولقد كان دعاة هذه المذاهب والأفكار صرحـاء حين أطلقوا عليها اسم: «العقيدة»؛ ولهذا يقولون: «العقيدة الاشتراكيَّة»، «العقيدة الشيوعيَّة، العقيدة النازيَّة، العقيدة البعثيَّة، العقيدة القوميَّة»، و«العقيدة» تعبير ملطَّف لمفهوم «الدين»، ولو أردنا صراحة أكثر لقلنا: الدين الاشتراكي، والدين البعثي، والدين القومي، إلخ.

QaradawiBooks.com

ومِن الكُتَّاب مَن يحاول تفسير هذه العقائد تفسيرًا يحبِّبها إلى جمهرة الشعوب المتدينة؛ فالاشتراكيَّة ـ مثلًا عنده ـ مجرد مذهب اقتصادي ينسبه إلى فلسفة إنسانيَّة، توجب تدخل الدولة لتنظيم العلاقات الاجتماعية والاقتصادية على نحو معيَّن، ولكن كتَّاب الاشتراكيَّة الصُّرحاء لم يرضوا بهذا التوفيق بل التلفيق، وصوَّروها على أنَّها عقيدة شاملة تنتظم كل شؤون الإنسان والحياة فطرية وعملية.

يقول الدكتور منيف الرزاز ـ الَّذي انتخب أمينًا لحزب البعث الاشتراكي العربي لعدة سنوات ـ في كتابه: «دراسات في الاشتراكيَّة» الَّذي صدر سنة (١٩٦٠م): «إنَّ فهم الاشتراكيَّة على أنَّها نظام اقتصادي فحسب، هو فهْم خاطئ، فالاشتراكيَّة تقدِّم حلولًا اقتصادية لمسائل كثيرة، ولكن هذه الحلول جميعًا ليست إلَّا ناحية واحدة من نواحي الاشتراكيَّة، وفهمها على أساس هذه الناحية الواحدة فهم خاطئ لا ينفذ إلى الأعماق، ولا يتعرَّف إلى الأسس الَّتي تقوم عليها الاشتراكيَّة، ولا يتطلع إلى الآمال البعيدة الَّتي تذهب إليها الاشتراكيَّة.

فالاشتراكيَّة مذهب للحياة، لا مذهب للاقتصاد، مذهب يمتد فيما يمتد إلى الاقتصاد والسياسة، والتربية والتعليم، والاجتماع والصحة، والأخلاق والأدب، والعلم والتاريخ، وإلى كل أوجه الحياة كبيرها وصغيرها، وأنْ تكون اشتراكيًّا يعني أن يكون لك فهم اشتراكي لكلِّ هذا الَّذي ذكرت، وأنْ يكون لك كفاح اشتراكي يضم كل هذا الَّذي ذكرت».

ثم يؤكد الكاتب أنَّ هذه النظرة الشاملة ليست مقصورة على الاشتراكيَّة إنَّما هي الأساس في المذاهب الاجتماعية الأخرى.

QaradawiBooks.com

ولقد برَّر الكاتب شمول المذاهب الاجتماعية واتِّساع نطاقها بحيث تتَّسع إلى جميع المجالات، وأنْ تضع الحلول لجميع المشكلات بأنَّ: «... سبب هذه النظرة الشاملة أنَّ الحياة نفسها شيء واحد ـ تيَّار واحد.. لا يعرف هذا التقسيم الَّذي يخترعه عقلنا؛ لكي يسهل على نفسه إدراك حقائق الحياة، ثمَّ ينسى أنَّه هو نفسه الَّذي قام بهذا التقسيم، ويظن أنَّ الحياة كانت مقسمة هكذا منذ الأزل، فالحياة لا تعرف شيئًا اسمه الاقتصاد منفصلًا عن شيء اسمه الاجتماع، وشيء آخر اسمه السياسة. الحياة شيء متكامل متصل، ولكن عقلنا العاجز المغرم بالتحليل والدرس، لنْ يتمكن من القيام بهذا التحليل والدرس، إذا واجه الحياة ككلٍّ قائم بذاته، فهو مضطر إلى أنْ يقسم الحياة إلى أوجه، وإلى ألوان، وإلى أنواع من العلاقات، فيسمِّي بعضها: اقتصادًا، ويسمِّي بعضها الآخر: سياسة، وبعضها: اجتماعًا، وأخلاقًا، ودينًا، وتاريخًا، وأدبًا، وعلمًا، إلى آخر هذه السلسلة إن كان لها آخر. الحياة كالنهر شيء واحد متصل مستمر، وكذلك حياة أي مجتمع، كبيرًا أو صغيرًا، أُمَّة أو أسرة، حكومة أو حزبًا، فموقف أيِّ مجتمع إزاء الحريَّات السياسيَّة يقرِّر موقفه من الاقتصاد، وموقفه من النظم الاقتصادية، يقرِّر موقفه من الحريات السياسيَّة، وكذلك من الاستعمار ومن الأخلاق ومن التعليم ومن الأدب ومن التاريخ إلى آخر هذه السلسلة الَّتي لا تنتهي».

ويخلص الكاتب من ذلك إلى تأكيد الصفة الشاملة للاشتراكيَّة، فيقول: «... بهذا المعنى تصبح كلمة الاشتراكيَّة إذنْ كلمة لا تقتصر على التغيير من حالة اقتصادية معينة فحسب، بل هي تعبير عن نوع من الحياة بأكملها بجميع وجوهها، والاشتراكيَّة بهذا المعنى ليست وضعًا اقتصاديًّا معينًا، وليست سعيًا في سبيل وضع اقتصادي معين فحسب، بل هي فهم

QaradawiBooks.com

اشـــتراكي لكل نواحي الحياة، وحين أقول بأنَّني اشـــتراكي، فقد عيَّنت موقفي لا من العلاقات الاقتصادية الَّتي أعيش من خلالها فحســـب، بل لقد عيَّنت موقفي من جميع نواحي الحياة الَّتي تلامسني وألامسها».

وعلى هذا المنهج نفسه مشـــى كُتَّاب: «الدعوة الاشتراكيَّة» في مصر في العهد الناصري، فأعلنوها عقيدة شـــاملة تنظِّم حياة الإنســـان كلها، توجِّه فكرته وسلوكه وفلسفته للوجود والتاريخ.

فهذا كمال الدين رفعت «أمين الدعوة والفكر» في الاتِّحاد الاشتراكي العربي، والَّذي اعتبرت كلماته في هذا الوقت بمثابة «الفتوى الرسمية» من جهة الاختصاص المسؤولة.

يقول في مقال نشرته جريدة الأخبار في (١٩٦٢/٣/١٨م): «الاشتراكيَّة ليست نظامًا محدَّدًا، بمعنى أنَّها ليست مثلًا مجرد نظام اقتصادي أو نظام اجتماعي أو نظام سياســـي، ولكنَّها في تقديري عبارة عن فلسفة تجمع نواحي الحياة كلِّهـــا، ومن الخطأ أنْ نأخذ الاشـــتراكيَّة علـــى أنَّها نظام اقتصادي أو نظام سياسي أو نظام اجتماعي، فمجموع هذه المعاني فيما بينهـــا هي الَّتـــي تكمـــل بعضها وتقيـــم الفكـــر الاشـــتراكي أو النظام الاشتراكي».

ويؤكد الدكتور جمال سعيد هذا المعنى في كتابه: «الاشتراكيَّة العربيَّة ومكانها في النظم الاشـــتراكيَّة»: «إنَّها ـ أي الاشـــتراكيَّة العربيَّة ـ تتميَّز لا كحركـــة اقتصادية فحســـب، ولكنَّهـــا تتميَّز كنظام ومذهب إنســـاني وأســـلوب للحياة يهدف لإقامـــة مجتمع جديد، إنَّها ليســـت مجرد نقل ملكية وسائل الإنتاج من الأفراد إلى الدولة أو المجتمع، وليست مجرد سيطرة على الاقتصاد القومي وتوجيهه لصالح المجموع، وليست مجرد

QaradawiBooks.com

إصلاح اجتماعي أو اقتصادي، ولكنَّها تتعدّى كلّ هذا إلى نطاق الحلول النظريَّة والعملية لمشاكل الفرد والمجتمع، إنَّها عملية بناء لمجتمع تؤمَّن فيه كل الضمانات، مجتمع الكفاية والعدل، مجتمع العمل وتكافؤ الفرص، مجتمع الإنتاج والخدمات».

وفسَّر بعض الكتّاب العرب ما الَّذي يعنيه أنْ تكون «الاشتراكيَّة مذهبًا للحياة» و«أسلوبًا لها» أو «فلسفة تجمع نواحي الحياة كلها» فقالوا: «إنَّ معنى هذا أنْ تتناول الاشتراكيَّة حياة الإنسان بكاملها؛ لأنَّها فلسفة كاملة إزاء مشكلة الكون ومشكلة الوجود».

ومما قيل في هذا الشأن: «إنَّ الاشتراكيَّة العربيَّة نظريَّة ثوريَّة كاملة، وإنَّها كذلك لا تحدِّد علاقة الإنسان بالمجتمع فقط، ولكنَّها تتناول حياته كاملة، وهي تكون فلسفة كاملة إزاء مشكلة الكون ومشكلة الوجود، والإنسان لا يعيش بالخبز وحده، ولا يكتفي بحل مشكلة حياته مع الناس، بل هو يتطلع لحل مشكلة وجوده ومعرفة مصيره... والنظريَّة الاشتراكيَّة لا تقدِّم حلًّا لمشكلة الخبز أو مشكلة الحرية، ولكن مشكلة الوجود عامَّة»[1].

قال صاحبي: ولكن ألسنا نسمع هؤلاء كثيرًا ما يُصرِّحون أنَّهم يحترمون الدين أو على الأقل، لا يقفون ضدَّه، فكيف نفسِّر هذا وهم يعتنقون فكرة أو عقيدة أخرى شاملة للحياة كلها شمول الدين؟

قلت: نعم قد يعلن بعض أصحاب هذه العقائد والأيديولوجيَّات أنَّهم لا يعادون الدين ولا يكفرون به، ولكن ما هو الدين الَّذي لا يعادونه؟ إنَّه

(١) نقل ذلك الأستاذ محمد عصفور المحامي في بحث له ـ أخذًا عن الصحف والمجلات المصرية.

QaradawiBooks.com

ليس وحيًا أنزله الله ليحكم عباده، ويقولون عنده: سمعنا وأطعنا؛ لأنَّهم لا يقولون ذلك أبدًا، إنَّما هو شيء يسمَّى: «التراث الروحي» أو «التقاليد» أو «المثل العليا» للأمة، إلى غير ذلك من العبارات المائعة المطَّاطة الَّتي لا تُغني من الحق شيئًا. إنَّ الدين الَّذي يعترف به هؤلاء هو الدين الَّذي ينحني لهم، ويمشي في ركابهم، ويسبِّح دعاته بحمدهم، ويخدم عقائدهم وأفكارهم؛ ولهذا يفتضح نفاق هؤلاء ويبرز عداؤهم للدين سافرًا، حين يتعارض الدين مع شيء من مبادئهم وخلقهم.

إنَّهم حينئذٍ يدوسون الدين، ويعلنون الحرب عليه وعلى دعاته، تارة بحملات التشهير والتشنيع والتضليل، وطورًا بحملات التقتيل والتعذيب والتشريد، فهم يريدون دينًا «مستأنسًا»، دينًا يقوم بمهمة الخادم المطيع، لا الآمر المطاع، أما الدِّين الحقُّ، فإنَّهم بعيدون عنه بُعْد ما بين السماء والأرض.

إنَّ فكرة هؤلاء عن الوجود غير فكرة الدين، ونظرتهم إلى الحياة غير نظرة الدين، وإنسانهم ليس هو إنسان الدين، ومثلهم الأعلى ليس مثل الدين. إنَّ معبودهم في الحقيقة هو المادَّة، وجنَّتهم في الواقع هي الرفاهية، وأخلاقهم هي النفعيَّة.

إنَّ ما يغالي به الدين من تقوى الله وخشيته والتوكل عليه، والخشوع له والإنابة إليه، والتذلُّل بين يديه، والرجاء في جنَّته، والخوف من عذابه، تعدُّ كلها في نظر هؤلاء «التحرّريَّين» «الثوريين» أخلاقًا «رجعيَّة» لا يسمح لها بالبقاء.

إنَّ هذه الأيديولوجيَّات لا يمكن أنْ ترضى في مجتمعاتنا عن هؤلاء النَّاس الَّذين خلع عليهم القرآن وصف المتَّقين: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ

QaradawiBooks.com

﴿ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ۞ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٦، ١٧]، ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ۞ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ۞ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٦٤ ـ ٦٦].

فلا يغرَّنَّك ما تسمع أو تقرأ لهؤلاء عن إيمانهم بالدين أو عدم عداوتهم له، فإنما يقولون ذلك ـ عند الحاجة ـ مداهنة للجماهير المتديِّنة، وكسبًا لقلوبها وانتظارًا للفرصة الَّتي تمكِّنهم من عنق الدين، فهو من باب «تَمَسْكَنْ حتَّى تتمكَّن».

هذا شأن أيديولوجيَّة ثوريَّة مع أي دين، ولعلَّ من المفيد هنا أنْ أضرب لك مثلًا بما حدث في ألمانيا وإيطاليا بين النازيَّة والفاشيَّة وبين الدين المسيحي؛ لتعرف منه ما يجري وما يمكن أنْ يجري هنا في بلادنا بين الإسلام والدعوات الثوريَّة الجديدة، وأنا في هذا ناقلٌ لا مستنتجٌ.

لقد أرادت النازيَّة والفاشيَّة جعل الدين خادمًا يأمر بأمر الأيديولوجيَّات الانقلابيَّة؛ ففي كلٍّ منهما حملت الأيديولوجية مطلبًا جديدًا، يسود كل شيء ويجعل كلَّ شيءٍ يقف موقفًا ثانويًّا بالنسبة إليه، كما يتضح ذلك كل الوضوح في كتابات الحركتين، وفي النازيَّة على الأخص.

ولقد وقعت معاهدة بين الكنيسة وبين الحكومة النازيَّة عام (١٩٣٣م)، بعد أنْ كان من المستحيل الارتباط بها؛ لأنَّ البلاد ـ أي بلاد ـ لا تتسع لإيمانين مطلقين، لهذا لم يكن من السهل على تلك المعاهدة أنْ تسدل ستارًا على الحرب الفاشيَّة بين الجهتين، بالرغم من المحاولات العديدة الَّتي كان يبذلها الطرفان لإبقائها خفية.

QaradawiBooks.com

كان الجيل الألماني ينشأ ـ نتيجة للدعاية النازيَّة ـ على الاعتقاد بأولويَّة الأُمَّة، وبأنَّ الدولة هي أهم وأكبر قيمة من أيِّ دين، وأنَّ الولاء للأُمَّة والدولة هو أهم شيء ويتقدَّم على أيِّ ولاءٍ دينيٍّ آخَر (تأمَّل).

كان هتلر حذرًا جدًّا في مناهضته ومقاومته للدين بشكل علني «تأمل جيدًا»، ولكنَّه أعطى مفكري الحزب الحرية في التعبير عن مناهضتهم ومقاومتهم.

رسم «روزنبرغ» فيلسوف النازيَّة صورة واضحة عن موقف النظام الجديد من الدين بمثل قوله: عندما يضع الاشتراكي القومي قميصه الحزبي، ويصبح جنديًّا من جنود هتلر؛ يمسي دينه إيمانه بزعيمه.

أمَّا «كنوث» فقد كتب: إنَّ المسيحيَّة من البقايا البائدة لثقافة منحلَّة عفَّى عليها الزمان.

لقد كانت عداوة النازيَّة والفاشيَّة للدِّين غامضة أوَّل الأمر، وذلك لمحاربتها الشيوعية الصريحة الإلحاد، وهذا ما خدع الكثيرين، وجعل عددًا كبيرًا من قادة الكنيسة الكاثوليكيَّة والبروتستانتيَّة يقف إلى جانبهما؛ لأنَّهم رأوا فيهما معنًى جديدًا للدين، ولكن كان الأمر على عكس ذلك تمامًا، فقد اتَّبعتا في بادئ الأمر سياسة بعيدة كل البعد عن إلحاديَّة الحركة الشيوعية، وما لبث أنْ تبيَّن للمراقبين أنَّهما ما قبلتا وجود الدين وبقاء الكنائس إلَّا كأداة في خدمة مقاصدهما العقائدية الجديدة؛ لهذا نرى الصراع يذر قرنه رأسًا بينهما وبين الدين عندما يحاول الأخير التمسُّك بأيِّ شيءٍ يتنافى مع المذهب الجديد.

قد تفرض الاعتبارات الإستراتيجيَّة السياسيَّة على الحركات الانقلابيَّة ـ كما فرضت على الفاشيَّة والنازيَّة وإلى حدٍّ ما على

QaradawiBooks.com

الشـــيوعية ـ أنْ تحقِّق بعض التسويات مع الأديان الســـائدة، ولكن هذا التكتيك لا يمكن له أنْ ينســـجم طويلًا مع قاعدتها الأساســـيَّة المنافية للدِّين؛ فشـــمول هذه الانقلابات لا بدَّ له من الخصـــام مع الدِّين، الَّذي يزعم لنفسه الشمول ذاته؛ فليس هناك من تســـوية ممكنة بين الطرفين، وكل تســـوية تحدث لا تخرج عن كونها هدنة مؤقتة في طريق المعركة النهائيَّة، الَّتي يجب أنْ تنتهـــي بالنصر التامِّ لأحدهمـــا، فالأيديولوجية الانقلابيَّة تمثِّـــل دينًا جديدًا ينافس الأديان الســـابقة فـــي تملُّك نفوس الناس؛ ولهذا فإنَّ حياتها ذاتها ترتبط بالنصر النهائي الَّذي تســـتطيع أن تُسجِّله ضدَّ الأديان[1].

هل يمكن بعد هذا كلِّه، لدينٍ محترمٍ أن يقبل معايشة هذه المذاهب، بل الأديان الجديدة؟ وكيف وهي نفسُـــها لا تقبل معايشـــته، ولا تسمح بوجوده إلَّا خادمًا أو تابعًا أو أداةً؟

إنَّ السؤال الأصلي يســـقط من نفســـه إذا حوَّرناه بهذه الصورة: هل يجوز للفرد المسلم أو المجتمع المسلم أن يعتنق دينًا جديدًا كالاشتراكيَّة أو القوميَّة العِلمانيَّة؟

إنَّ الجواب لا شكَّ واضحٌ ومعروف.

وصدق الله العظيم: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ﴾ [الأحزاب: ٤]، ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

* * *

(١) الأيديولوجية الانقلابية للدكتور نديم البيطار صـ ٧٤٢ ـ ٧٤٦، بتصرف، نشر المؤسسة الأهلية للطباعة، بيروت، ط١، ١٩٦٤م.

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

الدعوة القوميَّة في ميزان الإسلام

قال صاحبي: بعد أنْ اتَّضح لنا الموقف من المذاهب والفلسفات الجديدة الَّتي غدت «أديانًا بغير وحي» أريد أنْ أعرف رأيك في هذه القوميَّة؟

قلتُ: أي قوميَّة تعني؟ القوميَّة التركيَّة الطورانيَّة، أم القوميَّة السوريَّة الفينيقيَّة، أم القوميَّة المصريَّة الفرعونيَّة، أم القوميَّة العراقيَّة الآشوريَّة، أم القوميَّة البربريَّة المغربيَّة، أم القوميَّة الكرديَّة الـ...

وهنا قاطعني صاحبي قائلًا: أعوذ بالله من تلك القوميَّات الضيِّقة الَّتي تُمَزِّق شمل الأُمَّة العربيَّة، وتُفتِّت كِيانها، وتخلق الحواجز بينها، أنا لا أعني إلَّا القوميَّة العربيَّة.

قلت: تعني أنَّ القوميَّات منها ما هو حلالٌ طيِّب، ومنها ما هو حرامٌ خبيث، فإذا كانت القوميَّة سوريَّة كالَّتي دعا إليها أنطون سعادة في سوريا ولبنان، أو فرعونيَّة كالَّتي دعا إليها أمثاله في مصر، أو كرديَّة كالَّتي يدعو إليها آخرون في العراق، أو بربريَّة كالَّتي اختلقها المُستعمِرون الفرنسيُّون في المغرب، فكلُّ هذه قوميات حرام، أما إذا كانت القوميَّة عربيَّة كالَّتي يدعو إليها الخواجات وغيرهم فهذه قوميَّة حلالٌ زلالٌ، لا لغو فيها ولا تأثيم!

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

لا بدَّ أنْ نتَّفق أولًا على مبدأ القوميَّة وشرعيَّته: هل هو حقٌّ أم باطل؟ رشدٌ أم غَيٌّ؟ هل يُقبَل كلُّه أم يُرفض كلُّه أم يؤخذُ منه ويُترَكُ؟

قال صاحبي: هذا صحيح.

قلتُ: وقبل ذلك، يلزمنا أنْ نتَّفق على مفهوم كلمة «القوميَّة» ومدلولها، والمراد بها، أما إصدار حكم على شيء قبل تحديد مفهومه، والمراد به، تحديدًا دقيقًا، فهو تسرُّع وتهوُّر لا يليق بالعقلاء، وقديمًا قال أهل المنطق: الحكم على الشيء فرع عن تصوره.

قال: وهذا صحيح أيضًا.

قلت: «القوميَّة» لفظة منسوبة إلى «القوم»، وقوم الرجل في الأصل هم عشيرته الَّذين تربطهم به رابطة الدم والنسب، كما هو واضح من استعمال القرآن لكلمة «قوم» في سياق إرسال الرسل إلى قومهم، ولكن الأنساب والسلالات الآن توزَّعت في الأرض وتفرَّقت، فلم تكد تبقى أمة صافية العنصر، خالصة النسب، وهذا ما جعل دعاة القوميَّة يضطرون في وضع تعريف معيَّن لها، وفي بيان المقوِّمات الأساسيَّة الَّتي بها تتكوَّن الأُمَّة: هل هي الأرض؟ أم السلالة؟ أم الدِّين؟ أم اللغة؟ أم التاريخ؟ أم المصلحة؟ أم مجرَّد الإرادة، أي إرادة قوم أن يعيشوا معًا؟ على أنَّ دعاة القوميَّة في الوطن العربي، قد أغفلوا الدين باعتباره أساسًا للتجمع القومي، وإنَّما هم بين معتمد على الرابطة الطينية الأرضية كدعاة القوميَّة السورية، ومعتمد على الرابطة العنصرية كدعاة القوميَّة الكرديَّة والبربريَّة، ومعتمد على الرابطة اللُّغويَّة والتاريخيَّة كدعاة القوميَّة العربيَّة.

ومهما يكن الأساس الَّذي تبنى عليه القوميَّة، فماذا تعني الدعوة إليها؟ «إن كانت تعني أنْ يحبَّ الرجلُ قومَه، ويسعى إلى خيرهم ورُقِيِّهم

QaradawiBooks.com

ونهضتهم ويبذل كلَّ ما في وسعه لمجدهم وعزَّتهم، فهذا أمر مشروع يباركه الدين ويؤيِّده ويدعو إليه»، وإن كانت تعني أنْ يتَّحد القوم صفًّا واحدًا في قضاياهم، ويتعاونوا على البر والتقوى، فنعمت القوميَّة هي، وإن كانت تعني التكتُّل ضدَّ هجمات الغاصبين، وعدوان المعتدين، فمرحى ثمَّ مرحى... «وإن كانت تعني تحرير الوطن من احتلال أعدائه، والنهوض به في جميع مرافقه، فمرحبًا بها وأهلًا، وإن كانت تعني...».

قال صاحبي: وهل تعني القوميَّة أكثر من هذا؟!

قلت: نعم، لو كان دعاة القوميَّة في أوطاننا يقفون عند هذا الحدِّ؛ لكان الخلاف بيننا وبين القوميِّين لفظيًّا، وكنَّا معهم بحكم ديننا الَّذي يجعل هذه الأمور فرائض مقدَّسة ـ تحرير الوطن والنهوض به، ووحدة الأمة، والوقوف في وجه الأعداء إلخ، والَّذي يجعل لعشيرة المسلم وجيرانه حقًّا أكثر من غيرهم على النَّاس بحكم القرابة الواصلة والجوار الجامع، ولكنَّ الحقيقة أنَّ بيننا ـ معشر الدعاة إلى الإسلام ـ وبين الدعاة إلى القوميَّة ـ كما يعرضها دعاتها اليوم ـ هوة عميقة أو فجوة واسعة، والخلاف بيننا وبينهم خلاف حقيقي جذري، لا يمكن معه لقاء فكري بين الطرفين.

قال صاحبي: وما هي الأمور الَّتي تخالفون أو يخالفكم فيها دعاة القوميَّة، وأعني بالذات القوميَّة العربيَّة؟

قلت: نحن نعارض دعاة القوميَّة في عدَّة أمورٍ جوهريَّةٍ، يتمسَّكون هم بها، وينكرها الإسلام، وتمسُّكهم بها ـ فيما يبدو ـ أمرٌ حتميٌّ؛ لأنَّها مقتضى فكرتهم، ولازمٌ من لوازم دعوتهم.

QaradawiBooks.com

أولًا: إنَّهم يعتبرون القوميَّة «عقيدة» يجب الإيمان بها، والولاء لها، والدعوة إليها والتعصُّب لها، ومعاداة من لا يقبلها ولا يعتنقها، عقيدة يجب أنْ يُقدَّم الولاء لها على أيِّ ولاء آخر، ولو كان الولاء لله ولرسوله ولكتابه، يجب أنْ يغرس حبها في أعماق القلوب، وأنْ يبدأ ذلك منذ نعومة الأظفار، وأنْ تفرغ فيها كل العواطف والمشاعر.

يجب أنْ ينبثق من هذه العقيدة القوميَّة نظام الحكم، وسياسة الدولة، ومناهج التربية والتعليم، ووسائل التثقيف والإعلام، يجب أنْ يكون اتجاهها جميعًا قوميًّا صرْفًا، وأنْ تكون صيغتها الوحيدة الصيغة القوميَّة، وأنْ تُزال أو تطرد كل صيغة أخرى.

إنَّ ما قلناه من قبل عن الاشتراكيَّة النازيَّة والفاشيَّة وما شاكلها نقوله هنا، أعني أنَّها عقائد وأديان جديدة، تعمل جاهدة على أنْ تحتل قلوب النَّاس وعقولهم، وتطرد منها الدين القديم، وهذا الَّذي نقوله واضح في كتابات القوميِّين اليوم كل الوضوح.

فهذا كاتب قومي يقول: الوجدان القومي العربي بدأ يستيقظ في نفوس أفراد من العرب في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، وأول ما بدأ ذلك في ديار الشام مهَّدوا بالقضاء على الحكم الأجنبي «التركي» يومئذٍ وعلى الإقليمية، وقد تزعم هذه الحركة وقادها بعض الفضلاء المسيحيين الَّذين لم تكن تربطهم بالأتراك رابطة العقيدة والدين المتينة ورابطة الإخاء الإسلامي، وكانوا مثقفين بالثقافة الغربيَّة الَّتي تقوم على تمجيد القوميَّة، وكان من زعمائها الأوليين: الدكتور فارس نمر، والشيخ إبراهيم اليازجي، والأستاذ نجيب العازوري اللبناني.

QaradawiBooks.com

القضيَّة العربيَّة لنْ تكـــون أبدًا عند العربي المؤمـــن، الحر العاقل، الشريف الصالح، الخير الأبي، المترفع، إلَّا قضيَّة إيمان بالوطن للوطن، كقضيَّة الإيمان بالله لله لا غير.

ويشـــرح الكاتب «العروبة» في بيان واضح ولفـــظ صريح، فيقول: العروبة نفسها «دين» عندنا نحن القوميِّين العرب المؤمنين العريقين من مسلمين ومســـيحيين؛ لأنَّها وجدت قبل الإســـلام، وقبل المسيحيَّة، في هـــذه الحياة الدنيا، مـــع دعوتهـــا ـ أي العروبة ـ أســـمى ما في الأديان السماوية من أخلاق ومعاملات وفضائل وحسنات.

ومما يـــدلُّ على أنَّ القوميَّـــة العربيَّة قد أصبحت فـــي نظر كثير من دعاتها والمؤمنين بها ديانة إزاء ديانة، وعقيدة مقابل عقيدة؛ مقال لكاتب قومي آخر، جاء في مجلة «العربي» عدد يناير (١٩٥٩م):

ومن معانيه الأولى وحدة لكل من تســـمَّى به من أهل هذه الأرض، والوحدة العربيَّة يجب أنْ تنزل من قلوب العرب أينما كانوا منزل وحدة الله من قلب قوم مؤمنين.

ويقول الكاتب الأديب المصري المشـــهور الأســـتاذ محمود تيمور منســـاقًا في هذا التيار: لئن كان لكل عصر نبوته المقدســـة، إنَّ القوميَّة العربيَّة لهي نبوَّة هذا العصر في مجتمعنا العربي، ورسالة هذه النبوة هي تجميع القـــوة، وتكتيل الجبهـــة، والانطلاقة بالطاقة البشـــرية في كيان المجتمع العربي نحو كسب الحياة.

وإنَّ كتّاب العرب في أعناقهم أمانة، هـــي أنْ يكونوا حواريين لتلك النبوَّة الصادقة، يزكُّونها بأقلامهم، وينفثون فيها من أرواحهم، ويعملون على أنْ تكتمل لها أسباب النماء والازدهار.

QaradawiBooks.com

ثانيًا: إنَّ النتيجة الحتمية لهذه العقيدة القوميَّة أنْ نجد القوميِّين عامَّة يجمعون على إعلاء الرابطة القوميَّة على الرابطة الدينيَّة؛ ولهذا ترى دعاة القوميَّة العربيَّة يفضِّلون العربي غير المسلم على المسلم غير العربي، بل إنَّهم ليجحدون رابطة الإيمان، ولا يعترفون بأثرها في العلاقات والسلوك؛ وهذا يخالف ما جاء به القرآن الكريم: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، وما جاءت به السُّنَّة: «**المسلم أخو المسلم**»(١). القرآن يأمرنا أنْ ندوس كل رابطة إذا تعارضت مع عقيدة الإسلام، ورابطة الإسلام، فيقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [التوبة: ٢٣]، ويقول سبحانه: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢].

أرأيت أعز وأوثق من علاقة الأب ببنيه، أو الابن بأبيه؟ إنَّها علاقة يباركها الدين، ويحرص على توثيق عراها، ويقدِّر العواطف الكريمة الَّتي تنبع منها، ولكنَّه لا يسمح لها أبدًا أنْ تعلو على رابطة الإيمان، فضلًا عن أنْ تعارضها، وتقف في سبيلها؛ فهذا نوح ينجيه الله مع المؤمنين من الطوفان، فيأبى أحد أبنائه أنْ يؤمن به، ويركب معه سفينة النجاة، وذهب يعتصم بالجبل من الغرق فأدركه الغرق، إذ لا عاصم يومها من أمر الله إلَّا من رحم، وأدركت عاطفة الأبوة نوحًا عليه السلام، فأراد أنْ يشفع له عند الله: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في المظالم والغصب (٢٤٤٢)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٨٠)، عن ابن عمر.

QaradawiBooks.com

عِلْمٌ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [هود: ٤٥ ـ ٤٧].

كان الرد الإلٰهي على نوح ردًّا حاسمًا صريحًا: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ [هود: ٤٦]، فليس أهل نوح مَن خرج من صلبه، وإنَّما أهله وشيعته هم المؤمنون الصالحون، فلا عجب أنْ يقول الله تعالى عن علاقة إبراهيم خليل الله به بعد قرون بينهما لا يعلمها إلَّا الله: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ﴾، أي: نوح ﴿لَإِبْرَٰهِيمَ ۝ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الصافات: ٨٣، ٨٤].

وإبراهيم يدعو أباه إلى التوحيد بالحكمة والموعظة الحسنة، وأنْ يدع عبادة الأصنام الَّتي لا تسمع ولا تبصر ولا تغني عنه شيئًا، ويقول في ختام دعوته في حبٍّ وإشفاق: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا﴾ [مريم: ٤٥]، فماذا قال الأب الَّذي شبَّ وشاب على الوثنية؟ ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ۝ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾ [مريم: ٤٦، ٤٧]. وأنجز إبراهيم وعده واستغفر لأبيه ربَّه: ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الشعراء: ٨٦].

ولكنَّه حين تبيَّن لإبراهيم عناد أبيه وإصراره على كفره، أعلن مخاصمته في الله، وجاهره وقومه عامَّة بالبغض في الله، وبرئ إلى الله من شركه وشرك قومه، ممَّا سجله له كتاب الخلود في آيات بيِّنات: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۝ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ﴾ [الزخرف: ٢٦، ٢٧]، ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤].

QaradawiBooks.com

وجعل موقفه من أبيه وقومه أسوةً للأجيال المؤمنة إلى قيام الساعة حيث قال: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ [الممتحنة: ٤].

وإذا كان إبراهيم قد خسر علاقة أب في ذات الله، فإنَّ الله عوَّضه ألوف الملايين يعترفون له بالأبوة الرُّوحيَّة، ويصلُّون كلَّ يوم مرّات كثيرة على إبراهيم، وعلى آل إبراهيم، فالذي قطع صلة إبراهيم بأبيه المشرك، وصله بالمؤمنين وجعلهم له أبناء بعد ألوف السنين: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٨]، ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الحج: ٧٨].

وإذا كان هذا موقف القرآن من رابطة الأبوة والبنوة ـ إذا تعارضت مع الإيمان ـ فما بالك بروابط أبعد تقوم على غير أساس الإيمان والإسلام؟

إنَّ القرآن لا يعترف إلَّا بالإيمان رابطة، ولا يقر إلَّا الإخاء الإسلاميّ جامعًا بين المسلمين: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، أمّا القوميّون فلا يعترفون بالدين جامعًا، ولا مفرِّقًا بين الناس.

إنَّ مثل القوميِّين الأعلى يتجلّى في قول شاعرهم:

بِلَادُكَ قَدِّمْهَا عَلَى كُلِّ مِلَّةٍ ... وَمِنْ أَجْلِهَا أَفْطِرْ وَمِنْ أَجْلِهَا صُمِ
هَبُونِي دِينًا يَجْعَلُ الْعُرْبَ وَحْدَةً ... وَسِيرُوا بِجُثْمَانِي عَلَى دِينِ «بُرْهُمِ»
سَلَامٌ عَلَى كُفْرٍ يُوَحِّدُ بَيْنَنَا ... وَأَهْلًا وَسَهْلًا بَعْدَهُ بِجَهَنَّمِ[1]

(١) الأبيات للشاعر القروي رشيد سليم الخوري، كما في ديوانه الأعاصير صـ ١١١، نشر مطابع مجلة الشرق.

QaradawiBooks.com

أمَّا المسلمون بل المؤمنون جميعًا، فيرون هذا الكلام كفرًا صريحًا، ينافي أبسط قواعد الإيمان.

إنَّهم يريدون منَّا أنْ نسوِّي بين أبي لهب وأبي بكر، وبين أبي جهل وعمر بن الخطاب؛ لأنَّهم في الميزان القومي سواء، ولكنَّ القرآن يقول: ﴿لَا يَسْتَوِيٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الحشر: ٢٠]، ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ﴾ [السجدة: ١٨].

إنَّهم ينكرون علينا أنْ نهتمَّ بقضيَّة كقضيَّة مسلمي كشمير، أو قضيَّة مسلمي الحبشة، أو مسلمي الاتِّحاد السوفيتي (٦٠) مليونًا، ولا حَرج عندهم أنْ يناصروا الوثنيِّين الهنود ضدَّ المسلمين، ولا جناح عليهم أنْ يؤيِّدوا النصارى اليونانيِّين في قبرص ضدَّ المسلمين الأتراك، ولا بأس عليهم أنْ يقفوا مع الشيوعيِّين الرّوس، أو الصِّينيِّين ضدَّ الأقلِّيَّات الإسلاميَّة الَّتي تبلغ عشرات الملايين[1].

ثالثًا: نعيب على القوميِّين عزلهم الدين عن المجتمع والدولة، فالقوميّون عامَّة ينادون بدولة عِلمانيَّة (لا دينيَّة) ويحصرون الدين في نطاق ضيِّق، لا يتجاوز العلاقة بين الإنسان وربِّه «هذا إن رضوا بوجود الدين واعترفوا ببقائه»، أما أنْ يتدخَّل الدين في توجيه المجتمع وتشريع الدولة، ونظام الحياة، فهذه «رجعيَّة» يحاربها القوميّون جميعًا. يقول أحدهم مبيِّنًا مهمة القوميَّة العربيَّة: «وتحارب الجهل والفقر والمرض والظلم، وكل عصبيَّة إلَّا العصبيَّة القوميَّة، وتفصل الدين عن السياسة،

(١) رأيناهم في السنوات الأخيرة يبررون الغزو الروسي لأفغانستان المسلمة، ويقفون في صفِّ الغزاة ضد المجاهدين المسلمين الأبطال، الذين يدافعون عن العقيدة والأرض والعرض!

QaradawiBooks.com

وتحرِّم على رجال الدين الاشتغال بها، وتعلِّم العربيّ أينما كان أنْ يتعصَّب بعنف لأمرين: قوميته والحق».

وما دفعهم إلى ذلك، إلَّا أنَّهم طبَّقوا على الإسلام في الشرق، ما طُبِّق على المسيحيَّة في الغرب، وهذا خطأ جسيم، فالإسلام غير المسيحيَّة في طبيعته وتاريخه وعلاقته بالمجتمع والحياة، والقرآن غير الأناجيل، والمسجد غير الكنيسة، وعلماء الإسلام غير رجال الكهنوت.

المسيحيَّة ليس فيها تشريع لدولة، ولا تنظيم للحياة، وإنَّما هي عقيدة وصلاة وسلوك فرديٌّ، وإنجيلها مواعظ للترغيب والترهيب فحسب.

ومع هذا لم تتخلَّ الكنيسة عن التدخل في شؤون الحكم والسياسة، ولم تدع ما لقيصر لقيصر، وما لله لله، كما قال المسيح[1]، بل دسَّت أنفها في كل شيء، وساندت الملوك والأباطرة والنبلاء ضدَّ طبقات الشعب، فلمَّا اندلعت نيران الثورات أكلت الملوك والقسيسين معًا، وكان نداء الثوار: «اشنقوا آخر ملك، بأمعاء آخر قسيس».

ولم يقتصر تدخُّل الكنيسة على شؤون الحكم والسياسة، بل تجاوز ذلك إلى شؤون العلم والفكر، فتبنَّت الكنيسة كل نظريَّة قديمة، ووقفت تحاربُ كل جديد، وتطالب بقتل العلماء والمُفَكِّرين وتحريقهم.

كان دين الكنيسة ـ ولا أقول دين المسيح؛ لأنَّ الغربيِّين لم يعرفوا دين المسيح قطُّ ـ قد جعل من نفسه عدوًّا للحياة، عدوًّا للتقدم، عدوًّا للعلم، عدوًّا للحُرِّيَّة، عدوًّا للعدل والمساواة، فكان لا بدَّ للناس في الغرب وقد مسَّتهم نفحة من الشرق أيقظتهم من سباتهم، عن طريق

(١) إنجيل متَّى (٢٢: ٢١).

الأندلس، وعن طريق الحـرب الصليبيَّة، فنهضوا يريدون الحياة والتقدُّم والعلـم، والحرية والإخـاء والعدالة والمسـاواة... كان لا بـدَّ لهم أنْ يصطدموا بأعداء هذه الفضائل كلِّها، وهم ممثِّلُو الدِّين هناك ـ للأسف ـ وكان من الطبيعي أن ينتصر هذا النور الزاحف على ذلك الظلام الراكد، وأن يعلن القوم بعد انتصارهم تنحية الدِّين عن الحياة العامَّة، وعزله عن قيادة المجتمع وتوجيه الدولة.

فهل يجوز أنْ يحمل هذا التاريخ الأسود الكريه، ليوضع برُمَّته على رؤوسنا ويُحَمِّل ديننا تبعةَ فساد دينٍ آخر في بلاد أخرى؟

إنَّ الإسلام دينٌ قام من أوَّل يوم على النظر والتفكُّر، وتمجيد القلم والكتاب، والتفرقة بين الَّذين يعلمون والَّذين لا يعلمون، ورفض التقليد والجمود واتِّباع الظنِّ، والحرص والهوى، ولم يحدث في تاريخه صراع حقيقي بين الدِّين والعلم، وبين النقل والعقل، وبين الشريعة والحكمة.

ولم يقف هذا الدين ضـدَّ الحياة والنور والتقـدُّم يومًا، بل كان هو القلب الَّـذي يمدُّ الحياة بالدم، والشـمس الَّتي تمـدُّ المجتمع بالنور، والماء الَّذي يجعل من النَّاس كلَّ فردٍ حيٍّ.

ولم يقف علماء هذا الدين يومًا ما ـ بصفة جماعيَّة ـ يسندون الظلم الحاكـم أو الحكم الظالم، بـل كانوا ـ في جملتهم ـ قادة الشـعب في معاركه الكبرى ضدَّ الغزو من الخارج، والظلم من الداخل.

والخلاصة يا صاحبي: أنَّ القومي الأصيل ـ كما صوَّره هؤلاء ـ يسقط الدين من حسـابه، ويضعه على «الرفِّ» أو في مسـتودعات المستهلك والتالف الَّذي لا ينتفع به، ولا يلتـزم القومي الأصيل نحو الدين وقيمه

QaradawiBooks.com

وعقائده وأحكامه بشيء، فلا حَرج عليه قطّ أنْ يأخذ من الماديين مذهبهم في تفسير الوجود، ومن أبيقور مذهبه في تفسير التاريخ، ومن دوركايم مذهبه في علاقات المجتمع، ومن سارتر مذهبه في الأدب والحياة، ولا يسأل نفسه يومًا: هل تتفق هذه المذاهب والأفكار مع الإسلام أم لا؟ على أنَّهم لو عرفوا فعلًا أنَّها تعارض الإسلام ويعارضها، لعضُّوا عليها بالنواجذ، ونبذوا الإسلام وراءهم ظهريًّا.

رابعًا: نعارضُ القوميِّين في تفتيتهم للأُمَّة الإسلاميَّة ـ الَّتي أرادها الله أُمَّة واحدة كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [المؤمنون: ٥٢]، ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣] ـ إلى أمم شتى، وقوميات متضاربة، تتنازع على حدود أرضية، وتتفاخر بعصبيات جاهليَّة، وتعتز بغير الأخوة الدينيَّة، والرابطة الإسلاميَّة الَّتي قرنها الله في كتابه بالإيمان، وجعلها دليله وعنوانه فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٠٠]، أي: بعد أخوتكم ووحدتكم متفرقين متنازعين، فالقرآن يعبِّر عن الوحدة بالإيمان، وعن التفرق بالكفر؛ لأنَّه يؤدي إليه، وفي الحديث الصحيح: «**سِبابُ المسلمِ فسوقٌ، وقتالُه كُفر**»[(١)]، «**لا ترجعوا بعدي كفَّارًا يضربُ بعضُكم رقابَ بعض**»[(٢)]، ويقول: «**إذا التقى المسلمان بسيفيهما، فالقاتلُ والمقتولُ في النار**»، قالوا: هذا القاتلُ، فما بال المقتول؟ قال: «**إنَّه كان حريصًا على قتل صاحبِه**»[(٣)].

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري (٤٨)، ومسلم (٦٤)، كلاهما في الإيمان، عن ابن مسعود.

(٢) متَّفق عليه: رواه البخاري في العلم (١٢١)، ومسلم في الإيمان (٦٥)، عن جرير بن عبد الله.

(٣) متَّفق عليه: رواه البخاري في الإيمان (٣١)، ومسلم في الفتن (٢٨٨٨)، عن أبي بكرة.

QaradawiBooks.com

ومنطق القوميَّة يجيز للمسلمين أنْ يقاتل بعضهم بعضًا، ويسفك بعضهم دماء بعض، نتيجةً لتصارع القوميَّات المختلفة، كما رأينا ذلك في اقتتال العرب والترك في الحرب العالميَّة الأولى، بتدبير الإنجليز وتحريكهم، بل تحت قيادتهم، فأعجب. وكما رأينا من قريب، قتال القوميَّة العربيَّة مع القوميَّة الكرديَّة في العراق.

وإذا كنت في مطلع حديثك قد استعذت بالله ـ بوصفك عربيًّا ـ من القوميَّات الضعيفة الَّتي تمزِّق شمل الأُمَّة العربيَّة، وتفتِّت كيانها، وتخلق الحواجز بينها، فهذا المنطق نفسه، يحتِّم عليك ـ بوصفك مسلمًا ـ أنْ تستعيذ بالله أيضًا من القوميَّات الضيِّقة الَّتي تمزِّق شمل الأمة الإسلاميَّة، وتفتِّت كيانها إلخ، سواء كانت تلك القوميَّات عربيَّة أو طورانية أو فارسية أو غيرها.

خامسًا: إنَّ الفكرة القوميَّة فكرة جاهليَّة رجعيَّة، تنكر الدين، وينكرها الدين، كل دين فضلًا عن الإسلام.

أما إنَّها جاهليَّة؛ فلأنَّها تقوم على إحياء العصبيَّة الَّتي كانت من أخصِّ سمات العصر الجاهلي، والَّتي برئ الإسلام ورسوله منها كل البراءة إذ قال: «**ليس منَّا من دعا إلى عصبيَّة، وليس منَّا من قاتل على عصبيَّة، وليس منَّا من مات على عصبيَّة**»[1].

ومن إحياء العصبيَّة الجاهليَّة: الاعتزاز بالآباء، والتفاخر بالأجداد، وإنْ كانوا في نظر الإسلام من أكفر الكفار، وأفجر الفجار، وأولى النَّاس

(١) رواه أبو داود في الأدب (٥١٢١)، وضعَّفه الألباني في ضعيف الجامع (٤٩٣٥)، عن جبير بن مطعم. ورواه بنحوه مسلم في الإمارة (١٨٤٨)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

بالنار، وبئس القرار، كالذين يعتزون بفرعون ـ كرمسيس وغيره ـ أو بأبي جهل ومن شاكله من العرب.

روى التِّرْمِذي، وأبو داود، عن أبي هُرَيْرة أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**لينتهينَّ أقوامٌ يفتخرون بآبائهم الَّذين ماتوا، إنَّما هم فحم جهنَّم، أو ليكونُنَّ أهونَ على الله ﷻ من الجُعَل الَّذي يُدَهْدِهِ الخُرْءَ بأنفه، إنَّ الله قد أذهب عنكم عُبِّيَّةَ الجاهليَّة** ـ أي: كِبْرها ـ **وفخرها بالآباء، إنَّما هو مؤمنٌ تقيٌّ، وفاجرٌ شقيٌّ، النَّاس كلُّهم بنو آدم، وآدم خُلِقَ من تراب**»[(١)].

الجُعَل: دُوَيْبَّة أرضيَّة، تُدَهْدِهِ الخُرْء بأنفها: أي تدحرجه، وهي مَثَلٌ في الهوان والحقارة، وأهون منه عند الله الَّذين يفخرون بالكفرة من أجدادهم، وما هم إلَّا فحم جهنَّم ووقود النار.

ولقد حدَّثني بعض الثقات أنَّ أحد القوميِّين الغلاة، سمَّى ابنه: «لهبًا» ليناديه النَّاس بكنية «أبي لهب» فيحيي بذلك ذكر زعيم عربي من زعماء الجاهليَّة؛ ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد: ١]!

وقد نسمع غدًا من يسمِّي ابنه: «جهلًا» ليكنَّى «أبا جهل»! والجنون فنون.

وأما إنَّها رجعيَّة؛ فلأنَّها ليست إلَّا امتدادًا للشعور القبلي، وإذعانًا لعصبيَّة العشيرة، والتنادي بنصرتها ظالمة ومظلومة، وهذه رجعة بالإنسان إلى الوراء البعيد، حيث كانت ارتباطات العشيرة وحدها، هي الَّتي توجِّه الفرد وتسيِّره، وفقًا لنزعاتها وتقاليدها، ثمَّ انتقل ولاء الإنسان

(١) رواه أبو داود في الأدب (٥١١٦)، والترمذي في المناقب (٣٩٥٥)، وقال: حديث حسن غريب. وأحمد (٨٧٣٦)، وقال مخرِّجوه: إسناده حسن.

QaradawiBooks.com

من العشيرة إلى الأمة، ثمَّ نقلته الأديان السماوية إلى أفق أعلى وأرحب هو أفق العالمية الإنسانيَّة.

يقول إمري ريفر في كتابه: «قضيَّة السلام» تحت عنوان: «تشويه الدين»: «بلغت عبادة الدولة القوميَّة ذروتها في البلاد الفاشيَّة».

ولكن تشويه الدين وتسخيره للغايات القوميَّة لوحظ في كل أُمَّة.

إنَّ العنصر المقدَّس والمهذَّب في المسيحيَّة هو أنَّها عالميَّة، وأنَّ مبدأها أنَّ النَّاس خلقوا متساوين أمام الله، وهم يعنون لإلٰـه واحد، قانونه واحد، يسري على النَّاس جميعًا، ولقد كانت هذه فكرة ثوريَّة في التاريخ البشري، ولكن ظهور الدولة القوميَّة منع هذه الفكرة أن يكون لها أثر مهذب.

ففي اللحظة الَّتي بدأت فيها الأمم الحديثة تتبلور، بدأ الشعور القومي في العالم الغربي يتغلب على الشعور المسيحي، وكانت الكنيسة منقسمة، وازدادت انقسامًا إلى مذاهب أخرى، يؤيِّد كل منها المثل الأعلى الناشئ للأمة.

وصار من المعترف به في كل بلد أنَّ السياسة القوميَّة سياسة مسيحيَّة، وتحولت الكنائس المسيحيَّة إلى هيئات قوميَّة، تؤيِّد الغرائز القبليَّة للروح القوميَّة.

ففي آلاف من الكنائس يسأل اللهَ القسسُ الكاثوليك، والوعاظُ البروتستانت، المجد لمواطنيهم، والويل لغيرهم، وإنْ كان هذا يتناقض مناقضة شديدة مع أسمى المثل العليا الدينيَّة الَّتي أوتيها الإنسان.

إنَّ المبدأ الأخلاقي الكوني لا يكون كونيًّا ولا أخلاقيًّا، إذا كان لا يصح إلَّا داخل جماعات منفصلة من الناس.

QaradawiBooks.com

فـ «لا تقتل» لا يمكن أنْ يكون معناها أنَّ مـن الإجرام أنْ تقتل رجلًا من مواطنيك، ولكن من الفضيلة أنْ تقتل رجلًا يعد مواطنًا في دولة أخرى.

ومثل هذا التطوُّر يلاحظ في جميـع أديان التوحيد الثلاثة، فالوحدة الَّتي احتفظ بها القرآن قرونًا بين الشعوب الإسلاميَّة المختلفة الأصول، قد ذهبت وصار الشعب الإسلامي قوميات شتى.

فدعاة الجامعة التركيـة يرمون إلى توحيد فـروع معينة من الجنس التركي، ودعاة الجامعة العربيَّة يشيرون باتحاد الشعوب العربيَّة.

ويقول المسـلمون في الهند: «إنَّنا هنود أولًا ومسلمون بعد ذلك»، وقد نسي الجميع الصبغة العالمية الَّتي كانت أساس دين الإسلام العظيم.

والأمر لا يقتصر على المسيحيَّة والإسلام، فإنَّ أقدم الموحدين، وهم اليهود، قد نسوا التعاليم الأساسيَّة، وهي أنَّه عالمي.

فهم يبغون أنْ يعبدوا بعواطف مشبوبة، إلٰهَهم القوميَّ الخاصَّ، وأن تكون لهم دولتهم القوميَّة.

وما من اضطهاد أو عذاب مهما بلغ من أمره، يمكن أنْ يسـوِّغ نبذ هذه الرسـالة العالمية من أجل القوميَّة، وهي اسم آخر للقبلية الَّتي هي أصل مصائبهم جميعًا.

وإنَّه لعلى أعظم جانب من الخطر لمستقبل الإنسانيَّة، أنْ تدرك مبلغ التشويه الَّذي أصاب عقيدة التوحيد العالمية.

فما كان من الممكن قط ـ بدون تأثيرها ـ أنْ تقوم الحرية الإنسـانيَّة في الجماعة الديمقراطية، ولا أنْ تبقى، وما من سبيل إلى إنقاذ الجماعة الإنسانيَّة إلَّا بالعالمية.

QaradawiBooks.com

فإذا لم تعد الكنائس المسيحيَّة إلى مبدئها المركزي، وتجعله مبدأها المركزي فيما تعمل، فإنَّها ستزول أمام عقيدة جديدة عالمية، لا بدَّ أن تبرز من بين الخراب والآلام، الَّتي يسبِّبها تهافت القوميَّة الآتي لا محالة.

سادسًا: إنَّ دعاة القوميَّة لا يكتفون بعزل الدين عن الحياة، بل يقفون موقف العداوة للتيَّار الإسلامي، والمعارضة لكل حركة إسلاميَّة قوية، تعمل على استعادة نظام الإسلام، وتنادي بالعودة إلى تعاليمه والاعتصام بحبله، والتكتُّل تحت لوائه، وهذه العداوة من القوميِّين للإسلام منطقية لأمرين:

الأول: إنَّ هذه الخصومة والعداوة نتيجة طبيعية للمقدمات الَّتي ذكرناها من قبل باعتبارها عناصر لازمة للقوميَّة أو مرتبطة بها، من إعلاء الرابطة القوميَّة على الرابطة الدينيَّة، واحتقار الأخوة الإسلاميَّة، والمناداة بدولة عِلمانيَّة لا دينيَّة، ومعارضة الوحدة الإسلاميَّة وتمزيق الأمة الإسلاميَّة إلى أمم وقوميات متعارضة، إلخ.

الثاني: إنَّ هذه القوميَّات في عالمنا الإسلام إنَّما بذر بذرتها فيه، وتعهَّدها ونمَّاها هو التبشير والاستعمار، وقد اختار تلاميذه في أوَّل الأمر لخدمة هذه القضيَّة من غير المسلمين ليهدم بهم الخلافة الإسلاميَّة في تركيا، الَّتي أذلَّت الغرب النصراني يومًا ما، وطرقت أبواب فيينا سنة (١٦٨٣م)، ثمَّ ليهدم بهذه القوميَّات الجديدة أيَّ أمل في وحدة إسلاميَّة مستقبلة؛ فلا عجب أنْ رأينا أنطون سعادة مثلًا يدعو إلى قوميَّة سورية، وسلامة موسى يدعو إلى قوميَّة مصرية، وميشيل عفلق وجورج حبش يدعوان إلى قوميَّة عربيَّة، ومن تكليف الأشياء ضدَّ طباعها أنْ نطالب هؤلاء الدعاة النصارى الأقحاح بالولاء للإسلام، ورسالة الإسلام، وأخوة الإسلام.

QaradawiBooks.com

ولقد بدأ هذا الخطر بالقوميَّة الطورانية، الَّتي تبنَّاها حزب «الاتحاد والترقي» في تركيا، وانتهى أمرها بفصل العرب عن دولة الخلافة، وقيام الحرب بين الأخوين المسلمين يقاتل أحدهما الآخر بقيادة الكفار وتوجيههم، ووحي المستعمرين الصَّليبيِّين وتدبيرهم، وما أمر الثورة العربيَّة ودور لورانس فيها ببعيد.

ولقد آتت هذه العصبيَّة القوميَّة الطورانية ثمراتها، فألغيت الخلافة، وهدمت هذه الفلسفة الضخمة للإسلام، وتمزَّقت الدولة الإسلاميَّة الكبرى إلى دويلات ومزق وأشلاء تنتسب إلى أوطان وقوميات شتى، لا تستطيع أنْ تخيف.

قال صاحبي: ولكن أليست هذه الأفكار قد نبتت في ديار الإسلام نفسها، وبوحي من تفكير أبنائها أنفسهم، فلماذا ننسبها إلى الأجانب المستعمرين ونجعلها «بنت سفاح» لا بنت حلال؟

قلت: إنَّ هذه الأفكار قد جلبت بذورها إلى ديارنا جلبًا، وتولَّى أعداؤنا زرعها في تربتنا بأيديهم، وقام عليها تلاميذهم وأنصارهم وعبيد مدنيَّتهم، فليس ما نقوله زعمًا ندَّعيه، بل هو ما يعترف به الأجانب أنفسهم والقوميون ذاتهم، وما يُؤيِّده التاريخ والواقع والمقارنة بين الأمس واليوم.

يقول الأستاذ برنارد لويس رئيس قسم التاريخ في كلية الدراسات الإفريقية والشرقية بجامعة لندن: «كانت الإمبراطورية العثمانية آخر وأطول الإمبراطوريات الإسلاميَّة العالمية الكبيرة الَّتي حكمت الشرق الأوسط، منذ أيام الخلفاء الراشدين، وفي هذه الإمبراطورية كان ولاء المسلمين الأساسي للإسلام، وللدولة الَّتي تجسِّد واقع الإسلام

QaradawiBooks.com

السياسي، وللخلافة الَّتي اكتسبت الصفة الشرفيَّة بالمبايعة على مرور الزمن، والَّتي كانت تسوس أمور الناس، وكان المعارضون والمتمردون يسعون لتغيير الوزراء أو الحكَّام أو حتَّى الخلافة الحاكمة كلها، ولكنَّهم لم يسعوا أبدًا لتغيير أساس الولاء لدولة الإسلام ولوحدة هُويته»[١].

ويتحدَّث عن العرب وموقفهم داخل الخلافة العثمانية فيقول: «لقد كانوا على علم باختلاف لغتهم وثقافتهم وذكرياتهم التاريخيَّة عن الترك، ولكنَّهم لم يبدوا أي رغبة جديَّة بالانسلاخ عن الدولة العثمانية، ولم يعترضوا على وجود سلطان تركي، بل على العكس من ذلك كان من المحتمل أنْ يستغربوا وجود غيره على رأس الحكم العثماني، ولقد كانت فكرة قيام الدولة على أساس الأرض والوطن القومي غريبة أجنبيَّة بالنسبة لهم، حتَّى إنَّ كلمة «Aralua» ليس لها مثيل في اللغة العربيَّة، وكذلك الأتراك لم يخترعوا كلمة «تركيا» إلَّا حديثًا، وهي من أصل أوربي، أما العرب فلم يخترعوا تعبيرًا جديدًا، بل اكتفوا بالتعبير الَّذي يدلُّ على جزيرة أو شبه جزيرة العرب»[٢].

هذا ما كان عليه حال المسلمين أتراكًا وعربًا، قبل أنْ يطل شيطان القوميَّة العِلمانيَّة برأسه، فانظر كيف بدأ إبليس الخبيث يدخل إلى صفوف المسلمين؟

يقول المؤرخ المذكور: «ولقد تسرَّبت القوميَّة العرقية من أواسط وشرق أوربا عبر أقنية عدة، ولقد كان اللاجئون الهولنديون والمجريون ـ على الغالب ـ أوَّل الناقلين، عندما ذهبوا إلى تركيا، بعد فشل ثورتهم

(١) من كتاب: الغرب والشرق الأوسط صـ ١٠٨، ١٠٩، ترجمة د. نبيل صبحي، لاجوس، ١٩٦٣م.
(٢) المصدر نفسه صـ ١٠٩، ١١٠.

QaradawiBooks.com

سنة (١٨٤٨م)، فلقد بقي قسم كبير منهم فيها، واعتنقوا الإسلام، واحتلوا مناصب مهمة في الدولة العثمانية، وكان أحدهم الكونت قسطنطين بورزيسكي، وقد سمَّى نفسه بعد ذلك مصطفى جلال الدين باشا! ولقد نشر سنة (١٨٦٩م) كتابًا بالفرنسية في إستانبول اسمه «أتراك الأمس وأتراك اليوم»، وفي الكتاب جزء كبير يشكِّل تقريرًا للسلطان عن المشاكل الحاضرة في الإمبراطورية واقتراحات حلها، وبه جزء تاريخي يضمُّ دراسة أجراها المستشرقون الأوربيون عن التاريخ القديم للشعب التركي، وبه يؤكدون دور الأتراك الإيجابي الخلاق في التاريخ، ولقد حاول بورزيسكي جهده لإثبات أنَّ الأتراك هم من العرق الأبيض مثل شعوب أوربا، وينتمون لما أسماه العرق «الطوراني ـ الآري».

ولقد عمل الكونت بورزيسكي على نقل القوميَّة البولونية، ووضعها في قالب تركي، وساعده على هذا العمل ما عرضه من أعمال المستشرقين الأوربيين الباحثين في الشؤون التركية، ولقد وصلت نتائج أبحاث هؤلاء إلى المجتمع التركي عن عدَّة طرق، وكان لها تأثير مهم على الذهنية التركية، خصوصًا في تقدير التاريخ التركي القديم، والاعتقاد بالهُوية المميزة والمركز اللائق في التاريخ، ولقد كان الأتراك أكثر من العرب والعجم نسيانًا لتاريخهم الماضي، فلقد كانوا لا يفكرون بأية هُوية أخرى غير الإسلام، ولكن المستشرقين ـ عن قصد أو عن غير قصد ـ ساعدوا الأتراك على استعادة هُويتهم القوميَّة الضائعة، وعلى الدعوة إلى حركة تركية جديدة»[1].

ولم تكن هذه النزعة مقبولة لدى جماهير المسلمين أوَّل ما ظهرت، فقد أنكروها وهاجموها بقوة وصراحة.

(١) الغرب والشرق الأوسط صـ ١٢٦ ـ ١٢٨.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

وعندما ثارت القوميَّة الألبانيَّة سنة (١٩١٢م)، أثارت معها حملة من الاستنكار قام بها الشاعر محمَّد عاكف المسلم الوطني المعارض للقوميَّة، وكان هو من أصل ألباني، قال: «إنَّ ملَّتكم هي الإسلام، فما هذه القوميَّة القبلية؟

هل العرب أفضل من الترك، أو أنَّ اللاظ أفضل من الشركس والكرد؟

أم أنَّ الفرس أفضل من الصينيِّين؟ بماذا يفضلونهم؟

ماذا دهاكم؟ هل تقسمون بلاد الإسلام إلى أجزاء متعددة؟

إنَّ الرسول الكريم نفسه سفَّه العصبيَّة القبلية، وليس باستطاعة الأتراك العيش بدون العرب، ومن يقول غير هذا فهو مجنون، والترك بالنسبة للعرب عينهم اليمنى، وساعدهم الأيمن، فلتكن «ألبانيا» لكم إنذارًا، ما هذه السياسة المتخبِّطة؟ وما هو هذا الهدف الشرير؟!

اسمعوها مني، أنا الألباني، لا أقول أكثر من هذا، أسفي على بلادي المبتلاة»[1]!

ومثل محمَّد عاكف في موقفه الشاعر الفيلسوف المسلم الهندي الدكتور محمَّد إقبال، الَّذي تنبَّه في وقت مبكر لدخول هذا السرطان في دنيا المسلمين، ونبَّههم على خطره وسوء أثره فهو يقول: «لقد هاجمت فكرة القوميَّة منذ الأيام الَّتي لم تكن فيها القوميَّة معروفة في الهند أو في العالم الإسلامي، ومنذ البداية شعرت بوضوح من خلال قراءاتي لكتابات المؤلفين الأوربيين بأنَّ خطط أوربا الاستعمارية كانت تهدف إلى الدعوة للقوميَّة لتفرقة صفوف النَّاس لأنَّ ذلك سلاح فتَّاك، كانوا في أشدِّ الحاجة إليه،

(١) المصدر نفسه صـ ١٣٥، ١٣٦.

QaradawiBooks.com

واقتضت هذه الحاجة الدعوة إلى مبادئ القوميَّة، حسبما جاءت به أوربا في البلاد الإسلاميَّة، من أجل تحطيم الوحدة الدينيَّة القائمة بين المسلمين».

قال صاحبي: ولكنَّنا بالدعوة إلى القوميَّة العربيَّة مثلًا قد حللنا مشكلة كبيرة كانت أعقد من ذنب الضب، تلك هي مشكلة العربي غير المسلم، الَّذي يعيش معنا في ديارنا والَّذي يساكننا الأرض، ويقاسمنا السرَّاء والضرَّاء، ويشاركنا الآلام والآمال؛ ففي إطار الوحدة القوميَّة تذوب الفوارق الدينيَّة، وتنحل العقد الطائفية، فلا مجال لقائل في الوطن العربي مثلًا أنْ يقول: «أنا مسلم أو نصراني»، وإنَّما قول الجميع: «أنا عربي».

قلت: إنَّما يكون ذلك حلًّا حقيقيًّا يوم يتخلَّى المسلم عن إسلامه، والنصراني عن نصرانيته، ويحيا كلٌّ منهما بلا دين، أما إذا ظلَّ المسلم مسلمًا؛ فإنَّ دينه يحتِّم عليه أن يؤثر رابطته على كل رابطة، وعقيدته على كل عقيدة، ويضحِّي في سبيله بكل ما يتشبَّث به النَّاس ويحرصون عليه من علائق وصلات، وحسبنا قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤]، وقوله ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتَّى أكون أحبَّ إليه من والده وولده والناس أجمعين**»[(١)]. ولهذا كان شعار العربي المسلم قديمًا:

أَبِي الْإِسْلَامُ لَا أَبَ لِي سِوَاهُ إِذَا افْتَخَروا بقَيْسٍ أَوْ تَمِيمِ[(٢)]

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري (١٥)، ومسلم (٤٤)، كلاهما في الإيمان، عن أنس.

(٢) قول نهار بن توسعة اليشكري، انظر: الكامل في اللغة والأدب (١٣٣/٣)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، نشر دار الفكر العربي، القاهرة، ط ٣، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م.

QaradawiBooks.com

وإذا ظلَّ المسيحي مسيحيًّا، فإنَّ دينه يأمره أنْ يجعل رابطته الدينيَّة فوق كل علاقة، ففي إنجيل لوقا يقول المسيح: «إنَّ من يحبُّ والده أو أمَّه أكثر مِنِّي لا يستحقُّني! والَّذي يحبُّ ابنًا أو ابنةً أكثر مِنِّي لا يستحقُّني أيضًا!».

وعندما قيل للمسيح مرة: «إنَّ أمَّه وإخوته يقفون في الخارج يريدون التحدُّث إليه قال: أمِّي؟ من هي أُمِّي؟ ومن هم إخوتي؟ ثمَّ أشار إلى تلاميذه وقال: أنتم أُمِّي وأنتم إخوتي»[١].

وعندما جاء أحد تلامذته واستأذنه في الذهاب لدفن أبيه قال له: «اتبعني واترك الموتى يدفنون موتاهم»[٢]!

وإذنْ يكون القول بأنَّ الدعوة القوميَّة قد حلَّت مشكلة اختلاف الأديان في الأمة الواحدة، من السطحية الفارغة، أو النفاق السياسي، الَّذي يهتم بمحض الدعاية والإعلان، لا بعلاج القضيَّة من الجذور.

قال صاحبي: وكيف إذنْ نحلُّ مشكلة الأقلِّيَّات غير المسلمة في المجتمع العربي؟

قلت: بما حلَّت به طيلة ثلاثة عشر قرنًا مضت أو تزيد، أعني بأنْ يبقى كل ذي دين مستمسكًا بدينه، حريصًا على تعاليمه، مقيمًا لشعائره، في غير إكراه ولا ظلم ولا رياء، مع إقرار حقِّ الأغلبية في أنْ تحكم بالشريعة الَّتي ترتضيها، وتراها نابعة من ضميرها، متَّفقة مع عقيدتها، يُظلُّ الجميع ـ من الأقليَّة والأكثريَّة ـ روح الإخاء والتسامح والعدل في

(١) إنجيل متَّى (١٢:٤٦ ـ ٥٠).
(٢) إنجيل متَّى (٨:٢٢).

QaradawiBooks.com

الحقوق والواجبات، وليس ذلك مجرَّد تملُّق سياسي، أو نفاق اجتماعي، وإنَّما هو دين لا يسع المسلم مخالفته أو الإعراض عنه إلَّا إذا أعماه الهوى، وغرَّه بالله الغرور.

والإسلام بالنسبة للمسلم دين وعقيدة وعبادة، وهو لغير المسلم ـ في الوطن العربي خاصة ـ ثقافة وحضارة؛ ولهذا وجدنا بعض المسيحيين الكبار يدعون إلى تطبيق الشريعة بحماس أكثر من حماس بعض المسلمين مثل الزعيم السوري المعروف فارس الخوري، رئيس وزراء سوريا الأسبق[1].

هذا حلُّنا لمشكلة العربي غير المسلم، فقل لدعاة القوميَّة: كيف تحلون ـ معشر القوميِّين ـ مشكلة المسلم غير العربي داخل الوطن وخارجه؟

لقد ناديتم بالقوميَّة من أجل ملايين من غير المسلمين داخل الوطن العربي، ونسيتم أنَّ هناك أكثر منهم ملايين من غير العرب يسكنون هذا الوطن، كالأكراد في العراق، والبربر في شمال أفريقيا، لا يحل عقدتهم إلَّا التنادي بالإسلام وأخوَّة الإسلام، وكفى بمشكلة الأكراد في العراق درسًا قاسيًا لدعاة القوميَّة لو كانوا يفقهون.

ثم خسرتم من أجل هذه الملايين القليلة من العرب غير المسلمين ولاء مئات الملايين من المسلمين غير العرب في آسيا وأفريقيا، وهم الصديق الطبيعي للعرب، بل هم الأخ الشقيق في الحقيقة؛ وذلك لأنَّ الإسلام من شأنه أنْ يفرض عليهم حبَّ العرب وتقديمهم على أنفسهم، فمنهم الرسول الَّذي أرسل رحمةً لهم وللعالمين، وبلسانهم نزل الكتاب المبين، ومنهم

(١) انظر كتابنا: بينات الحل الإسلامي وشبهات العلمانيين والمتغربين صـ ٢١٤ ـ ٢٤٧، مبحث: الأقليات الدينية والحل الإسلامي.

QaradawiBooks.com

كان حماة الإسلام وهداته الأوَّلون، الَّذين حملوا إليهم نور الإسلام، وهُدى القرآن، وفي أرضهم ـ أعني العرب ـ تقع الكعبة البيت الحرام الَّذي يتوجَّه إليه المسلم في اليوم خمس مرات فريضة من الله، ويقصده في العمر مرَّة على الأقل، تلبيةً لأمر الله، وفي أرض العرب كذلك مسجد النبي ﷺ وقبره الشريف، وفيها أيضًا المسجد الأقصى الَّذي بارك الله حوله.

كما أنَّ المسلم غير العربي يلزمه دينه أنْ يحفظ من لغة العرب ما يصحِّح به عبادته، ويرغِّبه أنْ يتقنها حتَّى يتلو بها كتاب ربِّه، ويروي بها سنَّة نبيه، ويوجب على طائفةٍ منهم أنْ يتعمَّقوا في معرفتها ليتفقَّهوا بها في دينهم، وينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم.

الحقُّ أنَّ الإسلام يعرِّب المسلم العجمي، يُعرِّب فكره وقلبه أولًا، ثمَّ يعمل على تعريب لسانه ولغته، وإذا كان الجناح الإفريقي اليوم يضم الأغلبية العظمى من العرب ـ وهم من غير الجزيرة ـ فما ذاك إلَّا من أثر الإسلام الَّذي دخل هذه البلاد ـ مصر والسودان وبلاد المغرب العربي ـ فنقلها من قومياتها ولغاتها وأديانها القديمة إلى دين جديد ولسان جديد ـ دين الإسلام ولغة القرآن.

ولقد رأينا في باكستان والصومال ونيجيريا وغيرها من البلاد الإسلاميَّة، في آسيا وأفريقيا هيئات وجماعات تقوم على تعليم اللغة العربيَّة ونشرها حبًّا للإسلام، وخدمةً للقرآن، ولقد حدثنا الَّذين زاروا هذه البلاد[1] وخالطوا أهلها المسلمين أنَّ كثيرًا منهم يودون من صميم قلوبهم أنْ يهجروا لغتهم المحلية، ويتحولوا إلى العربيَّة لتكون لغة تخاطبهم ولغة دولتهم الرسمية.

(١) كتبت ذلك قبل أنْ أزور هذه البلاد، وألمس ذلك بنفسي.

QaradawiBooks.com

ويجدر بي أنْ أُسجِّل هنا عدة سطور من رسالة قيمة عن «مشاكل التعليم العربي في نيجيريا» كتبها أحد علماء نيجيريا المسلمين المخلصين، الَّذين هيأ الله لهم فرصة تعلم العربيَّة والقيام على تعليمها، ذلكم هو السيد «آدم عبد الله الألودي» يقول في هذه الرسالة تحت عنوان: «فصل اللغة العربيَّة عن الإسلام»: «يمتاز الإسلام عن سائر الأديان باندماج اللغة العربيَّة فيه اندماجًا لا يقبل تحليلًا ولا انفكاكًا، وقلما يوجد في تاريخ الأديان دين ساعد على نشر لغة كالإسلام، وهو نفس الأمر الَّذي عقد للعرب لواء الزعامة، الَّتي لا ينازعهم فيها جنس آخر من العالم الإسلامي مهما أوتي من قوَّة في الإيمان، وفهم في القرآن، ويقين في الإسلام، فمكانة العرب في الإسلام ـ أمس واليوم وغدًا ـ مكانة الروح من الجسد، أو الرأس من اليدين»، ولقد صدق الأثر القائل: «إذا ذلَّ العرب ذلَّ الإسلام، وإذا عزَّ العرب عزَّ الإسلام»[1].

«ولقد انتشر اللسان العربي مع انتشار الإسلام، فطغت العربيَّة على الرومية في الشام، وعلى الفارسية في العراق، وعلى القبطية في مصر، وعلى البربريَّة في شمال أفريقيا، ونزع الإسلام لغتهم من خلال ألسنتهم، ولقَّنهم العربيَّة فاستساغوها وأجادوها، واستعربوا بها كما استعرب إسماعيل عليه السلام أوَّل العرب المستعربة».

«وكذلك سارت العربيَّة جنبًا إلى جنب مع اللغات الوطنية في بعض الأقطار، كالهند والترك وغرب أفريقيا».

(١) رواه أبو يعلى (١٨٨١)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٦٦٠٧): رواه أبو يعلى، وفيه محمد بن الخطاب البصري، ضعفه الأزدي وغيره، ووثقه ابن حبان، وبقية رجاله رجال الصحيح. عن جابر بن عبد الله.

QaradawiBooks.com

«أما نظريَّة فصل اللغة العربيَّة عن الإسلام، فمثلها كمثل نظريَّة فصل الدين عن الدولة، الَّتي ظهرت لأول وهلة في العالم الإسلامي بصورة ضئيلة، ولم تلبث أنْ صارت أمرًا هائلًا مثيرًا لكثير من الشجون، كَشَرٍّ يبدأ صغيرًا، فلا يلبث مع هبوب الرياح أنْ يصير سعيرًا يتلظَّى» اهـ.

ما الَّذي جعل هذا النيجيري الأفريقي يحب العرب ويقدِّس لغتهم، ويقدِّمهم على قومه، ولغتهم على لغته، ويعقد لهم لواء الزعامة في العالم الإسلامي في مشارق الأرض ومغاربها؟ إنَّه الإسلام وحده، فيا عجبًا كيف نضحِّي بهذه الشعوب الإسلاميَّة في آسيا وأفريقيا، ونقدم أُخوتها لنا وحبَّها إيانا ـ نحن العرب ـ قربانًا على مذبح القوميَّة؟

لقد زرت تركيا بعد هزيمة حزيران «يونية» (١٩٦٧م)، فوجدت الشعب التركي الشقيق ـ وبخاصَّة أهل الدين فيه ـ يغلي كالمرجل، غيظًا على اليهود وانتصارًا للعرب، برغم ما بذل الاستعمار والماسونية وغيرهما من جهود في سبيل تمزيق الروابط بين العرب والأتراك.

وحدَّثني بعض أعضاء الوفد الَّذي زار البلاد الإسلاميَّة من علماء العراق، عقب نكبة (١٩٦٧م)، كيف كانت تستقبلهم الألوف وعشرات الألوف، منادين بالجهاد، مطالبين أنْ يفسح لهم المجال؛ ليساهموا بدمائهم في إنقاذ أولى القبلتين وثالث المسجدين المعظمين، ولم يكونوا يخلصون من زحام الجماهير المتحمسة الغاضبة إلَّا بعسر شديد.

وحدث أنْ وقف واحد من الوفد يتحدث في أحد المحافل في باكستان عن الأخوة والمساواة الَّتي جاء بها الإسلام، وكيف ساوى بين العربي والعجمي، وجعلهم كأسنان المشط الواحد، فقام بعض كبار

QaradawiBooks.com

الموجِّهين منهم، وقال: أما نحن فنقول: إنَّ العرب هم سادتنا، وهداتنا، وحملة الإسلام إلينا، ولولاهم لكنَّا وثنيِّين.

ويذكر الأستاذ اللواء محمود شيت خطاب: أنَّ سفير الأفغان في بغداد قال له بعد نكبة حزيران «يونية» (١٩٦٧م): لقد سقطت كابول عاصمة الأفغان بيد العشائر الأفغانية، الَّتي طوَّقتْها من كل جانب، وهي تهتف: لقد اندحر سادتنا العرب، واحتل اليهود القدس الشريف، فابعثونا للجهاد. وقبضوا على وزير الخارجيَّة الأفغاني، وحاولوا أنْ يذبحوه ذبح الخراف.

ولم يقف تأييد المسلمين للعرب عند الشعوب فحسب، بل تجاوز ذلك إلى الزعماء والرؤساء الَّذين لا تحرِّكهم نزعات قوميَّة أو إلحادية.

قال الرئيس الباكستاني محمَّد أيُّوب خان: عندنا مشكلتان: مشكلة فلسطين، ومشكلة كشمير، ولن نعترف بإسرائيل حتَّى ولو اعترف بها العرب.

وقال زعيم نيجيريا الراحل ورئيس وزرائها الشهيد أحمدو بللو، لمحرر صحيفة سأله: هل يقبل مواجهة وزيرة خارجيَّة إسرائيل؟ فقال: نعم، على شرط واحد أن أطلق عليها الرصاص!

وقال السيِّد أدن عبد الله رئيس جمهورية الصومال: إنَّ إسرائيل أعدى أعدائنا ولا نرضى بأقلَّ من قذفها في البحر[١].

(١) انظر: طريق النصر في معركة الثأر اللواء محمود شيت خطاب صـ ٤٧١، نشر دار الفتح، بيروت، ط ١، ١٣٨٦هـ ـ ١٩٦٦م.

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

وإذا كانت بعض حكومات البلاد الإسلاميَّة لها علاقة بإسرائيل، فذلك ثمرة لشجرة القوميَّة العِلمانيَّة الملعونة في القرآن والسُّنَّة، وكلَّما اقتربت هذه الحكومات من الإسلام اقتربت من العرب وابتعدت عن إسرائيل.

على أنَّ موقف الشعوب الإسلاميَّة جميعًا لا ريب أنَّه مع العرب قلبًا وقالبًا، مهما يكن موقف حكوماتها من العرب أو من إسرائيل.

فهل من المصلحة أو العقل أنْ نخسر تأييد ومساندة أكثر من خمسمائة مليون مسلم في العالم الإسلامي من أجل بضعة ملايين من غير المسلمين في العالم العربي؟

إنَّ لغة الأرقام تقول: لا، ثمَّ لا.

ثم قلت لصاحبي: هل تريد الصراحة؟

قال صاحبي: نعم... ففي الصراحة راحة كما يقولون.

قلت: إذا أردت الصراحة فإنَّ أكثر غير المسلمين في العالم العربي لا يفرقون كثيرًا بين العروبة والإسلام، فالعروبة في أذهانهم مختلطة بالإسلام، غير منفصلة عنه، والإسلام عند هؤلاء عربي، والعروبة إسلاميَّة، والتفرقة النظريَّة بين الأمرين لا تقنعهم، والإقناع الجدلي لا يشفي صدورهم: فمن كان منهم حسن الظنِّ بالإسلام، فهو حسن الظنِّ بالعروبة، ومن ساء ظنُّه بالإسلام وأوجس منه خيفة، أو أضمر له حقدًا، كان ذلك موقفه من العروبة.

هل تريد أنْ أضرب لك مثلًا؟

قال صاحبي: نعم، فالأمثلة تفسِّر المبهم، وتضع النقاط على الحروف.

قلت: لعلك تذكر أنطون سعادة، مؤسس الحزب القومي السوري

QaradawiBooks.com

المعروف بعدائه الصريح للعروبة والقوميَّة العربيَّة، أتعرف السِّرَّ الكامن وراء هذه العداوة؟ لقد أفصح عنه بعض الإفصاح في بعض مقالاته وتصريحاته، كقوله في إحدى مقالاته المنشورة في الحلقة الثانية عشرة من سلسلة الأبحاث القوميَّة الاجتماعية ما نصُّه: «لبست الحزبية المحمَّديَّة ـ أقول: المحمَّديَّة الإسلاميَّة؛ لأنِّي كما أعلنت سابقًا أعتبر الإسلام شاملًا المسيحيين وأهل الحكمة أيضًا ـ في الرجعيَّة الجديدة لباس «القوميَّة العربيَّة»، وارتكزت على مرتكزين أساسيين: هما اللغة العربيَّة، والدين المحمدي، اللذان نشرهما الفتح العربي المحمدي» (ص: ١٣).

ونسبة الإسلام إلى «محمد»، واعتبار المسلمين «محمديِّين» من بنات أفكار المستشرقين والمبشرين كما هو معلوم.

وفي إحدى محاضراته الَّتي احتوتها نشرة التعاليم والشروح للمذهب يقول:

«يوجد عالَم يدعى العالم العربي، والسبب في دعوة هذا العالم كذلك سبب لغوي ديني في الأساس، فهنالك عالم عربي باللسان، ويمكن أنْ نتدرج ونقول: عالم عربي بالدين الَّذي يحمل كثيرًا من بيئة العرب وحاجاتها ونفسياتها، والَّذي هو أهم عامل يصل بين أمم العالم العربي اللسان» (ص: ١١٣).

ومن غرائب العقد النفسية وآثارها في هذا الرجل أنَّه كان يدعو إلى اتحاد سوريا والعراق تحت اسم: «الهلال الخصيب»، وقد تبنَّى هذه التسمية واستعملها عدة سنوات، ثمَّ بدا له في أواخر أيامه، فهاجم هذه الفكرة وتسميتها بمقالة نارية تحت عنوان: «نحن سوريون لا هللخصبيون» فما سرُّ ذلك؟ إنَّه تذكر أنَّ الهلال يعتبر في أوربا وفي

QaradawiBooks.com

بعض البلاد الشـــرقية رمزًا للإســـلام، فتوهـــم أنَّ دعاة اتحـــاد الهلال الخصيب إنَّما مالوا لهذه الفكـــرة تحت تأثير التعصب الديني والحزبية المحمَّديَّة، أرأيت؟

وبهـــذا يا صاحبي، تعلم أنَّ التفريط في الإســـلام مـــن أجل إرضاء الأقلية غير الإســـلاميَّة في البلاد العربيَّة، نتيجته: أنْ يخســـر المسلمون إسلامهم، دون أنْ يكسبوا غير المسلمين، على أنَّ المسلم الحقَّ لا يبيع دينه بملك المشرق والمغرب، ولا يشتري سخط ربِّه برضا أهل الأرض جميعًا، فكيف يبيع دينه بوهم لا واقع له، وبسراب يحسبه الظمآن ماءً، حتَّى إذا جاءه لم يجده شيئًا؟

* * *

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية

بين بواعث الأمل وعوامل اليأس
العودة إلى الإسلام بين اليائسين والآملين

قال صاحبي: أنا لا أنكر أنَّ الدعوة إلى الإسلام الصحيح والعودة إلى أحكامه وآدابه والتشبث بعقيدته وشريعته، دعوة إلى شيء جميل ورائع حقًّا، ولكنَّه جميل ورائع في عالم المثال والخيال والتحليق الشعري فقط، أمَّا في عالم الحقيقة والواقع، فهي دعوة بلا أمل، دعوة إلى نظام لا مستقبل له، نظام ميئوس من تطبيقه، فلماذا نجهد أنفسنا فيما لا طائل تحته؟ لماذا نبذر ونزرع ونسقي ونتعب بلا أمل في ثمرة، أو رجاء في حصاد؟! أليس أولى بنا ـ إن كنَّا عمليِّين ـ أنْ نواجه الواقع، ونتبنَّى مذهبًا من المذاهب الحديثة، ونستورد نظامًا من الأنظمة السائدة «الجاهزة» فنبني عليه حياتنا ونسير في ركب الحياة المتطور، فنستريح ونريح؟

قلت: رويدك يا صاحبي، أما إن كنا ننشد الراحة القريبة السطحية، فأقرب طريق لها هو التسوُّل وسؤال الغير، الَّذي لا مبعث عليه إلَّا ضعف الهمَّة وانحطاط النفس، ولا ينتج إلَّا سخط الله والناس، فماذا يحدث ـ يا ترى ـ إن نحن نفَّذنا ما تقترحه من تسول مبدأ أو منهج من غيرنا؟

إنَّنا إنْ فعلناه أسخطنا ربنا، وخسرنا ديننا، وتنكَّرنا لتاريخنا، وفقدنا أصالتنا وشخصيتنا، وأصبحنا أذنابًا لغيرنا، نَتَّبِع ولا نتَّبَع، ونُقاد

QaradawiBooks.com

ولا نقود، ومع هذا كلِّه لن تستطيع هذه المبادئ المستوردة «الجاهزة» أنْ تحل مشكلاتنا، وتحقق التوازن الَّذي ننشـــده لمجتمعنا، والسعادة الَّتي نرجوها لأمتنا؛ ذلك لأنَّها لم تسعد أهلها أنفسهم، فكيف تسعد غيرهم؟ وفاقد الشيء لا يعطيه!

ولو سلَّمنا أنَّها أسعدتهم في حياتهم، لعجزت عن ذلك عندنا؛ فإنَّها ثوبٌ خيط لغير جسمنا، ودواءٌ «رُكِّبَ» لغير أدوائنا، قلَّما نستفيد منه إلَّا مسكنات وقتية خادعة، تعقبها آلام مضنية، وعلل وبيلة، فكيف نلتمس فيها الشفاء، وعندنا الدواء المجرَّب، والشفاء المحقَّق، بل عندنا إكسير الحياة وروحها، عندنا الإسلام؟!

قال صاحبي: أنا لم أنكر ما في الإسلام من حقٍّ وخير وجمال، ولكن أراه في عصرنا أمرًا ميئوسًا منه ـ كما قلت لك ـ أراه دعوة من غير أمل، وأنا أصارحك أنَّنا معشر الشباب في حاجة إلى دعوة تملأ قلوبنا بالأمل، الأمل في النصر وفي المستقبل القريب، فإنَّ الأمل حياة، واليأس موت، ونحن بوصفنا بشرًا وشبابًا نجفل من الموت ونحب الحياة!

قلت لصاحبي: وما الَّذي جعل الإسلام لا مستقبل له، وجعل العودة إليه أمرًا ميئوسًـــا منه؟ إنَّ القطع في أمر خطير كهذا بهذه السرعة، وهذه السهولة، غفلة شـــديدة من أبناء الإســـلام، وتهور في الحكم لا يرضاه منطق ولا علم، ولا يسنده الواقع ولا التاريخ.

قال صاحبي: بل المنطق والواقع والتاريخ كلها تســـندني فيما أقول، ومعي الأدلة والبراهين.

قلت: هات ما عندك.

QaradawiBooks.com

قال: إذا نظرنا إلى الواقع وجدنا أمامنا مُعَوِّقات عدَّة في طريق العودة إلى الإسلام بعضها فكري، وبعضها عملي، بعضها محلي، وبعضها خارجي، وها أنا أسردها عليك واحدًا بعد الآخر.

المعوِّق الأول: أنَّنا في عصر تحرَّر فيه العالم كله من الدين، عالم أسلم قياده للعلم المادي التجريبي، وعزل الدين عن الدولة وعن الحياة، فسعد وارتقى، وحقَّق المعجزات، أو ما يشبه المعجزات، فهل نقف نحن وحدنا في العالم، ندعو إلى الدين ونتمسَّك به لنتلقى قذائف الاتِّهام بالرجعيَّة والجمود من كل مكان؟ أم هل نستطيع أن نقنع الإنسان المعاصر الَّذي حطَّم الذرة، وغزا الفضاء، أن يتنازل عن مكاسبه وانتصاراته الَّتي حققها تحت راية العلم، ليدع توجيه سفينته مرة أخرى إلى الدين، الدين الَّذي وقف من قبل في وجه العلم والعلماء؟

قلت: هل فرغت من حديثك عن هذا المعوِّق؟

قال: نعم.

قلت: هل تسمح لي أنْ أردَّ على كل معوِّق أولًا بأول؛ لنكون على ذكر منه؟

قال: لا بأس.

قلت: قبل أن أشرح وجهتي، دعني أسألك هذا السؤال: هل تريد الوصول إلى الحق؟ أم تريد الغلبة والانتصار لرأيك؟

قال: أرجو أنْ يكون الوصول إلى الحقِّ نشدتنا جميعًا، وإلَّا فلا خير في البحث.

قلت: فأعطني سمعك وعقلك.

QaradawiBooks.com

قال: ها أنا معك بسمعي وعقلي وقلبي.

قلت: ليس صحيحًا ما قلت: إنَّ العالم تحرَّر نهائيًّا من الدين، ورضي بالحضارة المادِّيَّة، كيف وأصل الدين فطرة أصيلة في النفس البشـرية؟ وحاجة الروح الإنسـاني إلى الدين كحاجة الجسم الإنساني إلى الطعام والشراب والتنفس؟

إنَّ الحضارة المادِّيَّة لم تشـبع كل حاجات النفس الإنسـانيَّة، ولم تُرض أشواقها وتطلعاتها، ولم تفسِّـر لها كنه حياتها وسرَّ وجودها، ولم ترو ظمأها إلى الخلـود، فهذه كلها ليسـت وظيفة الحضـارة المادِّيَّة، ولا الفلسفة المادِّيَّة، وإنَّما هي وظيفة الدين.

فالواقع أنَّ النَّـاس كل يوم يزدادون شـعورًا بالحاجـة إلى الدين، ويزدادون نقمة علـى مادية الحضارة وآليتها وتطرُّفها، ويشـكون الفراغ والسأم والتفاهة وفقدان الهدف في حياتهم الصاخبة اللاهثة!

إنَّ العلم قد أعطاهم وسائل الحياة، ولكنَّه لم يعطهم غاياتها، إنَّه زيَّن لهم ظاهرها، ولكنَّه لم يصلهم بأعماقها وأسرارها، لقد وفَّر لهم المتعة، ولكنَّه لم يحقِّق لهم السكينة الَّتي هي سر السـعادة، إنَّ أبلغ تعبير عن ذلك، ما قاله أحد مفكري الهنود لأحد مفكري الغرب: لقد أحسنتم أنْ تحلِّقوا في الهواء كالطير، وأنْ تغوصوا في الماء كالسمك، ولكنَّكم بعد لم تحسنوا أنْ تمشوا على الأرض كإنسان!

وكذلك قال طاغور وإقبال في شعرهما من هذا المعنى شيئًا كثيرًا.

قال صاحبي: قد يقال: هؤلاء مفكِّرون شرقيون لا تقبل شهادتهم على حضارة غربيَّة، ربما لا توافق ذوقهم الشرقي وروحهم المتصوِّفة.

QaradawiBooks.com

قلت: إليك شهادة شهود من أهلها، اقرأ شهادة ذلك الغربي النمساوي «ليوبولد فايس» الَّذي أسلم وتسمَّى باسم: «محمد أسد» في كتابه: «الإسلام على مفترق الطرق»، واقرأ شهادة الفيلسوف الفرنسي «رينيه جينو» الَّذي أسلم، وتسمَّى باسم: «عبد الواحد يحيى» في كتابه: «أزمة العالم الحديث» وحاجته إلى رسالة الإسلام.

قال صاحبي: وهذه الشهادة وإن كانت من غربيين ـ قد ينقص من قيمتها أنَّ صاحبيها أصبحا في زمرة المسلمين.

قلت: إنَّما دخلا في الإسلام بعد أنْ نفضا أيديهما من الحضارة الغربيَّة المفلسة، ومع هذا إليك شهادة كثيرين غيرهما من الأوربيين والأمريكيين الَّذين لم يفارقوا دينهم إلى الإسلام، وحسبك أن ترجع إلى ما كتبه الدكتور «ألكسس كاريل» في كتابه: «الإنسان ذلك المجهول»، والدكتور «هنري لنك» في كتابه: «العودة إلى الإيمان»، و«كولن ولسون» في كتابه: «سقوط الحضارة»، و«لقبنجسون» في كتابه: «التربية لعالم حائر»، و«توينبي» في كتابه: «بحث في التاريخ»، وتقرأ ما تنشره الصحف بين الحين والحين عن مفاسد الحضارة الغربيَّة لترى أنَّ هذه الحضارة غاربة ومولية الأدبار، وأنَّ سرَّ إدبارها وإفلاسها هو خلوها من روح الدين الحق وإهدارها لأهم خصائص الإنسان.

فإذا كان الغرب قد حبس الدين بالأمس بين جدران الكنيسة، ولم يسمح له بالحركة إلَّا بضع ساعات كل يوم أحد، مع أنَّها حركة مظهرية رسمية صورية، فقد بدأ يحس الإنسان هناك بحاجته الماسَّة إلى الدين، بيد أنَّه يريد دينًا يمنحه سكينة النفس واستقامة الحياة، ولا يحرمه مكاسب العلم، ومكتشفات الحضارة، وجبروت الآلة، دينًا لا يسجن

QaradawiBooks.com

عقله، ولا يكبت مشاعره، ولا يصدم فطرته، ولا يحرِّم عليه طيبات الحياة! وعداء الغرب للدين، إنَّما كان في الحقيقة عداءٌ لدين الكنيسة لا لدين الله.

على أنَّ الغرب إنْ عزل الدين عن الدولة ـ كما قيل ـ إنَّما عزل الكنيسة ورجال الكهنوت عن الحكم حين وقفوا مع الملوك ضدَّ الشعوب، مع الخرافة ضدَّ العلم، فثارت عليهم الجماهير صارخة: اشنقوا آخر ملك بأمعاء آخر قسيس، ومع هذا ظلَّت أصابع الكنيسة تعمل في كثير من القضايا السياسيَّة من وراء ستار، وظلت دول وهيئات سياسية تغذِّي التبشير الاستعماري، كما تسند الكنيسة ومؤسساتها الاستعمار التبشيري، ولا زال في كثير من أقطار أوربا أحزاب سياسية تدعى «الأحزاب المسيحيَّة» كما في ألمانيا وإيطاليا وبلجيكا وغيرها، وبعضها تولى الحكم أكثر من مرة، وحزب المحافظين في بريطانيا يقرِّر أنَّ هدفه «إقامة حضارة مسيحيَّة».

فما للمسلمين وحدهم يخافون أنْ تلحقهم تهمة الحرص على الدين أو العودة إلى الدين؟! هذا مع أنَّ ديننا هنا غير دينهم هناك، وتاريخ علماء الدين عندنا غير تاريخ رجال الكنيسة عندهم، وموقف ديننا من العلم غير موقفهم، لم يقم في ديارنا صراع بين الدين والعلم، ولم تنشأ عندنا محاكم تفتيش تقضي بإحراق العلماء، وتمزيق أجسادهم بالخوازيق والمسامير ومحاكمة جثثهم بعد موتهم، فنحن حين ندعو الإنسان إلى ديننا لا ندعوه إلى أنْ يتنازل عن مكاسبه الحضارية، وانتصاراته العلمية، فيدع مصباح الكهرباء إلى قنديل الزيت، ويدع الطائرة ليركب الجمل سفينة الصحراء، ويدع معامل التجربة والملاحظة ليسير وراء الخيالات

QaradawiBooks.com

والأوهام، كلَّا. فطلب العلم النافع عندنا فريضة، سواء أكان علم دين أم علم دنيا، ومنه ما هو فرض كفاية، ومنه ما هو فرض عين، ولا يقعد المسلم عن طلب العلم ولو بالصين، ولا يضيره أخذ الحكمة من أيِّ وعاءٍ خرجت، فالحكمة ضالة المؤمن أنَّى وجدها فهو أحق بها، كل ما يراه الإسلام هنا أنْ يستخدم العلم لتأييد الحق، وتثبيت الخير لا لإذاعة الباطل، وإشاعة الشر، وتقوية الفساد، وتدمير الإنسان، فنحن حين ندعو إلى الإسلام لا ندعو إلى خرافة أو عجز أو جمود، لا ندعو إلى دولة الكهنوت أو حكومة الدراويش، نحن حين ندعو إلى الإسلام إنَّما ندعو إلى المنهج العلمي الصحيح، والتفكير المنطقي السليم، والعمل الإنساني الصالح، والخُلق الإنساني الكريم، والتكافل الاجتماعي الفاضل، والسلام العالمي العادل، والحضارة الإنسانيَّة المثلى، الحضارة الَّتي تمزج بين الروح والمادة، وتوافق بين العقل والقلب، وتعدل بين الفرد والمجتمع، وتؤاخي بين الإنسان والإنسان، وقبل ذلك كله توثِّق الصلة بين الله والناس.

ثم إنَّ الدين في حياتنا ليس شيئًا ثانويًّا ولا أمرًا على هامش وجودنا، إنَّه الموجِّه الأوَّل لأفكارنا وعواطفنا، والمنشئ الأوَّل لأخلاقنا وتقاليدنا، والينبوع الأوَّل لعقائدنا وفلسفتنا في الحياة، إنَّه يجري منَّا مجرى الدم في العروق، ويسري في حياتنا مسرى العصارة في الأغصان الحية النضرة. إنَّ الأمم كلَّها لو استغنت عن الدين ما استغنينا نحن عنه أبدًا؛ لأنَّنا به كنَّا وبغيره لنْ نكون.

وهنا التفتُّ لصاحبي قائلًا: أحسب هذا القدر كافيًا في إلقاء الضوء على معوِّقك الأوَّل.

QaradawiBooks.com

قال: أجل هذا حسبي وكفى.

قلت: فلننتقلْ إلى المعوِّق الثاني.

قال صاحبي: أمَّا **المعوِّق الثاني فأراه ماثلًا «في ضعف المسلمين اليوم وتخلُّفهم في شتَّى الميادين»**، فإنَّ ذلك قد ألقى على كاهل الإسلام نفسه تبعة تخلفهم وضعفهم بحق أو بغير حق، ممَّا جعل دعاة الإسلام في وضع لا يحسدون عليه، فلو كان المبدأ الَّذي يدعون إليه مصدرًا للخير والسعادة والقوة؛ لنَضح على أهله، فكيف وهم في ذيل الأمم؟

قلت: أمَّا ضعف المسلمين اليوم وتخلفهم فلا يقع على الإسلام منه مثقال ذرة من لوم؛ فإنَّما كان يلام الإسلام لو أنَّ المسلمين اليوم مستمسكون بدينهم متخلقون بأخلاقه، منفِّذون لشرائعه، حافظون لحدوده، حكامًا وشعوبًا، ولكن الإجماع منعقد على أنَّ المسلمين بعيدون عن الإسلام الحق بعدًا شديدًا، كما أنَّ شهادة التاريخ أنَّ المسلمين يوم كانوا مسلمين حقًّا، سادوا الدنيا، وفتحوا الممالك، ودوَّخوا الجبابرة، وأكلوا من فوقهم، ومن تحت أرجلهم، وتفتَّحت عليهم بركات السماء والأرض.

والمتتبع للمدِّ والجزر في تاريخ الإسلام، يجد المد والانتصار والقوة منوطة بالرجوع إلى هَدْي الإسلام بتوجيه إمام أو تأثير زعيم، أو قائد، يجدد للأُمَّة أمر دينها، كما يظهر ذلك واضحًا أيام عمر بن عبد العزيز وصلاح الدين الأيوبي، وأمثالهما.

وهذا ينتهي بنا إلى أنَّ العلاج الفذَّ لما عليه المسلمون من ضعف وتمزُّق وانحطاط هو العودة إلى الإسلام الصحيح، كما دعا إلى ذلك

QaradawiBooks.com

المجدِّدون الأصـــلاء مثل: جمال الدين الأفغانـــي، والكواكبي، ومحمد عبده، ورشـــيد رضا، وإقبال، وحســـن البنا، وصـــادق الرافعي، وعباس العقاد، وغيرهم من المفكرين ودعاة الإصلاح.

المعوِّق الثالث: القوى المعادية للإســـلام: قال صاحبي: سلَّمتُ بما تقول، ولكن أذكر لك معوِّقًا من أشدِّ المعوِّقات وأخطرها، ولا أظنُّك إلَّا موافقي عليه.

قلت: ليت شِعْري ما هو معوِّقك هذا؟

قال: إنَّك تؤمن معي أنَّ القوى المعارضة للإسلام، والمعادية له، في الداخل والخارج، قوى ضخمـــة وهائلة، عددًا وعـــدة، ولا يمكن لهذه القوى أنْ تسمح بعودة الإسلام، كما لا يمكن لدعاته أنْ يصمدوا أمامها، وهم ضعفاء الحول والطول لا ســـند لهم من الشرق ولا من الغرب، بل نرى الجميع يختلفون في قضايا كثيرة، فإذا كان العدو هو الإسلام اتَّفقوا واتَّحدت كلمتهم، أما المذاهب الجديدة الَّتي دعوت إلى استيرادها في أوَّل الحديث فلـــكل مبدأ منها دول تشـــدُّ أزره، وكتل تحمي ظهره، بل تغذِّي دعاته بالفكر والثقافـــة، وتمدُّهم بالتخطيـــط والتمويل، والتأييد والحماية الظاهرة والخفيـــة، أين هذه من دعاة الإســـلام الَّذين يعاديهم الأحزاب والحكومات، وتحاربهم قوى اليسار وتضطهدهم قوى اليمين، ويتَّهمهم العصريّون بالتَّزمُّت، كما يتَّهمهم المتزمِّتون بالترخُّص في فهم الديـــن، وتقف فـــي ســـبيلهم كل المعســـكرات على اختـــلاف ألوانها واتجاهاتها اليهودية العالمية، والشيوعية الدولية، والصليبيَّة الاستعمارية، ومن هنا، تراهم لا يخرجون من حفرة إلَّا ليســـقطوا في مثلها أو أعمق منها، ولا يكادون ينفضون غبار محنة إلَّا استقبلوا أختها أو أشدَّ منها؟

QaradawiBooks.com

قلت: أمَّا ما ذكرته فهو صحيح (١٠٠٪) ولكن هذا لا يقعدنا عن العودة إلى ديننا، ولا يثبِّطنا عن العمل له، فإنَّ هذه القوى المحاربة للإسلام ودعوته ـ باتفاقنا جميعًا ـ قوى شريرة ظالمة، مبطلة، لا تبغي الخير لنا، ولا السيادة لأمتنا، قوى تسيِّرها دوافع الحقد علينا، والطمع فينا، والتربص بنا، والخوف من انتفاضاتنا، وتكتلنا حول إسلامنا.

إنَّني أخالفك تمامًا في اعتبار عداء هذه القوى لنا، معوِّقًا يُثَبِّطنا ويُيْئِسنا، بل أعتبره حافزًا يدفعنا إلى المقاومة والمصابرة، وسوطًا يلهب ظهورنا للمضيِّ والمثابرة، إنَّ عداء هذه القوى الشريرة في الداخل والخارج يزيدنا حرصًا على دعوتنا، وإصرارًا عليها، واستقتالًا في سبيلها، فإنَّ هذه القوى لا تعادي إلَّا الحق، ولا تحارب إلَّا الخير، ولا تقاوم إلَّا النور، وهنا يحضرني قول الشاعر العربي[1]:

لَقَدْ زَادَنِي حُبًّا لِنَفْسِي أَنَّنِي بَغِيضٌ إِلَى كُلِّ امْرِئٍ غَيْرِ طَائِلِ
وَأَنِّي شَقِيٌّ باللِّئَامِ، وَلَا تَرَى شَقِيًّا بِهِمْ إِلَّا كَرِيمَ الشَّمَائِلِ

قال صاحبي: أنا معك في أنَّ هذه القوى على باطل، وأنَّ عداءها لدعوة الإسلام يدلُّ على أنَّها دعوة الحق والخير والنور، ولكن الَّذي أقوله: إنَّ هذا الحق ضعيف الشوكة، مهيض الجناح، مفلول السلاح، فكيف يرجى أن تقوم له قائمة، وهذه القوى الجهنمية تقعد له كل مرصد، وتقطع على دعاته كل مسلك، وتزرع في طريقهم الأشواك والألغام؟

قلت: إنَّ هذا المنطق من أساسه مرفوض عند دعاة الحق وأصحاب الرسالات، إنَّهم لا يقيسون النَّاس بالطول والعرض، ولا يقدرون الأمور

(١) الطرماح بن حكيم، انظر: ديوانه صـ ٢٠٦، تحقيق د. عزة حسن، نشر دار الشرق العربي، بيروت، ط ٢، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م.

QaradawiBooks.com

بالكم والحجم، ولا يزنون القوة بالعدد والعدة، فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله، وكم من قوم غرَّتهم عُدَّتهم واستحكاماتهم العسكرية، وظنوا أنَّهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا.

إنَّ الإنسان إذا أيقن بالحقِّ الَّذي يدعو إليه، واستقر الإيمان به في أعماق قلبه، لم يبال بالقوى المعادية له والواقفة في سبيله، فإنَّ الحق قوي بذاته، وإن كانت الدنيا كلها ضدَّه، والنصر له في النهاية إذا أصرَّ دعاته عليه، وصبروا وصابروا من أجله، فإنَّ الباطل قريب الغور، قصير النفس سريع الزوال، ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الرعد: ١٧].

ولو كان رسل الله ودعاة الإصلاح يبالون بالقوى المعادية لهم؛ ما انتصرت في التاريخ دعوة حق ولا رسالة خير، فإنَّ أكثرية البشر للأسف تميل مع الهوى، وتجنح إلى الباطل، وهذا ما قرَّره ربُّ البشر بقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧]، ﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٣]، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [غافر: ٥٩]، ﴿وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦].

لقد قام محمَّد رسول الله يوم قام برسالته يدعو النَّاس كافَّة والعرب خاصَّة إلى دين غير دينهم، ووجهة غير وجهتهم، ونظام غير أنظمتهم، وأخلاق غير أخلاقهم، فهل ثناه عن دعوته وقوف الدنيا كلها في وجهه، ووجه القلَّة الَّتي آمنت به واتبعته حتَّى رمتهم العرب عن قوسٍ واحدة؟ وهل هناك مذهب ساد وانتصر إلَّا وسط قوى معارضة، وكتل معادية له؟ ألا ترى كيف انتصرت الشيوعية وغيرها من المبادئ الهدَّامة المخربة؟ ولم يكن معها إلَّا القليل من الناس، والقليل من الإمكانات.

QaradawiBooks.com

فما بالنا نريد الإسلام وحده في هذا العصر أنْ يظهر بين قوى مشجِّعة مؤيِّدة، ترْبِت على كتفه وتصفِّق لدعاته، وتهتف لأنصاره: مَرْحَى مَرْحَى؟!

على أنَّنا إذا تعمَّقنا في تقدير وزن القوى الَّتي لنا والَّتي علينا؛ كانت كفة الإسلام بحمد الله أرجح وأثقل.

أ ـ فنحن بالإسلام نملك رصيدًا ضخمًا ولا يمكن أنْ تملكه دعوة أخرى وافدة من هنا وهناك. إنَّ وراء الإسلام قوَّة الجماهير الغفيرة المؤمنة بربها وقرآنها ومحمَّدها، المتطلعة إلى من يقودها باسم الله، ويضع يدها في يد رسول الله، وعندئذٍ تبذل المال عن رضا واغتباط، والروح عن طواعية وارتياح. إنَّ هذه الأمة متدينة بفطرتها، وبتاريخها، والدين هو مفتاح شخصيتها، وصيقل مواهبها، وصانع بطولاتها، وسرُّ انتصاراتها الكبرى، وهي أسرع استجابة إليه، والتفافًا به من أيِّ دعوة دخيلة جاء بها غاصب محتل، أو بذر بذورها طامع متربِّص.

ب ـ ونملك كذلك قوَّة المنهج الَّذي ندعو إليه، قوَّة مبادئ الإسلام العظيمة الخالدة، نملك القوة الَّتي تتمثل في وضوحه وشموله وعمقه واتزانه وتأثيره، الإسلام عقيدة تخاطب العقل، وعبادة تزكِّي النفس، وأخلاق تلائم الفطرة، وأحكام تحقق التوازن والعدل، تطارد المفاسد، وتجلب المصالح، وتعطي كلَّ ذي حقٍّ حقَّه.

ومن أبرز معالم القوة في هذا الإسلام: أنَّه ليس من وضع البشر، بل هو من تنزيل ربِّ العالمين، وهذا العنصر الإلٰهي فيه جعله يبرأ من الغلو والتقصير، ومن العجز والقصور، الَّذي يصاب به دائمًا كل منهج يضعه البشر لأنفسهم.

QaradawiBooks.com

وهذه الميزة أيضًا تجعله أدنى إلى القبــول والإذعان له من جمهرة الناس؛ لأنَّه انقياد من الإنسان لربه، خلقه فسوَّاه، وأمدَّه بنعمته، وغمره برحمتــه، والَّذي يرجــو مثوبته ويخشــى عقابه، على عكــس المبادئ الوضعيَّة الَّتي لا يطيعها الإنســان إلَّا خوفًا أو طمعًــا، والَّتي يحاول أنْ يتهرَّب من سلطانها ما استطاع.

ومن أســباب قوَّة الإســلام: أنَّه منهج نابع من أعماق الأمة، وليس دخيلًا ولا طارئًا عليها بحيث تحتاج إلى ضغــط مادي أو معنوي حتَّى تسيغه وترضى بتجرُّع كأسه.

جـ ـ إنَّ هذه القوة المذخورة في مبادئ الإسلام لا يعادلها إلَّا القوى المكنونة في حنايا أُمَّة الإسلام.

تلك القــوى الَّتي انفجــرت يومًا والمســلمون في ضعــف وتفرُّق وخذلان، فحطَّمت الصَّليبيِّيــن في «حطين»، وهزمــت التتار في «عين جالوت»، وأسرت لويس التاسع في «دار ابن لقمان» بالمنصورة.

إنَّ الأجانب من المستشــرقين والدارســين لطبيعة أمتنا، وخصائص ديننا، ومذخور الطاقات في شعوبنا، هم الَّذين يدركون حقيقة ما نملك من قوَّة ذاتية، ويحسبون لها ألف حســاب، بل يساورهم وَهْم مفزع من خشية انطلاقها يومًا من الأيام. يقول البروفسور «جب» في كتابه: «وجهة الإسلام»: «إنَّ الحركات الإســلاميَّة تتطوَّر عادة بسرعة مذهلة تدعو إلى الدهشة، فهي تنفجر انفجارًا مفاجئًا قبل أنْ يتبيَّن المراقبون من أماراتها ما يدعو إلى الاســترابة في أمرها. إنَّ الحركات الإسلاميَّة لا ينقصها إلَّا الزعامة، لا ينقصها إلَّا صلاح الدين من جديد».

QaradawiBooks.com

وكتب الرحالة الألماني «بول أشـــميد» كتابًـــا خاصًّا بهذا الموضوع سمَّاه: «الإسلام قوَّة الغد» ظهر سنة (١٩٣٦م)، ومما قال فيه: «إنَّ مقومات القوى في الشرق الإسلامي، تنحصر في عوامل ثلاثة:

١ ـ في قوَّة الإسلام «كدين» وفي الاعتقاد به، وفي مثله، وفي مؤاخاته بين مختلفي الجنس واللون والثقافة.

٢ ـ وفي وفرة مصادر الثروة الطبيعية في رقعة الشرق الإسلامي الَّذي يمتد به من المحيط الأطلســـي، على حدود مراكـــش غربًا إلى المحيط الهادي، على حدود إندونيسيا شرقًا، وتمثيل هذه المصادر العديدة لوحدة اقتصادية ســـليمة قوية ولاكتفاء ذاتي، لا يدع المسلمين في حاجة مطلقًا إلى أوربا أو إلى غيرها إذا ما تقاربوا وتعاونوا.

٣ ـ وأخيرًا أشـــار إلى العامل الثالث وهو: خصوبة النســـل البشري لدى المسلمين، مما جعل قوتهم العددية قوَّة متزايدة[1].

ثم قال: «فإذا اجتمعت هذه القوى الثلاث؛ فتآخى المســـلمون على وحدة العقيدة، وتوحيد الله، وغطت ثروتهم الطبيعية حاجة تزايد عددهم؛ كان الخطر الإسلامي خطرًا منذرًا بفناء أوربا وبسيادة عالمية في منطقة هي مركز العالم كله».

ويقترح «بول أشـــميد» هذا بعد أن فصل هذه العوامل الثلاثة عن طريق الإحصاءات الرسمية، وعما يعرفه عن جوهر العقيدة الإسلاميَّة، كما تبلورت فـــي تاريخ المســـلمين، وتاريخ ترابطهـــم وزحفهم لردِّ الاعتداء عليهـــم، أن يتضامن الغرب المســـيحي شـــعوبًا وحكومات

(١) ليسمع ذلك دعاة تحديد النسل في العالم الإسلامي!

QaradawiBooks.com

ويعيدوا الحرب الصليبيَّة في صـــورة أخرى ملائمة للعصر، ولكن في أسلوب نافذ حاسم[١].

وقال «روبرت بين» في مقدمة كتابه الَّذي سمَّاه: «السيف المقدس»: «علينا أنْ ندرس العرب ونســبر أفكارهم؛ لأنَّهم حكموا العالم ســابقًا، وربما عادوا إلى حكمه مرة أخرى، والشعلة الَّتي أضاءها محمَّد لا تزال مشــتعلة بقوة، وهناك ما يدعو إلى الاعتقاد بأنَّ الشــعلة لا تطفأ. ولهذا كتبت هذا الكتاب لكي يقف القراء على أصل العرب، وســمَّيته باســم السيف ذي النصلين الَّذي ناله محمَّد في وقعة بدر تذكارًا لانتصاره؛ لأنَّ السيف أصبح رمزًا لمطالبه الإمبريالية»[٢].

وبغضِّ النظر عما في هذا الكلام من تحامل، وما يغلي به من حقد، فهو يبيِّن لنا مبلغ قوَّة المسلمين في نظر الأجانب عنهم.

واســمح لي أنْ أســوق لك مثلًا معاصرًا على القوة الذاتية في هذا الإســلام، ذلك المثل هو «تركيــا»، تركيا الَّتي أراد أتاتــورك وحزبه أنْ يعرُّوها من لباس الإسلام وأخلاقه وتقاليده وأحكامه ولغته وكل ما يمتُّ بصلة إليــه، حتَّى ألغى غطاء الــرأس، وحتى الكتابــة، فقد جعل غطاء الرأس إجباريًّا هو القبعــة، وجعل حروف الكتابة هــي اللاتينية، ومنع الكلام بالدين ولو في الأذان، وأباح للمســلمة أنْ تتــزوج اليهودي أو النصراني، وسوَّى بين الذكر والأنثى في الميراث، وجعل القوانين كلها

(١) ترجمة الدكتور محمد البهي في إحدى محاضراته، وقد ترجم الكتاب كله فيما بعد الدكتور محمد عبد الغني شامة، تحت عنوان: الإسلام قوة الغد العالمية، نشر مكتبة وهبة بالقاهرة.

(٢) صـ ١٧، من الكتاب بالإنجليزية، وقد نقلنا هذه الفقرة من تقرير للدكتور إســحاق موســى الحسيني عن هذا الكتاب، قدَّمه إلى الإدارة العامة للثقافة بالأزهر في أواخر الخمسينيات.

QaradawiBooks.com

غربيَّة لحمًا ودمًا وعظمًا، حتَّى القوانين الَّتي تسمَّى: «الأحوال الشخصية» وطوردت الثقافة الإسلاميَّة والعربيَّة، وحورب أهلها بل قوتلوا وقُتلوا، وظنَّ النَّاس أنَّ شمس الإسلام قد غربت عن تركيا إلى الأبد، وأنَّ ظِلَّ الإسلام قد تقلَّص عنهم إلى غير رجعة، ومرَّت على ذلك عشرات من السنين جاءت راكدة، كفيلة بأنْ تميت الإسلام في الصدور، وأن تدبَّ معها عقارب اليأس إلى القلوب.

ولكنَّنا لم نزل نقرأ ونسمع عن امتداد قوَّة التديُّن هناك، وانكماش الإلحاد والإباحيَّة وخفض صوتهما يومًا بعد آخر، رغم ما لديهما من إمكانات مادية وأدبية، وما يلقى دعاتهما من مساعدات داخلية وخارجيَّة.

ولقد أدَّت انتفاضة الدين في تركيا أخيرًا إلى سقوط حزب الكماليين، ونجاح حزب «العدالة» الَّذي له نزعة إسلاميَّة واضحة.

وآية الآيات في هذا الدين وأثره في أمته، أنَّه أشد ما يكون قوَّة، وأصلب ما يكون عودًا، وأعظم ما يكون رسوخًا وشموخًا، حين تنزل بساحته الأزمات، وتحدق به الأخطار، ويشتد على أهله الكرب، وتضيق بهم المسالك، ويقل المساعد والنصير.

حينئذٍ، يحقِّق هذا الإسلام معجزته، فتنبعث الحياة من الجثمان الهامد، ويتدفق دم القوة في عروق الأُمَّة، وينطلق جنود الحق انطلاقة المارد من القمقم، فإذا النائم يصحو، والسكران يفيق، والجبان يتشجَّع، والضعيف يقوى، والشتيت يتجمَّع، وإذا هذه القطرات المتتابعة المتلاحقة من هنا وهناك وهنالك، تكوِّنُ سيلًا عارمًا، لا يقف دونه حاجز ولا سد من السدود، برز ذلك كله في يوم الردة منذ فجر الإسلام، بعد موت النبي ﷺ وظهور المتنبئين الكذَّابين، من أمثال: مسيلمة وسَجَاح

QaradawiBooks.com

والأسود وطليحة، واتباع قبائلهم لهم عصبيَّةً لا اقتناعًا، حتَّى قال قائلهم: «والله لكذَّابُ ربيعةَ أحبُّ إلينا من صادقِ مُضَرَ»[١].

ومع ارتداد هؤلاء ظهر صنف آخر من العرب، يقرُّ بنبوة محمد، وبالصلاة، ولكنَّه لا يعترف بالزكاة فريضة وعبادة، تؤدَّى لأحد بعد رسول الله، فما كان من أبي بكر ـ الرجل البكَّاء الرقيق الخاشع ـ إلَّا أنْ وقف كالطَّود، وأبى إلَّا أنْ يحارب الجميع، حتَّى يعودوا إلى دين الله الحقِّ، في الوقت الَّذي كان أكثر الصحابة يقولون له: «يا خليفةَ رسول الله، الزم بيتك، واعبد ربك، حتَّى يأتيك اليقين، لا طاقة لنا بحرب العرب جميعهم»، ومن هؤلاء عمر الفاروق، الَّذي زأر الصدِّيق في وجهه زأرة الأسد الهصور: «أجبَّار في الجاهليَّة، خوَّار في الإسلام يا عمر؟!»، «أأرجو نصرتك فتجيئني بخذلانك؟!»، «والله لو منعوني عقالًا كانوا يؤدُّونه لرسول الله لقاتلتهم عليه، ما استمسك السيف بيدي»[٢].

وكان ما قال الصِّدِّيق، وانطلقت كتائب الله تؤدِّب المتمردين، وترد الشاردين، وتأخذ حقَّ الفقير بحدِّ السيف من الممتنعين، وانهزمت الردة، وأنبياؤها الكذبة، وانتصر النور على الظلام، وعاد المتمردون إلى حظيرة الإسلام، أكثر إيمانًا، وأشد حماسًا، يريدون أنْ يكفِّروا عن سوء فعلتهم، فانضمُّوا إلى الجنود الفاتحين، يحاربون أعتى إمبراطوريتين في الأرض: فارس والروم، وإذا هم في معارك الفتح أوَّل المحاربين إقدامًا، وأسرعهم للفداء، وتلبية للنداء.

---

(١) تاريخ الطبري (٢٨٦/٣)، نشر دار التراث، بيروت، ط٢، ١٣٨٧هـ.

(٢) عزاه المتقي الهندي في كنز العمال (١٦٨٣٨) للإسماعيلي. والحديث متَّفق عليه بغير هذا اللفظ، رواه البخاري في الاعتصام بالكتاب والسُّنَّة (٧٢٨٤)، ومسلم في الإيمان (٢٠)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

وقل مثل ذلك، حين غزا التتار ديار الإسلام، فدخلوها بجموعهم الغفيرة، وأساليبهم الوحشية، كما تدخل الريح العقيم، ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾ [الذاريات: ٤٢]، فدمَّروا المدن، وخرَّبوا العمران، وأسالوا الدماء أنهارًا، وأسقطوا الخلافة العبَّاسيَّة في بغداد، وألقوا أسفار المكتبات في نهر دجلة حتَّى اسودَّ ماؤها من كثرة ما سال من مداد الكتب الَّتي ألَّفها علماء المسلمين، وأصبحت حضارة الإسلام بل حضارة البشر جميعًا، مهدَّدة بهذا الغزو الوحشي الَّذي لا يُبقي ولا يذر، والَّذي يذكِّرنا بما جاء في وصف يأجوج ومأجوج ـ ولعلهم صنف منهم ـ ويظنُّ النَّاس أنَّ راية الإسلام قد نكست ولن ترتفع بعد اليوم، وأنَّ أُمَّة الفتح والنصر قد حُقَّت عليها الهزيمة، فهيهات أنْ تعود إلى الميدان من جديد.

ولم تكن تمض سنوات، حتَّى تحققت معجزة الإسلام، فإذا هؤلاء الجبابرة الَّذين غزوا الإسلام يغزوهم الإسلام، وإذا سيف الغازي المصلت يسقط أمام تأثير العقيدة الإسلاميَّة العزلاء، وإذا الغالبون يدخلون أخيرًا في دين المغلوبين! على خلاف ما هو معروف ومألوف، وهو ما قرَّره ابن خلدون أنَّ المغلوب هو المولع دائمًا بتقليد الغالب المنصور[1].

د ـ ونحن نملك ـ قبل ذلك كله ـ الإيمان بنصر الله لنا، والثقة بتأييده إيَّانا، واليقين بسنَّته تعالى في إحقاق الحق، وإبطال الباطل، ولو كره المجرمون، والاطمئنان إلى وعده الَّذي وعد به المؤمنين العاملين: ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [النور: ٥٥]،

(١) مقدمة ابن خلدون صـ ١٥٦، نشر مؤسسة الرسالة، سوريا، ط١، ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م.

QaradawiBooks.com

﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ [الروم: ٦]، ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ [الحج: ٣٨].

ولئن كان وعد بريطانيا لليهود على لسان «بلفور» وزير خارجيتها، بإنشاء وطنٍ قوميٍّ لهم في فلسطين، قد جعلهم يجمعون العزم، ويحثُّون الخُطا، ويضاعفون الجهد، لتحقيق أمانيهم القديمة ـ على الرغم من نحو مائة مليون من المسلمين، مع أنَّ يهود العالَم كلِّه لا يزيدون على بضعة عشر مليونًا ـ ألا يكون وعد الله لنا بالمعيَّة والنصر والدفاع والتأييد والتمكين والاستخلاف في الأرض، جديرًا بأنْ يشحذ منَّا الهمم، ويستثير العزائم، ويفعم صدورنا ثقة بالمستقبل، وإيمانًا بأنَّ الدور لنا لا علينا، وأنَّ التاريخ معنا، لا مع عدونا، وأنَّنا لنحن المنصورون، وأنَّ حزب الله لهم الغالبون.

إنَّ الإيمان بالنصر من أعظم عناصر القوة، وما من شك في قيمة هذا العنصر المعنوي، فقد أجمع رجال المعارك، قديمًا وحديثًا على أنَّ للروح المعنوية أثرها الملموس، في تحقيق الظفر، والانتصار على العدو، وإن كان أقوى عتادًا، وأكثر نفرًا.

ونحن بحكم إيماننا نجزم بأنَّ الله تعالى قدير على أنْ ينصر حزبه، وجند دينه، ودعاة كتابه، وأنصار رسوله، بما شاء من وسائل نعلم منها ما نعلم، ونجهل منها ما نجهل: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر: ٤٤].

إنَّ كتاب الله يقصُّ علينا من أنباء الرسل مع أقوامهم، ما يملأنا ثقة، بأنَّ الحقَّ لا بدَّ أنْ ينتصر، وأنَّ الباطل لا بدَّ أنْ ينكسر، وأنَّ صاحب الحق لا يظل ضعيفًا أبدًا، وأنَّ الطاغية لا يستمر قويًّا أبدًا، فالدنيا دول، والحرب سجال، والعاقبة للمتقين.

غير مرخصة للطباعة

ألم تقرأ في قصة موسى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۞ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۞ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: ٤ ـ ٦].

وتنفيذًا لهذه الإرادة الإلٰهية في تحرير هؤلاء المغلوبين، بعث الله منقذ المستضعفين، وتحطم ملك فرعون، الَّذي قال للناس: أنا ربكم الأعلى.

وشاء الله أنْ يربِّي هذا المنقذ وليدًا في بيت الطاغية نفسه، الَّذي التقطه ليكون له عدوًّا وحزنًا، وكان من الأمر ما كان، وبطلت احتياطات فرعون، ونفذت إرادة الله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٧].

لقد انتصرت القلة على الكثرة، وانتصر الضعفاء على الأقوياء، وانتصر موسى على فرعون؛ ذلك لأنَّ موسى لم يكن وحده في المعركة، بل كان مع الله فكان الله معه؛ ولهذا حين اتَّبعه فرعون بجنوده بغيًا وعدوانًا، ونظر موسى والَّذين آمنوا معه، فإذا البحر أمامهم والعدو من خلفهم.

كان موقف موسى كما حدَّث القرآن عنه: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ۞ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦١، ٦٢].

﴿إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢]، كلمة مؤمنة، قالها موسى بن عمران، تشبه الكلمة الَّتي قالها أخوه محمَّد بن عبد الله ﷺ وهو في

QaradawiBooks.com

الغار، والمشركون على بابه، وصديقه ورفيقه أبو بكر يقول في إشفاق: «والله، لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا»، فيقول الرسول في ثقة واطمئنان: «**ما ظنُّك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما**»(١).

وتجلَّت معيَّة الله لموسى، فأنجاه من عدو الله وعدوه بما لم يخطر على باله، ولا على بال عدوه: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ۞ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْـَٔاخَرِينَ ۞ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ۞ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ﴾ [الشعراء: ٦٣ ـ ٦٦].

كما تجلَّت معيَّة الله لمحمَّدٍ في الغار، فردَّ عنه كيد المشركين بجندٍ من أضعف جنده، بيض الحمام ونسج العنكبوت: ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤١].

وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٤٠].

إنَّ المؤمن لا يعرف اليأس أبدًا، ولا يفقد الرجاء أبدًا، وإن ادلهمَّت من حوله الخطوب، وتألَّبت عليه قوى الشر.

إنَّه واثقٌ بربِّه، واثقٌ بحقه، واثقٌ بنفسه، واثقٌ بغده، واثقٌ بوعد الله له.

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في أصحاب النبي (٣٦٥٣)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٣٨١)، عن أبي بكر الصديق.

QaradawiBooks.com

ومثلــه الأعلى في ذلــك هو رســول الله ﷺ، فقــد كان في أحلك الأزمات، مؤمنًا بالنصر، كأنَّه أمامه رأي عينه.

روى البخاريُّ عــن خَبَّاب بــن الأَرَتِّ، قال: أتيــت النبي ﷺ وهو متوسِّد بردة، وهو في ظل الكعبة، وقد لقينا من المشركين شدة، فقلت: ألا تدعو الله لنا؟ فقعد وهــو محمرّ وجهه. فقال: «**لقــد كان من قبلكم ليُمَشَّط بمشاطِ الحديد ما دونَ عظامهِ من لحمٍ أو عصب، ما يصرفه ذلك عن دِينه، ويوضع المنشارُ على مِفْرَقِ رأسه، فيُشَقُّ باثنين، ما يصرفه ذلك عن دِينه، ولَيُتِمَّــنَّ اللهُ هذا الأمر، حتَّى يســيرَ الراكبُ مــن صنعاء إلى حضرموت، ما يخافُ إلَّا اللهَ والذئبَ على غنمه**»[1].

فإذا كان رسول الله ﷺ لم ينقطع خيط الأمل من قلبه، ولم يتسرَّب إليه مثقال ذرَّة من يأس في مســتقبل دعوته، وانتصار رسالته، وانهزام أعدائه، وهو ضعيف مستضعف، يعذَّب أصحابه، ويطارَدون، أو كما وصفهم الله: ﴿ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ ﴾ [الأنفال: ٢٦].

فكيف نضعف عنه أو نتخاذل أو نستســلم لليأس، ونحن نملك من أسباب القوة ما لا يملكه أعداؤنا، ولا يمكنهم أن يملكوه يومًا؟!

نملك قوَّة الشعوب المؤمنة بدينها، والَّتي لا ترضى به بديلًا يُستورد لها من الشرق أو الغرب.

ونملك قوَّة المنهج الَّذي ندعو إليه، منهج الإسلام الَّذي وضعه ربُّ البشر للبشــر، والَّذي برئ من كل غلوٍّ وتقصير عُرف في مناهج البشر، وأنظمتهم الوضعية المقطوعة عن هَدي السماء، هذا المنهج الَّذي تؤكد الأيام شدة حاجاتنا إليه خاصَّة، وحاجة البشرية إليه عامة.

(١) رواه البخاري في مناقب الأنصار (٣٨٥٢).

QaradawiBooks.com

ونملك قوَّة الكفاح والصمـــود في الأمة الإســـلاميَّة، الَّتي تبرز في الأزمات والمصائب أشد ما تكون، وأصلب ما تكون.

ونملك الإيمان بنصر الله تعالى، وتأييده ووعده الَّذي لا يتخلف أبدًا.

أفليست هذه القوى الَّتي نملكها يا صاحبي، أكبر وأخطر وأعظم من المعوِّقات الَّتي تذكرها؟

وهل من الإنصاف أنْ يذكر الإنســـان الأمور المعوِّقة، وينسى الأمور المعينة والميسِّرة؟

إنَّ العدل يقتضيك إذا ذكرت جوانب الضعف ألَّا تنسى مصادر القوة، وإذا ذكرت عوامل اليـــأس ألَّا تغفِل بواعث الأمـــل، وإذا ذكرت القوى المعارضة أنْ تذكر معها القوة المؤيِّدة.

فهل لديك اعتراض على هذا الَّذي قلته يا صاحبي؟

قال صاحبي: لا اعتراض ولا جدال، ولكن في النفس شيء صرحت ببعضه من قبل، ذلك هو المحن الشداد الَّتي تصب على رؤوس الدعاة إلى الإسلام، والضربات القاسية الَّتي تنهال عليهم من هنا وهناك، فمن ذا الَّذي يأمل أن تقوم لهؤلاء المضطهدين المشردين المعذبين قائمة، أو يرتفع لهم علم، أو ينتصر في النَّاس نظام يدعون إليه، ورســـالة يؤمنون بها، وهم في كل يوم بين المطرقة والسندان؟

قلت لصاحبي: إنَّ هذه المحن الَّتي تذكرها ليست علامة ضعف أو موت لدعاة الإسلام، بل هي دليل حياة وحركة وقوة، فإنَّ الميِّت الهامد لا يُضـــرب، ولا يؤْذَى، إنَّما يُضرب ويـــؤْذَى الحي المتحرك المقاوم.

QaradawiBooks.com

إنَّ الدعوة الَّتي لا يُضْطهد أصحابها، ولا يُؤذى دعاتها، دعوة تافهة أو ميِّتة، أو دعاتها ـ على الأقلِّ ـ تافهون ميِّتون.

ثم إنَّ هـذه المحن والاضطهادات برهان على حيويَّة المبدأ نفسه، مبدأ الإسلام، فهو يقدِّم كل حين شهداء في معاركه، يروون شجرته بدمائهم، ويبنون صرح مجده بأشلائهم.

وهذه المحن أبلغ معلم، وأعظم مربٍّ، لأصحاب الدعوات، باعتبارهم أفرادًا، تصفو أنفسهم بالشدة، وتتمحص قلوبهم بالمحنة، وقد جاء في الحديث: «**مثل المؤمن يصيبه البلاء، كمثل الحديدة تدخل النار، فيذهب خبثها، ويبقى طيبها**»[1].

وهي لجماعتهم محكٌّ للتمييز، ومصفاةٌ للتنقية، وامتحان للإيمان، ليميز الله الخبيث من الطيب، ففي أيام الرخاء والعافية يكثر الأدعياء، ويتزاحم على الدعوات المرجوة طلاب المنافع، ومرضى القلوب، فتأتي هذه المحن لتنفي خبثهم من صفوف المؤمنين، كما نفت الخبث من صدور الأفراد، فهنا يتبيَّن الصادق من الكاذب، ويتميَّز المخلص من المنافق: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾ [الحج: ١١]، ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِۖ وَلَئِن جَآءَ نَصۡرٞ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمۡۚ أَوَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت: ١٠].

(١) رواه الحاكم في الإيمان (٧٣/١)، وصحَّح إسناده، ووافقه الذهبي، بلفظ: «إنما مثل العبد المؤمن حين يصيبه الوعك والحمى، كمثل حديدة تدخل النار فيذهب خبثها ويبقى طيبها»، عن عبد الرحمٰن بن أزهر.

QaradawiBooks.com

هذا الصنف الَّذي يعبد الله على حرف، والَّذي جعل فتنة النَّاس كعذاب الله ـ أي يخاف من الأذى يصيبه من النَّاس كما يخاف من نار جهنم ـ صنف لا خير فيه، ولا فائدة من بقائه إلَّا خلخلة الصف، وتثبيط الآخرين، وتعويق العاملين، كما قال تعالى في مثلهم: ﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [التوبة: ٤٧].

وإنَّ مع منافع المحن حين تندلع نارها، أنَّها تحرق هذا الصنف، وتجعله رمادًا، على حين تنضج الصنف الآخر وتصقله، وتجلو عنه كل غبش أو دخل داخله أيام الرخاء والسرَّاء.

ومن منافع المحنة أنَّها تقوِّي رابطة المؤمنين من حَمَلة الدعوة إلى الله، بأنَّ المحنة تضمُّ إليهم عنصرًا جديدًا يجمعهم، ويوثِّق عرى الاتصال بينهم، فإذا كانت العقيدة هي الرابطة الجوهرية الأصلية، الَّتي تحت لوائها يتجمَّعون ويتراصون كالبنيان، فإنَّ المحنة عامل مساعد يزيد هذا الترابط قوَّةً وعمقًا، فإنَّ الإحساس بالخطر الواحد، مواجهة العدو الواحد، واصطلاء البلاء الواحد، من شأنه أنْ يزيل كل فجوة بين الصفوف، وأنْ يشعر الجميع بكمال الوحدة، وتمام التضامن.

ومن هنا قال السيد جمال الدين الأفغاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «بالضغط والتضييق تلتحم الأجزاء المبعثرة»، وقال شوقي:

إنَّ المَصَائِبَ يَجْمَعْنَ المُصَابِينَا[1]

(١) عجزُ بيتٍ له، وصدره:
فإن يكُ الجنسُ يا ابنَ الطَّلْحِ فزَّقنا
انظر: أحمد شوقي الأعمال الشعرية الكاملة (١٠٤/٢).

QaradawiBooks.com

ولقد امتحن الله المسلمين بالهزيمة في غزوة أُحُد، فقتل منهم سبعون من خيارهم، من أمثال: حمزة بن عبد المطلب، ومصعب بن عمير، وسعد بن الربيع، وأنس بن النضر، وغيرهم من أبطال الإسلام.

وكانت هذه المحنة شديدة الوقع على أنفس المسلمين، فأنزل الله نحو ثمانين آية من سورة آل عمران، تثبيتًا وتعزيةً للمؤمنين، وهدًى وموعظة للمتقين.

ولقد ذكر ابن القيم من حكم هذه المحنة وأسرارها شيئًا كثيرًا نذكر منه ما يلي: «إنَّ حكمة الله وسنته في رسله وأتباعهم، جرت بأنْ يدالوا مرة، ويدال عليهم أخرى، لكن تكون لهم العاقبة، فإنَّهم لو انتصروا دائمًا دخل معهم المسلمون وغيرهم، ولم يتميز الصادق من غيره، ولو انتصر عليهم دائمًا، لم يحصل المقصود من البعثة والرسالة، فاقتضت حكمة الله، أن جمع لهم بين الأمرين؛ ليتميَّز من يتبعهم ويطيعهم للحق وما جاؤوا به، ممَّن يتبعهم على الظهور والغلبة خاصة»[1].

قال الله تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ...﴾ [آل عمران: ١٧٩]، أي: ما كان الله ليذركم على ما أنتم عليه من التباس المؤمنين بالمنافقين؛ حتَّى يميز أهل الإيمان من أهل النفاق، كما ميَّزهم بالمحنة يوم «أُحُد»، ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩]، الَّذي يميز به بين هؤلاء وهؤلاء، فإنَّهم متميزون في علمه وغيبه، وهو سبحانه يريد أنْ يميزهم تمييزًا مشهودًا.

(١) زاد المعاد (٣/١٩٦ ـ ١٩٧)، نشر مؤسسة الرسالة، بيروت، ومكتبة المنار الإسلامية، الكويت، ط ٢٧، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٤م.

QaradawiBooks.com

ومنها: اســتخراج عبوديَّة أوليائه وحزبه في الســرَّاء والضرَّاء، وفيما يحبُّون وما يكرهون، وفي حال ظفرهم، وفي حال ظفر أعدائهم بهم؛ فإذا ثبتوا على الطاعــة والعبوديَّة فيما يحبُّون وما يكرهــون فهم عبيدُه حقًّا، وليسوا كمن يعبد الله على حرف واحد من السرَّاء والنعمة والعافية.

ومنها: أنَّه ســبحانه هيَّأ لعباده المؤمنين منازل فــي دار كرامته، لم تبلغها أعمالهم، ولم يكونــوا بالغيها إلَّا بالبــلاء والمحنة، فقيَّض لهم الأســباب الَّتي توصلهم إليها من ابتلائه وامتحانه، كما وفَّقهم للأعمال الصالحة الَّتي هي من جملة أسباب وصولهم إليها.

ومنها: أنَّ النفوس تكتسب من العافية الدائمة والنصر والغنى طغيانًا وركونًا إلى العاجلة، وذلك مرضٌ يعوقها عن جدِّها في ســيرها إلى الله، والدار الآخرة، فــإذا أراد ربها ومالكها وراحمهــا كرامته؛ قيَّض لها من الابتلاء والامتحان ما يكون دواءً لذلك المرض العائق عن السير الحثيث إليه، فيكون ذلك البــلاء والمحنة بمنزلة الطبيب يســقي العليل الدواء الكريه، ويقطع منــه العروق المؤلمة لاســتخراج الأدواء منه، ولو تركه لغلبته الأدواء حتَّى يكون فيها هلاكه.

ومنها: أنَّ الشــهادة عنده من أعلــى مراتب أوليائه، والشــهداء هم خواصُّه المقربون من عباده، وليس بعد درجة الصدِّيقيَّة إلَّا الشهادة، وهو ســبحانه يحبُّ أنْ يتَّخذ مــن عباده شــهداء، تراق دماؤهــم في محبته ومرضاته، ويؤثرون رضاه ومحابَّه على نفوسهم، ولا سبيل إلى نيل هذه الدرجة إلَّا بتقدير الأسباب المفضية إليها من تسليط العدو.

ومنها: أنَّ الله ســبحانه إذا أراد أن يهلك أعداءه ويمحقهم؛ قيَّض لهم الأســباب الَّتي يســتوجبون بها هلاكهم ومحقهم، ومن أعظمها

QaradawiBooks.com

ـ بعد كفرهم ـ بغيهم وطغيانهم، ومبالغتهم في أذى أوليائه، ومحاربتهم وقتالهم والتسلط عليهم، فيتمحَّص بذلك أولياؤه من ذنوبهم وعيوبهم، ويزداد بذلك أعداؤه من أسباب محقهم وهلاكهم، وقد ذكر تعالى ذلك في قوله: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۞ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ۞ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩ ـ ١٤١].

فجمع لهم في هذا الخطاب بين تشجيعهم، وتقوية نفوسهم، وإحياء عزائمهم وهممهم، وبين حسن التسلية، وذكر الحكم الباهرة الَّتي اقتضت إدالة الكفار عليهم، فقال: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ﴾ [آل عمران: ١٤٠]، فقد استويتم في القرح والألم، وتباينتم في الرجاء والثواب، كما قال: ﴿إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء: ١٠٤]، فما بالكم تهنون وتضعفون عند القرح والألم، فقد أصابهم ذلك في سبيل الشيطان، وأنتم أصبتم في سبيلي، وابتغاء مرضاتي.

ثم ذكر حكمة أخرى فيما أصابهم ذلك اليوم، وهي: تمحيص الَّذين آمنوا، وهو تنقيتهم وتخليصهم من الذنوب ومن آفات النفوس.

وأيضًا، فإنَّه خلَّصهم ومحَّصهم من المنافقين، فتميزوا منهم، فحصل لهم تمحيصان: تمحيص من نفوسهم، وتمحيص ممَّن كان يظهر أنَّه منهم وهو عدوهم.

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

ثم ذكر حكمة أخرى وهي: محق الكافرين بطغيانهم وبغيهم، ثمَّ أنكر عليهم حسبانهم وظنَّهم، إنَّهم يدخلون الجنة بدون الجهاد في سبيله، والصبر على أذى أعدائه، وأنَّ هذا ممتنع بحيث ينكر على من ظنَّه وحسبه فقال: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢]، أي: ولمَّا يقعْ ذلك منكم فيعلمه، فإنَّه لو وقع لعلمه، فجازاكم عليه بالجنة، فيكون الجزاء على الواقع المعلوم لا على مجرد العلم، فإنَّ الله لا يجزي العبد على مجرَّد علمه فيه، دون أنْ يقع معلومه.

* * *

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية

هذه الأُمَّة لن تموت

الأُمَّة:

«الأُمَّة»: كلمة معرَّفة بـ «أل» العهديَّة، كما يقول علماء العربيَّة، فهي تشير إلى معهود في الذهن، مرسوم في الفكر، محفور في القلب، وهو الأُمَّة، الَّتي لا يعرف المسلم غيرها، فإليها ينتمي، وبها يعتز، وفي سبيل بقائها وكرامتها يجاهد، وأعني بها: «أمة الإسلام».

إنَّها الأمة الواحدة، الَّتي تؤمن برب واحد: هو الله تعالى، وتؤمن بكتاب واحد: هو القرآن الكريم، وتؤمن بخاتم الرسل: هو محمَّد ﷺ، وتتجه كل يوم خمس مرات إلى قبلة واحدة: هي الكعبة، بيت الله الحرام.

إنَّها تتكوَّن من شعوب وقبائل في أقطار وأقاليم، ولكنَّها مع هذا تظل أمة واحدة، جمعتها العقيدة، وربطت بينها الشريعة، ووحَّدت بين أذواقها ومشاربها القيم والآداب الإسلاميَّة، وعاشت تاريخًا مشتركًا في انتصاراته ومآسيه، وعانت حاضرًا مشتركًا في آلامه وآماله.

ولهذا لا يجوز لنا أنْ نقول: «أمم إسلاميَّة»، بل «شعوب إسلاميَّة» لأمة واحدة، خاطبها الله تعالى بقوله: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ﴾ [المؤمنون: ٥٢].

نسخة مجانية غير مرخصة للطباعة
QaradawiBooks.com

إنَّها أُمَّة واحدة في الغاية والوجهة.

واحدة في الأفكار والمفاهيم.

واحدة في المشاعر والأحاسيس.

صَوَّر الرسول ﷺ وحدتها في ذلك فمثَّلها بالجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو، تداعى له سائر الجسد بالسهر والحُمَّى[1].

وهي أمة متميِّزة بمقوِّماتها وخصائصها، ومن هذه الخصائص: أنَّها أمَّة «ربَّانية».

لم تنشأ بمجرَّد المصادفة؛ أنَّها وجدت في إقليم واحد، أو انتسبت إلى عنصر معيَّن كبعض الأمم. ولم تنشأ بإرادة فرد، أو إرادة حزب، أو إرادة طبقة، أو إرادة مجلس ثوري أو منتخب، إنَّما أنشأها الله لتؤدِّي رسالتها في الوجود كما قال سبحانه: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [البقرة: ١٤٣].

فالله هو الَّذي جعلها كذلك وأعدَّها لذلك، لتقوم بدورها في الناس.

خصائص متفردة:

ومن خصائصها: ما أشارت إليه الآية الكريمة وهو «الوسطية» فهي أمة وسط في كل شيء، في التصور والاعتقاد، وفي التعبد والتنسك، وفي القيم والأخلاق، وفي العمل والسلوك، وفي التشريع والتنظيم، وفي السياسة والاقتصاد، وفي العلاقات كلها داخلة وخارجة، لا تُهمل المادة

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في الأدب (٦٠١١)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٨٦)، عن النعمان بن بشير.

QaradawiBooks.com

لحساب الروح، ولا الروح لحساب المادة، ولا يُضخِّم الفرد فيطغى على المجتمع، ولا المجتمع فيطغى على الفرد، وإنَّما يعطي لكل جانب حقه، ويطالبه بواجبه في غير طغيان ولا إخسار، كما قال تعالى: ﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ۞ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ [الرحمٰن: ٨، ٩].

وهي أمة ذات رسالة عالمية، ليست أمة إقليمية ولا قوميَّة، بل وضعها الله في مقام الأستاذية للبشرية كلها، والهداية للناس كافة، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣]، وقوله جل شأنه: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

فهذه الأمة لم تنبت وحدها كالنبات البري أو الشيطاني، كما يسمِّيه بعض الناس، إنَّما أنبتها مُنْبِت، وأخرجها مُخْرِج، وهو الله ﷻ، ولم يخرجها لتتقوقع على نفسها، وتعيش في حدودها، ولمنافعها المادِّيَّة الخاصَّة، إنَّما أخرجها «للناس» كل الناس، بيضًا وسودًا، عربًا وعجمًا، أغنياء وفقراء، فهي أمة «مبعوثة» للعالمين، كما أنَّ كتابها أُنزل ذكرًا للعالمين، ونبيها أُرسل رحمةً للعالمين، وبعثة هذه الأمة بعثة رحمة ويسر، لا بعثة قسوة وعسر.

وقد خاطب الرسول ﷺ الأمة فقال: «**إنَّما بُعِثتم ميسِّرين ولم تُبْعَثوا مُعسِّرين**»[(١)].

ولقد فقه الصحابة هذا المعنى، وأدركوا أنَّهم مبعوثون لهداية أمم الأرض، وعبَّر عن ذلك أحدهم ـ وهو: ربعي بن عامر ـ في مواجهة

(١) رواه البخاري في الوضوء (٢٢٠)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

رستم قائد الفرس، مُحدِّدًا مهمَّة الأمة في عبارات بليغة موجَزة: إنَّ الله ابتعثنا لنخرج النَّاس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام[١].

أمة خالدة:

ومن خصائص هذه الأمة: أنَّها أمة خالدة، بخلود رسالتها وكتابها، فهي باقية ما بقي الليل والنهار، دائمة ما دام في الدنيا قرآن يُتلى، وإذا كان القرآن محفوظًا بحفظ الله، فأمة القرآن باقيةٌ ببقاء القرآن.

وقد تكفَّل الله تعالى لرسوله الكريم ألَّا يهلك أمته بما أهلك به أممًا من قبلها، بالعقوبات القدريَّة، والنوازل الكونيَّة، كالطوفان والخسف والمسخ والريح الصَّرصر، وغير ذلك.

وتكفَّل له كذلك ألَّا يسلِّط عليها عدوًّا من غيرها، يستأصل شأفتها، ويقتلعها من جذورها، إلَّا أن يُهلك بعضها بعضًا، ويذوق بعضهم بأس بعض[٢].

وكما تكفَّل الله لرسوله أنْ يحفظ أمته من الهلاك الحسِّي بعذاب الاستئصال، تكفَّل له بحفظها من الهلاك المعنويِّ بالاجتماع على الضلال، ففي الحديث: «**إنَّ الله لم يكن ليجمع أمتي على ضلالة**»[٣].

---

(١) رواه الطبري في تاريخه (٥٢٠/٣).

(٢) إشارة إلى حديث رواه مسلم في الفتن وأشراط الساعة (٢٨٨٩)، عن ثوبان. وفيه: «وألَّا أسلط عليهم عدوًّا من سوى أنفسهم، يستبيح بيضتهم».

(٣) رواه الترمذي من حديث ابن عمر في الفتن (٢١٦٧)، بلفظ: «إنَّ الله لا يجمع أمتي ـ أو قال: أمة محمد ﷺ ـ على ضلالة». وقال: حديث غريب من هذا الوجه. وضعفه النووي في شرح مسلم (٦٧/١٣)، ورواه الحاكم في العلم (١١٥/١)، وأبو نعيم في الحلية (٣٧/٣)، وقال: غريب =

QaradawiBooks.com

وسـرُّ ذلك أنَّها آخر الأمم، كما أنَّ نبيَّها آخـر الأنبياء، وكتابها آخر الكتب، فليس بعد محمَّد رسول، ولا بعد القرآن كتاب، ولا بعد الإسلام شريعة، ولا بعد أمَّة الإسلام أمَّة.

فإذا اجتمعت أمَّة بعد الأمم، قبل الإسلام على الضلال لم يكن في ذلك خطر على البشـرية؛ لأنَّها أمـة محدودة المـكان موقوتة الزمان، بخلاف الأمة الإسلاميَّة، فلها من عالميتها وخلودها ما يجعلها ممتدَّة في المكان حتَّى تعم الشرق والغرب، وممتدَّة في الزمان حتَّى قيام الساعة، فلو ضلَّت كلها لضلَّت بها الشريعة جمعاء، دون أمل في تغيير، إذ ليس معها ولا بعدها من يحمل للناس هداية الله.

ومن ثمَّ كان من عمل العناية الإلٰهية: أنْ تظل في هذه الأمة فئة تحيا على الحق وتموت عليه، وهي بمثابة سفينة الإنقاذ، أو جيش الخلاص، وهي الَّتي تحفظ التوازن، وتمسـك البناء أن ينهـار، وفيها جاء قول الله تعالى: ﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨١].

وقال رسـول الله ﷺ: «**لا تزال طائفة من أمتي قائميـن على الحق، لا يضرهم من خالفهم، حتَّى يأتي أمر الله وهم على ذلك**»[1].

= من حديث سـليمان عن عبد الله بن دينار، لم نكتبه إلَّا من هـذا الوجه. وقال المناوي في فيض القدير (١٨١٨): قال ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ في تخريج المختصر: حديث غريب خرجه أبو نعيم في الحلية واللالكائي في السنة، ورجاله رجال الصحيح لكنَّه معلول، فقد قال الحاكم: لو كان محفوظًا حكمت بصحته على شرط الصحيح، لكن اختلف فيه على معتمر بن سليمان على سبعة أقوال، فذكرها وذلك مقتضى للاضطراب والمضطرب من أقسام الضعيف. وقال السخاوي في المقاصد صـ ٧١٦: بالجملة فهو حديث مشهور المتن ذو أسانيد كثيرة وشواهد متعددة في المرفوع وغيره. وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع (١٨٤٨).

(١) سبق تخريجه صـ ٢٥.

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

هذه الطائفة هي منار السائرين، ودليل الحائرين، وقوة المستضعفين، وهم الَّذين يقومون لله بالحجة، ويدعون إلى الله على بصيرة، ويبلِّغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدًا إلَّا الله.

وهم «الغرباء» الَّذين يَصْلحون إذا فسد الناس، ويُصلحون ما أفسد الناس، وهم «الفرقة الناجية» بين الهالكين، المهتدون بين السالكين، الَّذين يحيون ما كان عليه الرسول وأصحابه، ومن رحمة الله بالناس أنْ تبقى فيهم مثل هذه الفئة المختارة الموكلة من الله تعالى، تُعلِّم من يجهل، وتهدي من يضل، وتذكِّر من ينسى، فإنَّ الذكرى تنفع المؤمنين: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾ [الأنعام: ٨٩].

ورحم الله أحمد شوقي حين قال[1]:

إِنَّ الَّذي خلق الحقيقةَ عَلْقَمًا لم يُخْلِ مِنْ أَهْلِ الْحَقِيقَةِ جِيلَا

ومن دلائل الخلود لهذه الأمة: أنَّ الكوارث والنكبات لا تحطِّمها ولا تقتلها، بل تبعث فيها روح المقاومة والتحدِّي، فتراها إذا نزلت بها النوازل القاصمة، أشد ما تكون قوَّة، وأصلب ما تكون عودًا، حتَّى إنَّ النَّاس ليظنُّون بها الظنون، ويحسبونها في عداد الهلكى، فإذا هي في فترة وجيزة، تتغلب على عوامل الضعف المحيطة بها، بروح القوة المكنونة في داخلها، وإذا بالذين يرقبونها من بعيد، أو ينظرون إليها من قريب، يرون انتصارًا بعد انكسار، واجتماعًا بعد شتات، وحياة وحركة بعد جمود أشبه بالموات.

(١) أحمد شوقي الأعمال الشعرية الكاملة (١٨١/١).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

١ ـ رأينا ذلك في فجر الإســلام، في حروب الردة وقتال المتمرِّدين على دفع الزكاة.

٢ ـ ورأيناه في عصور التمزُّق للدولة الإسلاميَّة، في مقاومة غزوات التتار الوحشية، الَّذين أقبلوا من الشرق كأنَّهم يأجوج ومأجوج، أو كأنَّهم الريح العقيم: ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾ [الذاريات: ٤٢].

٣ ـ وفــي مقاومة الحــروب الصليبيَّة الَّتي زحفت فيهــا أوربا على الشرق الإســلامي بقضِّها وقضيضها وثالوثها وصليبها، فقتلت وأفسدت ودمَّرت، ما يعلمه كل دارس لتلك المرحلة من التاريخ.

ولكن القوة الذاتية الكامنة في أمة الإسلام، لم تلبث أنْ ظهرت في وقائع تاريخيَّة حاســمة، فحطمت أحلام الصَّليبيِّيــن في حطين... وفُتح «بيت المقدس» بعد أنْ بات أكثر من تســعين عامًا أسيرًا في يد الغزاة، وأسر «لويس التاسع» ملك فرنسا في «دار ابن لقمان» بالمنصورة، وارتد التتار مدحورين في «عين جالــوت» بعد أن كان النَّاس يعتبرونهم «القوة الَّتي لا تقهر» حتَّى شــاع بين النَّاس القول: إذا قيــل: إنَّ التتار انهزموا فلا تصدق!

وفي العصر الحديث، رأينا الجهاد البطولي، ضدَّ الغزاة المستعمرين، في سائر ديار الإسلام، جهاد الأمير عبد القادر الجزائري ضدَّ الفرنسيين، والأمير عبد الكريم الخطابي ضدَّ الإســبان، والبطــل عمر المختار ضدَّ الطليان، والشيخ عز الدين القســام ضدَّ الإنجليز واليهود، مرورًا بثورة الجزائر ضدَّ الاستعمار الفرنسي، ومعارك فلسطين ضدَّ الصهاينة، والقناة ضدَّ الإنجليز.

QaradawiBooks.com

العملاق ينتفض:

واليوم نرى العملاق الإسلامي ينتفض بعد طول ركود ورقود، فإذا هو جهاد مستبْسل في أفغانستان، وقتال في إريتريا والفليبين، وعمل فدائي في فلسطين، ويقظة في مصر وسوريا وتركيا، وشباب مثقف يتَّجه بقوة ووعي إلى الإسلام في الشرق والغرب، متحديًا رواسب القديم، وفتنة الجديد، معتصمًا بإيمان الأقوياء، وقوة المؤمنين.

وهذه الدلائل كلها من هنا وهناك، تعبِّر بوضوح عن خلود هذه الأمة، وقوتها وأصالتها، بالرغم مما قد يبدو على سحنتها من مظاهر الوهن والهزال.

إنَّ الأجانب من المستشرقين والدارسين لطبيعة أمتنا، وخصائص ديننا، ومذخور الطاقات في شعوبنا، هم الَّذين يدركون حقيقة ما نملك من قوَّة ذاتية، يحسبون لها ألف حساب، بل يساورهم وَهْم مفزع من خشية انطلاقها يومًا من الأيام. يقول البروفيسور «جب» في كتابه: «وجهة الإسلام»: «إنَّ الحركات الإسلاميَّة تتطوَّر عادة بسرعة مذهلة تدعو إلى الدهشة؛ فهي تنفجر انفجارًا مفاجئًا قبل أن يتبيَّن المراقبون من أماراتها ما يدعو إلى الاسترابة في أمرها. إنَّ الحركات الإسلاميَّة لا ينقصها إلَّا الزعامة، لا ينقصها، إلَّا صلاح الدين من جديد».

وكتب الرحالة الألماني «بول أشميد» كتابًا خاصًّا بهذا الموضوع سمَّاه: «الإسلام قوَّة الغد» ظهر سنة (١٩٣٦م). ومما قاله فيه: إنَّ مقوِّمات القوى في الشرق الإسلامي تنحصر في عوامل ثلاثة:

١ ـ في قوَّة الإسلام «كدين» وفي الاعتقاد به، وفي مُثله، وفي مؤاخاته بين مختلفي الجنس واللون والثقافة.

QaradawiBooks.com

٢ ـ وفي وفرة مصادر الثروة الطبيعية في رقعة الشرق الإسلامي الَّذي يمتد به من المحيط الأطلسي، على حدود مراكش غربًا إلى المحيط الهادي، على حدود إندونيسيا شرقًا.

وتمثيل هذه المصادر العديدة لوحدة اقتصادية سليمة قوية ولاكتفاء ذاتي، لا يدع المسلمين في حاجة مطلقًا إلى أوربا أو إلى غيرها إذا ما تقاربوا وتعاونوا.

٣ ـ وأخيرًا أشار إلى العامل الثالث وهو: خصوبة النسل البشري لدى المسلمين، مما جعل قوتهم العددية قوَّة متزايدة.

ثم قال: «فإذا اجتمعت هذه القوى الثلاث؛ فتآخى المسلمون على وحدة العقيدة، وتوحيد الله، وغطت ثروتهم الطبيعية حاجة تزايد عددهم؛ كان الخطر الإسلامي خطرًا منذرًا بفناء أوربا وبسيادة عالمية في منطقة هي مركز العالم كله».

ويقترح «بول أشميد» هذا بعد أن فصَّل هذه العوامل الثلاثة عن طريق الإحصاءات الرسمية، وعما يعرفه عن جوهر العقيدة الإسلاميَّة، كما تبلورت في تاريخ المسلمين، وتاريخ ترابطهم وزحفهم لرد الاعتداء عليهم، أن يتضامن الغرب المسيحي شعوبًا وحكومات، ويعيدوا الحرب الصليبيَّة في صورة أخرى ملائمة للعصر، ولكن في أسلوب نافذ حاسم[1].

وقال «روبرت بين» في مقدمة كتابه الَّذي سمَّاه: «السيف المقدَّس»: «علينا أنْ ندرس العرب ونسبر أفكارهم؛ لأنَّهم حكموا العالم سابقًا،

(١) ترجمة الدكتور محمد البهي في إحدى محاضراته، وقد ترجم الكتاب كله فيما بعد الدكتور محمد عبد الغني شامة، تحت عنوان: الإسلام قوة الغد العالمية، نشر مكتبة وهبة بالقاهرة.

QaradawiBooks.com

وربما عادوا إلى حكمه مرة أخرى، والشعلة الَّتي أضاءها محمَّد لا تزال مشـــتعلة بقوة، وهناك ما يدعو إلى الاعتقاد بأنَّ الشـــعلة لا تطفأ؛ ولهذا كتبت هذا الكتاب لكي يقف القرَّاء على أصل العرب، وســـمَّيته باســـم الســـيف ذي النصلين، الَّذي ناله محمَّد في وقعة بدر، تذكارًا لانتصاره؛ لأنَّ السيف أصبح رمزًا لمطالبه الإمبريالية»[١].

وبغضِّ النظر عما في هذا الكلام من تحامل، وما يغلي به من حقد، فهو يبيِّن لنا مبلغ قوَّة المســـلمين في نظر الأجانـــب عنهم، وتؤكد تلك الحقيقة الكبيرة: أنَّ هذه الأمة قد تضعف، ولكنَّها لا تموت، فقد ناط الله بها رسالة الخلود.

* * *

(١) صـ ١٧.

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

أمنية عُمَرِيَّة
أو حاجتنا إلى رجال

في دار من دور المدينة المباركة جلس عمر إلى جماعة من أصحابه فقال لهم: تمنوا. فقال أحدهم: أتمنَّى لو أنَّ هذه الدار مملوءة ذهبًا أنفقه في سبيل الله. ثمَّ قال عمر: تمنوا. فقال رجل آخر: أتمنى لو أنَّها مملوءة لؤلؤًا وزبرجدًا وجوهرًا أنفقه في سبيل الله وأتصدَّق به. ثمَّ قال: تمنوا. فقالوا: ما ندري ما نقول يا أمير المؤمنين؟

فقال عمر: ولكنِّي أتمنَّى رجالًا مثل أبي عبيدة بن الجراح، ومعاذ بن جبل، وسالم مولى أبي حذيفة فأستعين بهم على إعلاء كلمة الله[1].

رحم الله عمر الملهم، لقد كان خبيرًا بما تقوم به الحضارات الحقَّة، وتنهض به الرسالات الكبيرة، وتحيا به الأمم الهامدة.

إنَّ الأمم والرسالات تحتاج إلى المعادن المذخورة، والثروات المنشورة، ولكنَّها تحتاج قبل ذلك إلى الرؤوس المفكِّرة الَّتي تستغلها، والقلوب الكبيرة الَّتي ترعاها، والعزائم القوية الَّتي تنفِّذها: إنَّها تحتاج إلى الرجال.

(١) رواه أحمد في فضائل الصحابة (١٢٨٠)، والحاكم في معرفة الصحابة (٢٢٥/٣، ٢٢٦)، وسكت عنه، وصحَّحه الذهبي على شرط الشيخين.

غير مرخصة للطباعة
QaradawiBooks.com

الرجل أعز من كل معدن نفيس، وأغلى من كل جوهر ثمين؛ ولذلك كان وجوده عزيزًا في دنيا الناس، حتَّى قال رسول الله ﷺ: «**إنَّما النَّاس كإبل مائة، لا تكاد تجد فيها راحلة**»(١).

الرجل الكفء الصالح هو إكسير الحياة، وروح النهضات، وعماد الرسالات، ومحور الإصلاح.

أعدَّ ما شئت من معامل السلاح والذخيرة، فلن تقتل الأسلحة إلَّا بالرجل المحارب، وصغ ما شئت من القوانين واللوائح، فستظل حبرًا على ورق ما لم تجد الرجل الَّذي ينفِّذها، وضع ما شئت من مناهج للتعليم والتربية، فلن يغني المنهج إلَّا بالرجل الَّذي يقوم بتدريسه، وأنشئ ما شئت من لجان، فلن تنجز مشروعًا إذا حرمت الرجل الغيور!

ذلك ما يقوله الواقع الَّذي لا ريب فيه.

إنَّ القوة ليست بحدِّ السلاح بقدر ما هي في قلب الجندي، والعدل ليس في نصِّ القانون بقدر ما هو في ضمير القاضي، والتربية ليست في صفحات الكتاب بقدر ما هي في روح العالم، وإنجاز المشروعات ليس في تكوين اللجان بقدر ما هو في حماسة القائمين عليها.

فللّه ما أحكم عمر حين لم يتمنَّ فضةً ولا ذهبًا، ولا لؤلؤًا ولا جوهرًا، ولكنَّه تمنَّى رجالًا من الطراز الممتاز الَّذين تتفتَّح على أيديهم كنوز الأرض، وأبواب السماء.

إنَّ رجلًا واحدًا قد يساوي مائة، ورجلًا قد يوازي ألفًا، ورجلًا قد يزن شعبًا بأسره، وقد قيل: رجل ذو همَّة يحيي أمَّة.

---

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في الرقاق (٦٤٩٨)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٥٤٧)، عن ابن عمر.

QaradawiBooks.com

حاصر خالد «الحيرة» فطلب مـــن أبي بكر مددًا، فما أمدَّه إلَّا برجل واحد هو القعقاع بن عمرو التميمي، وقال: لا يهزم جيش فيه مثله، وكان يقول: لصوت القعقاع في الجيش خيرٌ من ألف مقاتل[١]!

واستمدَّ عمرو بن العاص ـ وهو في مصر ـ عمر بن الخطاب فبعث إليه بأربعة آلاف، على رأسهم أربعة من رجالات الإسلام، عدَّ كل واحد منهم بألف رجل[٢].

ولكن ما الرجل الَّذي نريد؟ هل هو كل من طرَّ شاربه، ونبتت لحيته من بني الإنسان؟ إذن فما أكثر الرجال!

إنَّ الرجولة ليست بالســـنِّ المتقدمة، فكم من شيخٍ في سنِّ السبعين وقلبه في سنِّ الســـابعة، يفرح بالتافه، ويبكي على الحقير، ويتطلع إلى ما ليس له، ويقبض على ما في يده قبض الشحيح حتَّى لا يشركه غيره، فهو طفل صغيـــر، ولكنَّه ذو لحية وشـــارب، وكم من غـــلام في مقتبل العمر، ولكنَّك ترى الرجولة المبكِّرة في قوله وتفكيره وخلقه.

مرَّ عمر على ثلة من الصبيان يلعبون فهرولوا، وبقي صبي مفرد في مكانه، هو عبد الله بن الزبير، فسأله عمر: لِمَ لم تعدُ مع أصحابك؟ فقال: يا أميـــر المؤمنين، لـــم أقترف ذنبًـــا فأخافك، ولم تكـــن الطريق ضيِّقة فأوسعها لك[٣]!

(١) أسد الغابة (٣٩٠/٤)، تحقيق علي محمد معوض وعادل أحمد عبد الموجود، نشر دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٤م.

(٢) فتوح مصر والمغرب لابن عبد الحكم صـ ١٠٢، نشر مكتبة الثقافة الدينية، ١٤١٥هـ.

(٣) تاريخ دمشق (١٦٥/٢٨).

QaradawiBooks.com

ودخل غلام عربي على خليفة أموي يتحدث باسم قومه، فقال له: ليتقدم من هو أسن منك، فقال: يا أمير المؤمنين، لو كان التقدُّم بالسنِّ لكان في الأمة من هو أولى منك بالخلافة[١].

أولئك لعمري هم الصغار الكبار، وفي دنيانا ما أكثر الكبار الصغار!

وليست الرجولة ببسطة الجسم، وطول القامة، وقوة البنية، فقد قال الله عن طائفة من المنافقين: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾ [المنافقون: ٤]، ومع هذا فهم: ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ [المنافقون: ٤]. وفي الحديث الصحيح: «**يأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة فلا يزن عند الله جناح بعوضة، اقرؤوا إنْ شئتم قوله تعالى:** ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾»[٢] [الكهف: ١٠٥].

كان عبد الله بن مسعود نحيفًا نحيلًا، فانكشفت ساقاه يومًا ـ وهما دقيقتان هزيلتان ـ فضحك بعض الصحابة: فقال الرسول ﷺ: «**أتضحكون من دقَّة ساقيه؟ والَّذي نفسي بيده، لهما أثقل في الميزان من جبل أُحُد**»[٣].

ليست الرجولة بالسنِّ ولا بالجسم ولا بالمال ولا بالجاه، وإنَّما الرجولة قوَّة نفسية تحمل صاحبها على معالي الأمور، وتبعده عن

(١) زهر الآداب لأبي إسحاق الحُصري القيرواني (٤٠/١)، نشر دار الجيل، بيروت.

(٢) متَّفق عليه: رواه البخاري في تفسير القرآن (٤٧٢٩)، ومسلم في صفة القيامة (٢٧٨٥)، عن أبي هريرة.

(٣) رواه أحمد (٣٩٩١)، وقال مخرِّجوه: صحيح لغيره. والطبراني (٨٤٥٢)، والبزار (٣٣٠٥)، وابن حبان في مناقب الصحابة (٧٠٦٩)، وحسَّنه الألباني في غاية المرام (٤١٦)، عن ابن مسعود.

QaradawiBooks.com

سفسافها، قوَّة تجعله كبيرًا في صغره، غنيًّا في فقره، قويًّا في ضعفه، قوَّة تحمله على أنْ يعطي قبل أنْ يأخذ، وأنْ يؤدي واجبه قبل أنْ يطلب حقه: واجبه نحو نفسه، ونحو ربه، ونحو بيته ودينه وأمته.

الرجولة بإيجاز: هي قوَّة الخُلُق وخُلُق القُوَّة.

إنَّ خير ما تقوم به دولة لشعبها، وأعظم ما يقوم عليه منهج تعليمي، وأفضل ما تتعاون عليه أدوات التوجيه كلها من صحافة وإذاعة، ومسرح وخيالة، ومسجد ومدرسة، هو صناعة هذه الرجولة، وتربية هذا الطراز من الرجال.

ولن تترعــرع الرجولة الفارعة، ويتربَّى الرجــال الصالحون، إلَّا في ظلال العقائد الراســخة، والفضائل الثابتة، والمعايير الأصيلة، والتقاليد المرعية، والحقــوق المكفولة، أما في ظلام الشــكِّ المحطم، والإلحاد الكافر، والانحلال السافر، والحرمان القاتل، فلن توجد رجولة صحيحة، كما لا ينمو الغرس إذا حرم الماء والهواء والضياء.

ولم تَرَ الدنيا الرجولة في أجلى صورها وأكمل معانيها كما رأتها في تلك النماذج الكريمة الَّتي صنعها الإســلام على يد رسوله العظيم، من رجال يكثرون عند الفزع، ويقلون عند الطمع لا يغريهم الوعد ولا يلينهم الوعيد، لا يغرُّهم النصر، ولا تحطِّمهم الهزيمة.

مِنَ الرِّجَالِ الْمَصَابِيحُ الَّذِينَ هُمُو ... كَأَنَّهــم مِــنْ نُجُومٍ حَيَّــةٍ صُنِعُوا
أَخْلَاقُهُمْ نُورُهُمْ، مِــنْ أَيِّ نَاحِيَةٍ ... أَقْبَلْتَ تَنْظُرُ فِي أَخْلَاقِهِمْ سَطَعُوا[1]

(١) بيت من قصيدة طويلة لمصطفى صادق الرافعي في رثاء أحمد تيمور باشــا، انظر: الحديقة (٧٧/١٠)، جمع وطباعة محب الدين الخطيب، المطبعة السلفية بالقاهرة، ١٣٥٠هـ.

QaradawiBooks.com

أمَّا اليوم، وقد أفسد الاستعمار جوَّ المسلمين بغازاته السامَّة الخانقة من إلحاد وإباحيَّة، فقلَّما ترى إلَّا أشباه الرجال، ولا رجال.

أعجبتني وآلمتني كلمة لرجل درس تعاليم الإسلام السمحة الشاملة فقال في إعجاب مرير: «يا له من دين لو كان له رجال»!

وهذا الدين الَّذي يشكو قلة الرجال يضم خمسمائة[١] مليون من المسلمين ينتسبون إليه، ويحسبون عليه، ولكنَّهم ـ كما قال رسول الله ﷺ: «**غثاءٌ كغثاءِ السَّيْلِ**»[٢]، أو كما قال الشاعر[٣]:

يُثْقِلُونَ الْأَرْضَ مِنْ كَثْرَتِهِمْ ثُمَّ لَا يُغْنُونَ فِي أَمْرٍ جَلَلْ

وماذا يغني عن الإسلام رجال أهمَّتهم أنفسهم، وحكمتهم شهواتهم، وسيَّرتهم مصالحهم. رجال يعتقدون أنَّ شعوبهم مجموعة من الأصفار لا يصلحون إلَّا أتباعًا، ولا يحيون إلَّا أذنابًا، فلا وثقوا بأنفسهم، ولا اعتمدوا على ربهم. رجال يجمعهم الطمع، ويفرِّقهم الخوف، أو كما قيل: يجمعهم مزمار وتفرِّقهم عصا! رجال كأنَّهم صنعوا من زجاج، فلا يستر عورة، ولا يتحمل رمية حصاة؟

---

(١) كان هذا هو تعداد المسلمين حين كتب هذا المقال سنة (١٩٥٦م)، أما اليوم فقد أربى عددهم على المليار.

(٢) رواه أحمد (٢٢٣٩٧)، وقال مخرِّجوه: إسناده حسن. وأبو داود في الملاحم (٤٢٩٧)، وصحَّحه الألباني في السلسلة الصحيحة (٩٥٨)، عن ثوبان.

(٣) البيت لمحمد فريد أبو حديد ترجمه عن هرقلية جورج البيسيدي، انظر تعريبه لكتاب فتح العرب لمصر لألفرد ج بتلر هامش٣ صـ ١٥٩، نشر مكتبة مدبولي، القاهرة، ط٢، ١٩٩٦م.

QaradawiBooks.com

أما والله لو ظفر الإسلام في كل ألف من أبنائه برجل واحد فيه خصائص الرجولة، لكان ذلك خيرًا له وأجدى عليه من هذه الجماهير المكدَّسة الَّتي لا يهابها عدوٌّ، ولا ينتصر بها صديق:

فَلَيْتَ لِي بِهِمُو قَوْمًا إِذَا رَكِبُوا شَنُّوا الْإِغَارَةَ فُرْسَانًا وَرُكْبَانَا
لَا يَسْأَلُونَ أَخَاهُمْ حِينَ يَنْدُبُهُمْ فِي النَّائِبَاتِ عَلَى مَا قَالَ بُرْهَانَا[1]

* * *

غير مرخصة للطباعة

(١) من شعر قريط بن أنيف أحد بني العنبر، انظر: الحماسة (٥٨/١)، تحقيق عبد الله بن عبد الرحيم عسيلان، نشر جامعة الإمام محمد بن سعود.

QaradawiBooks.com

القوَّة الَّتي لا تُغلَب

قال الطالب لأستاذه المربِّي: خبِّرني عن أعظم قوَّة عرفها الإنسان منذ فجر التاريخ، لا شكَّ أنَّك تعتقد مثلي أنَّها قوَّة الصاروخ والقنبلة الذرية؟

قال الأستاذ المعلِّم: مهلًا أيها الفتى الطالب، لا تسألني وتعجل بالجواب قبلي.

قال الطالب: معذرة يا أستاذي، أنِّي أريد أنْ أسمع منك.

قال الأستاذ: دعني أسألك سؤالًا آخر: أيهما أعظم قوَّة: القنبلة والصاروخ، أم الَّذي صنع القنبلة وأطلق الصاروخ؟

قال الفتى: لا شكَّ أنَّ صانع القنبلة ومطلق الصاروخ أقوى منهما!

قال الأستاذ: إذنْ فأنت معي أنَّ قوَّة الإنسان أعظم من كل قوَّة مادية في الأرض.

قال الطالب: نعم، فالإنسان هو الَّذي سخَّر المادة لمنفعته، ويوجِّهها لما يريد.

قال الأستاذ المربِّي: فإذا وجدت قوَّة توجه الإنسان وتدفعه إلى الأمام، وتحفزه إلى العمل الدائب، وتقذف به كالقنبلة، أو أقوى، وتطلقه كالصاروخ، أو أشد؟!

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية

قال الطالب في عجلة: إنَّها لا شــكَّ تكون أعظم قوَّة عرفها الإنسان في هــذه الأرض، فما هي هذه القوة؟ وما حقيقتها؟ لقد شــوَّقتني إليها بحديثك عنها!

قال الأستاذ المربِّي: إنَّها يا بُنَيَّ قوَّة الإيمان.

قال الفتى الطالب: الإيمان بأيِّ شــيء؟ فإنَّ بعــض النَّاس يجعلون الإيمان بأيِّ مبدأ هو الإيمان.

قال الأستاذ: لا أنكر أنَّ مطلق الإيمان بأيِّ معتقد كان يعطي صاحبه قوَّة وصلابة، كما يظهر ذلك في الصراع بين الأفراد والجماعات، فالفرد الَّذي يؤمن بعقيدة ما ينتصر على الفارغ الَّــذي لا عقيدة له، والجماعة الَّتي ترتكز حياتها على إيمان ما ـ ولو لم تكن له أسس مفهومة ـ تنتصر في النهاية على الجماعة الخاوية من الاعتقاد، ولكنَّ الإيمان الَّذي أعنيه هو الإيمان بالله واهب الحياة، وخالق الكون والإنسان، الإيمان بالجزاء والخلود في حياة باقية تُوفَّى فيهــا كل نفس ما عملت وهم لا يُظلَمون، الإيمان بعالم فســيح غير منظور، مليء بجنــد الله لا يُحصى لهم عدد، إنَّهم الملائكة المقرَّبون، الإيمان بالوحي الإلٰهي، وهو الصلة الَّتي تربط السماء بالأرض، ومظهر هداية الخالق للخلق، الإيمان بالنماذج الإنسانيَّة العليا، أولئك هم النبيُّون الَّذين أنــزل الله عليهم وحيه، ليُخرِجوا النَّاس من الظلمات إلى النور، بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد.

الإيمان بأنَّ الكون لا يســير جزافًا، ولا تمضــي حوادثه بغير هدًى ولا تقدير، بل كل شيء فيه بقدر، وكل صغير وكبير مستطر.

الإيمان بكرامة الإنسان الَّذي استخلفه الله في الأرض واستعمره فيها، وابتلاه بالتكليف في دار الدنيا، ليصهره ويعدَّه للخلود في الدار الآخرة.

QaradawiBooks.com

ذلك يا بني هو الإيمان الَّذي دعا إليه النبيُّون والمرسلون، وجاهد في سبيله الصديقون والشهداء والصالحون، وهو المعنى الفذ الَّذي نريده من كلمة «الإيمان»، إنَّه الإيمان كما جاء به الإسلام. واسترسل الأستاذ يتحدث، والطالب الفتى يصغي إليه في شوقٍ ولهفة: هذا الإيمان يا بني، قوَّة دافعة موجِّهة، قوَّة تسند الضعيف أن يسقط، وتمسك القوي أنْ يجمح، وتعصم الغالب أنْ يطغى، وتمنع المغلوب أنْ ييئس وينهار!

قال الطالب الفتى: لكنَّك يا أستاذي حدثتنا من قبل أنَّ في الإنسان قوَّة أخرى عاتية شديدة العتو والجبروت، تلك هي قوَّة الغرائز، كغريزة حبِّ البقاء، وغريزة الشهوة الجنسية، وغريزة الغضب والمقاتلة.

قال الأستاذ الشيخ: أجل يا بني، أنا لم أنسَ حديثي هذا، ولا أنكر أنَّ للغرائز البشرية سطوتَها وقوَّتَها، ولكنَّها بجوار الإيمان تفقد سيطرتها، وتنحل عقدتها، وتنحني مطواعةً لقوة الإيمان، فالإيمان هو السيد الآمر المطاع، والغرائز هي الخادمة المنقادة له، المسخَّرة بأمره.

أتريد أنْ أضرب لك مثلًا من التاريخ.

قال الطالب: نعم. فقد حفظنا عنك: «بالمثال يتضح المقال».

قال الأستاذ: هل أتاك حديث سيدنا يوسف الصِّدِّيق، لا بدَّ أنَّك سمعت قصته في سورة يوسف في القرآن الكريم، إنَّها قصة مؤمن أخضع غريزته لإيمانه، فخلَّد الله ذكره، وسجَّل قصته لتكون هُدًى ونبراسًا للآخرين.

يوسف شاب في ريعان الشباب ومقتبل العمر، أُوتي من الشباب والجمال حظًّا كبيرًا، وامتلأ فتوةً ونضرةً ونشاطًا، وقدَّر القدر له أنْ يُبتلى بالخدمة في بيت امرأة عزيز مصر، ولكنَّ شبابه وجماله أغرى به المرأة

QaradawiBooks.com

الَّتي هو في بيتها، فراودته عن نفسه وغلَّقت الأبواب، وقالت: هيت لك! كان الموقف دقيقًا ولا ريب، فإنَّ الفتنة الَّتي عرضت ليوسف لم تكن من الفتن الَّتي تعرض للمرء ساعة في حياته ثمَّ تزول، إنَّما هي فتنة تصابحه وتماسيه، وتراوحه وتغاديه، لم تكن فتنة امرأةٍ من بنات الليل وبائعات الهوى، بل كانت فتنة امرأةٍ ذات منصب وجمال وحيلة ومقدرة، وهي سيدة البيت، وامرأة العزيز، وهو: غلام شُري بثمن بخس دراهم معدودة، لا يعرف له أهل ولا بيت، مجرَّد خادم في بيتها، من شأنه أن يؤْمر فيأتمر؛ فماذا صنع الفتى يوسف أمام هذا الإغراء وأمام هذه الفتنة؟

قال الفتى الطالب لأستاذه: هذا والله يا أستاذ موقف صعب وامتحان رهيب لإيمان يوسف.

قال الأستاذ: أجل كان الامتحان عسيرًا، ولكنَّه انتهى بنجاح يوسف، كان صوت الغريزة القويِّ يدعوه أنْ يهمَّ بها كما دعا المرأة أنْ تهمَّ به، ولكنَّ صوت الإيمان في ضميره كان أقوى، لقد زجرها بهذه الكلمات الواعية حين قال: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [يوسف: ٢٣].

ولقد حاولت المرأة مرة أخرى أنْ تمكر به وتجبره على قَبول رغبتها الآثمة أمام نسوتها قائلة: ﴿وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ فَٱسۡتَعۡصَمَۖ وَلَئِن لَّمۡ يَفۡعَلۡ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسۡجَنَنَّ وَلَيَكُونٗا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ [يوسف: ٣٢].

وكان يوسف بين محنتين: أنْ يمتحن في دينه فيقع في الفاحشة والإثم المبين، أو يمتحن في دنياه وحريته فيسجن ويكون من الصاغرين.

قال الطالب في لهفة: فماذا اختار يوسف؟!

QaradawiBooks.com

قال الأستاذ: لقد هداه منطق الإيمان أنْ يؤْثر سلامة دينه على سلامة دنياه. فدعا ربه كما حدثنا القرآن قائلًا: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣].

قال الطالب لأستاذه: وماذا حدث ليوسف بعد ذلك؟

قال الأستاذ: استجاب له ربه فصرف عنه كيدهنَّ، وسلم له دينه الَّذي حرص عليه، أما دنياه فلم تسلم، فقد سجنوه ظلمًا، ولبث في السجن بضع سنين، بيد أنَّ ظلمة السجن لم تطفئ النور الَّذي في قلبه، ولم تُنْسه أنَّه مؤمن صاحب رسالة، فظلَّ في السجن يدعو إلى توحيد الله، ويُنفِّر رفقاءه في السجن من الوثنيَّة المحرَّفة. وينتهز الفرصة لذلك كلما سنحت، كما قال للفتيين اللذين سألاه في تأويل حلم أو تفسير رؤيا، فأنبأهما بعض ما علَّمه الله من الغيب ثمَّ قال: ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ ۚ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ۞ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ۞ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ۞ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٣٧ ـ ٤٠].

قال الطالب: وماذا كانت عاقبة هذا السجين المؤمن؟

قال الأستاذ: إنَّ العاقبة يا بني دائمًا للمؤمنين المتقين، هذه سنَّة الله، ولن تجد لسنَّة الله تبديلًا ولا تحويلًا، لقد احتاج القوم إليه احتياج الجاهل إلى العالِم، والمريض إلى الطبيب، والملاح التائه إلى النجم

QaradawiBooks.com

الهادي، فلم يجدوا بدًّا من أنْ يذهبوا إليه صاغرين، ويطلقوا سراحه، وهو يأبى أنْ يخرج من السجن إلَّا بعد أنْ تظهر براءة صفحته أولًا... وخرج من السجن نقيَّ الذيل، مرفوعَ الرأس، ناصعَ الجبين: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ۝ قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ۝ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٤ ـ ٥٦].

وأصبح سجين مصر بالأمس عزيزها اليوم، والمتصرف في ماليَّاتها وتموينها إبان أزمة ومجاعة، اجتاحت مصر وما جاورها من الأقطار.

وكان هذا المنصب امتحانًا آخر لإيمان يوسف، فإنَّ الإنسان يمتحن بالنعمة كما يمتحن بالمصيبة.

قال الطالب: وكيف يمتحن بالنعمة والامتحان إنَّما هو ابتلاء؟

قال الأستاذ: أما سمعت قول الله ﷻ: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾؟ [الأنبياء: ٣٥]. إنَّ بعض النَّاس قد يملك نفسه عند الشدَّة فيصبر ولا يجزع، فإذا امتحن بالنعمة بطر واستكبر وركبه الغرور، ولكنَّ يوسف الَّذي صار عزيزًا، لم يتغيَّر عن يوسف الَّذي كان سجينًا.

إنَّه ملك الدنيا ولكنَّها لم تملكه، وسيطر على خزائن مصر، ولكنَّها لم تسيطر على قلبه، لقد كان إذا وضع أمامه الطعام أكل منه لقيمات تقيم الأود ولا يشبع، فلمَّا سئل عن ذلك قال: أخاف إذا شبعت أنْ أنسى جوع الفقراء!

ومرة أخرى ظهر إيمان يوسف الصدِّيق حين تمكَّن من إخوته لأبيه أولئك الذين أرادوا أنْ يقتلوه ليخلو لهم وجه أبيهم، ثمَّ ألقوه في غيابة الجب، ثمَّ باعوه بثمن بخس دراهم معدودة، وعرَّضوه للذلِّ والعبوديَّة.

QaradawiBooks.com

لقد جاؤوا مصر من فلسطين يطلبون المدد والزاد، وقدر يوسف على الانتقام منهم، ولكنَّه عفا وغفر، وقال: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢].

وبعد أنْ تمهَّدت ليوسف الوزارة والرئاسة، وقرَّت عينه بوصول أبويه وإخوته، تطلعت نفسه التوَّاقة إلى ما هو أعز من الوزارة وأبقى من الملك ـ إلى رضوان الله تعالى، والسعادة بلقائه في دار الخلود، فتوجَّه إلى الله بدعائه المأثور: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١].

ذلك يا بني نموذج من نماذج الإيمان القوي، فيه أسوة للشباب، وعبرة لأولي الألباب، وحجَّة على الجاحدين، وهدى ورحمة لقوم يؤمنون.

* * *

نسخة مجانية
غير مرخصة للطباعة

غير مرخصة للطباعة

هل نحن مؤمنون؟

سألني صاحبي وهو مسلم مثقف، له إلمام بالمعرفة الدينيَّة، فقال: هل يناقض كلام العاقل فعله؟

قلت: لا، ما دام واعيًا لكلامه، قاصدًا لفعله، ولِمَ هذا السؤال؟

قال: هذا السؤال مقدمة لسؤال آخر طالما ألحَّ على فكري، وحاولت أنْ أجد له جوابًا، ولعلِّي الآن أجد عندك الجواب الشافي.

قلت: وما سؤالك؟

قال: أليس القرآن كلام الله تعالى؟

قلت: بلى.

قال: أليس ما يجري في هذا الوجود فعل الله تعالى؟

قلت: بلى.

قال: فلِمَ نرى الواقع في هذا الوجود يناقض المسطور في كتاب الله؟

قلت: هذا لا يحدث، فسِّر لي ما تقول.

قال: نحن نقرأ في القرآن قول الله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]. ونقرأ في صفحة الواقع أنَّ المؤمنين مخذولون

QaradawiBooks.com

مستضعفون، ونقرأ قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]. ونرى في الواقع أنَّ المؤمنين أذلاء مستعبدون، ونقرأ قوله تعالى: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤١]. ولكننا ننظر حولنا فنرى للكافرين ألف سبيل وسبيل، ونقرأ آيات أخر مثل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [الحج: ٣٨]، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [محمد: ١١]، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١٩]، إلى غير ذلك من الآيات. ومع هذا نجد القوة والسيادة والمجد من نصيب الكفرة والملحدين، والضعف والتخلف والهوان من نصيب المؤمنين! فما تفسير ذلك، وما تأويله؟

قلت: إنَّ تأويل هذه الآيات بيِّن غاية البيان، إنَّ كل ما ضمنته هذه الآيات من النصر والعزة والسيادة والتأييد الإلٰهي إنَّما ضمنته للمؤمنين، ولم تضمنه لكلِّ من يدَّعون الإيمان، ويتسمَّون بأسماء أهل الإسلام، فالمدار على المسمَّيات لا على الأسماء، والعبرة بالحقائق لا بالدعاوى.

قال صاحبي: أفهم من هذا أنَّنا لسنا مؤمنين؟

قلت: إذا كان الإيمان هو النُّطق بالشهادتين، والمحافظة على بعض شعائر الإسلام، فنحن مؤمنون، وإن كان الإيمان هو التحقق بالأوصاف الَّتي ذكرها القرآن للمؤمنين، فبيننا وبين إيمان القرآن مراحل ومراحل.

إنَّ المؤمنين الَّذين تكفَّل الله لهم بالنصر والمعونة والتأييد ـ في آيات كتابه ـ لهم صفات ذكرها القرآن نفسه، جلَّى بها عقائدهم وأعمالهم وأخلاقهم، الَّتي استحقُّوا بها تكريم الله تعالى وعونه وتسديده، وليس من الإنصاف أنْ نذكر ما وعد الله به المؤمنين في القرآن، ثمَّ نطلب تفسير المؤمنين من غير القرآن.

QaradawiBooks.com

قال صاحبي: بلى، والله، فَبَيِّن لي من هم المؤمنون في نظر القرآن؟

قلت: استمع إلى هذه الآيات النيِّرة من كتاب ربك: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۞ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۞ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال: ٢ ـ ٤]، ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۞ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ...﴾ [المؤمنون: ١، ٢].

﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [التوبة: ٧١]، ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ١٠]، ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥]، ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٥١].

استمع إلى هذه الآيات وإلى غيرها ـ وما أكثرها في القرآن ـ ثمَّ انظر في واقع هذه المئات من الملايين من المنتسبين للإسلام، فماذا ترى؟ هل ترى ـ بربك ـ إلَّا قومًا أضاعوا الصلاة واتَّبعوا الشهوات، أفئدتهم عن الله مشغولة، وصلتهم بالله مقطوعة: ﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ [الحشر: ١٤]. استعلن فيهم المنكر، واستخفى المعروف، بل صار فيهم المعروف منكرًا والمنكر معروفًا، بل أصبح فيهم من يأمر بالمنكر، ومن ينهى عن المعروف.

ثم ارجع البصر كرَّتين في هذه الملايين الستمائة[1]، فسترى بينها ملايين أفسدها الغلو الطائفي، وملايين أفسدها التضليل الحزبي،

(١) كان هذا هو تعداد المسلمين حين كتبت هذه الكلمة، أما اليوم فقد أربى عددهم على المليار.

QaradawiBooks.com

وملايين أفسدها الاستبداد السياسي، وملايين أفسدها الغزو الفكري، وملايين عزلها الاستعمار الشيوعي، وملايين جهَّلها الاستعمار الصليبي، وملايين أخرى لا هم في العير ولا في النفير، هم في غفلة لاهون، وفي غمرة ساهون: ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النحل: ٢١].

هل تستطيع بعد ذلك إلَّا أنْ تقول ما قاله الشاعر قديمًا:

مَا أَكْثَرَ النَّاسَ، بل مَا أَقَلَّهُمو! اللهُ يعلمُ أنِّي لم أَقُلْ فَنَدَا!
إِنِّي لَأَفْتَحُ عَيْنِي حِينَ أَفْتَحُها عَلَى كَثِيرٍ وَلَكِنْ لَا أَرَى أَحَدَا[1]!

قال صاحبي: صدقت في كل ما ذكرت، ولكن ألسنا أقرب إلى المؤمنين الصادقين من اليهود؟ فلماذا انتصروا، ولماذا غُلبنا[2].

قلت: إنَّ اليهود انتصروا بقدر ما اعتبروا بسنن الله في الخلق، والاعتبار بسنن الله جزءٌ مهم من الإيمان، وقد ضيَّعناه نحن، وحفظوه هم، لقد استيقظوا ونمنا، وتعلَّموا وجهلنا، وجدُّوا وتخلَّفنا، وتعاونوا وتخاذلنا، وأعدُّوا العدة للغد، ونسينا نحن واجب اليوم. وبذل القوم العرَق والدم، ولم نبذل نحن غير الدمع، فأيُّ الفريقين في هذا الموقف أقرب إلى منطق الإيمان الحق؟

إنَّ سنن الله في الرقيِّ والهبوط، والنصر والهزيمة، لا تظلم أحدًا، ولا تحابي أحدًا، من أخذ بأسباب النصر ظفر به ولو كان يهوديًّا، ومن سلك طريق الهزيمة أدركته ولو كان إلى الإسلام منتسبًا.

---

(١) هما لدعبل الخزاعي، انظر: العقد الفريد (١٥٢/٢)، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٤هـ.

(٢) في سنة (١٩٤٨م) فقد كتبت هذه الكلمة قبل حرب (٥) حزيران «يونيو» (١٩٦٧م) بسنين طويلة.

QaradawiBooks.com

هل أضرب لك مثلًا بالمسلمين في معركة أحد؟ لقد غلطوا غلطة دفعوا ثمنها سبعين شهيدًا، فيهم حمزة عم الرسول ﷺ، ومصعب بن عمير، وسعد بن الربيع، وأنس بن النضر، وغيرهم من المؤمنين الأبطال، ولم يغنِ عنهم أنَّ قائدهم رسول الله ﷺ، وأنَّ أعداءهم عبَّاد الأوثان.

وسجَّل ذلك القرآن، وهو الحكم العدل، على المسلمين، فقال: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

ثم قلت لصاحبي: هل تريد أنْ أزيدك إيضاحًا؟

اقرأ معي هذه الآيات الكريمة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا﴾ [النساء: ٧١]، ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْۖ وَٱصْبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٥، ٤٦].

هل عملنا بهذه الآيات؟ إنَّنا لم نأخذ حذرنا، بل أُخذنا على غِرَّة، وفوجئنا بمخططات الصهيونيَّة العالميَّة تواجهنا، ونحن في غفلة من أمرنا، ولم نُعِدَّ ما استطعنا من قوَّة، إلَّا ما اشترينا من أسلحة فاسدة، ترتدُّ إلى الضارب قبل أن تتَّجه إلى المضروب، وهكذا غفلنا عن أسلحتنا وأمتعتنا فمالوا علينا ميلةً واحدة، كما ذكر القرآن الكريم[1].

(١) إشارة إلى قوله تعالى في سورة النساء: ﴿وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً﴾ [النساء: ١٠٢].

QaradawiBooks.com

ولما لقينا عدوَّنا لم نثبت كما أمر الله الَّذين آمنوا، ولم نذكر الله كثيرًا ـ بل ولا قليلًا ـ ولم نطع الله ورسوله، بل ذهبنا نرفِّه عن الجنود بالغناء الماجن، والرقص الخليع، ولم نحذر ما نهى الله عنه من التنازع، ففشلنا، وذهبت ريحنا.

فكيف بعد ذلك نضع أنفسنا في عداد المؤمنين الَّذين عناهم القرآن؟ وكيف ننتظر ما وعد الله، ولم نَفِ بما شرط الله؟!

إنَّه لمجون منا أنْ نطلب نصر الله ونحن لم ننصر الله، وأنْ نطلب منه جزاء المؤمنين، ولا نطلب من أنفسنا أوصاف المؤمنين؟ إنَّ علينا أنْ نصدق الله فيصدقنا الله، أعني أنْ نكون مؤمنين حقًّا، نرضى بالله وحده ربًّا، وبالإسلام منهجًا، وبالرسول قدوةً، وبالقرآن إمامًا، وأنْ نبرأ من العبوديَّة لغير الله في كل شيء: في عقائدنا، في أخلاقنا وسلوكنا، في تشريعنا ونظم حياتنا.

بهذا الإيمان وحده نظفر بالسعادة والنصر والعزَّة الَّتي كتبها الله للمؤمنين في الدنيا، فضلًا عن رضاه ومثوبته في الآخرة.

قال صاحبي: صدقت لعمر الحق، ولكن ألا يوجد مؤمنون صالحون؟

قلت: بلى، ولا تجتمع هذه الأمة على ضلالة، ولكنَّهم قليل، وهم مع قلتهم مبعثرون كالحبات المتناثرة لم ينتظمها عِقْد، وكثير منهم أدركه اليأس من الإصلاح، فألقى السلاح، وترك الميدان للغزو الفكري الكافر الفاجر الماكر، وبعضهم اكتفى بالعويل والنواح، والبكاء على الأطلال، والاستغراق في الحوقلة والاسترجاع، دون أنْ يقدِّموا شيئًا جادًّا أو عملًا إيجابيًّا، وبعضهم وهنوا لما أصابهم في سبيل الله، وضعفوا واستكانوا، وبعضهم، وبعضهم.

QaradawiBooks.com

قال صاحبي: وما الحل إذنْ؟

قلت: الحل عند هؤلاء المؤمنين الصالحين.

الحل أنْ يتنادى هؤلاء بالعودة إلى الإسلام الصحيح، عقيدةً، وشريعةً، وأخلاقًا، ويذكِّروا بذلك قومهم، مبشِّرين ومنذرين، فبالإسلام وحده ينتصرون ويسودون، به وحدتهم وقوَّتهم، وفيه ـ دون غيره ـ عزُّ الدنيا وسعادة الآخرة. وأن يوحِّد هؤلاء جهودهم لتحرير أمتهم من الجمود القديم، والتحلل الجديد، والكفر الزاحف عليهم، سافرًا حينًا، ومقنعًا أحيانًا. وأن يكون هؤلاء الغيورون على علم بطبيعة عصرهم، ومتطلبات زمانهم، وأحوال مجتمعهم، وما يتنازعه من تيارات، وما يكتنفه من مشكلات، فيواجهوها بمنطق العلماء الدارسين المتخصِّصين، لا بعقلية المقلِّدين أو المهرِّجين. وأن يتسلَّحوا بالصبر واليقين لمقاومة تلك الموجة المادِّيَّة الطاغية الَّتي اكتسحت ديار المسلمين، وغزت عقولهم وقلوبهم بصورة مفزعة، حتَّى سمَّاها داعية إسلامي كبير[1]: «ردة ولا أبا بكر لها».

فإذا صبروا على حر المعركة بينهم وبين الباطل، وأيقنوا بصدق ما معهم من آيات الله، وآثروا الله ورسوله والجهاد في سبيله على كل ما يحرص النَّاس عليه من أهل وعشيرة ومال ووطن، استحقوا أنْ يجعلهم الله أئمة، ويجعلهم الوارثين، ويمكِّن لهم في الأرض، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

(١) هو العلَّامة المربي الزاهد القدوة السيد أبو الحسن علي الحسني الندوي رحمه الله تعالى.

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

قال صاحبي: فإذا تخلَّى هؤلاء المؤمنون الصالحون عن القيام بهذا الواجب، ماذا يكون المصير؟

قلت: إنَّه مصير مخــوف مرعب، حدَّدت معالمه آيــة من كتاب الله وتركته آية أخرى مجهولًا مرهوبًا، لتذهب النفس في تصوره كل مذهب، أما الآية الأولى فهي قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التوبة: ٣٩].

وأما الآية الثانية فهي قوله جل شأنه: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٢٤].

* * *

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

طريق لا طريق غيره

قال لي صاحبي وقد أخذ منه اليأس والغضب كل مأخذ: ما بالنا نتعثَّر ونتخبَّط ولا ننجو من هُوة إلَّا لنسقط في مثلها أو أعمق منها؟ لقد كدت أحسب الضعف والتخلف والانحطاط أوصافًا ذاتية لنا، لا أعراضًا طارئة علينا، وكدت أكذِّب ما قرأته وسمعته عن تاريخنا المجيد، ومجدنا التليد... فما لنا كالثور في الساقية، يلف ويدور والمكان الَّذي انتهى إليه هو الَّذي ابتدأ منه؟

قلت: أتدري ما سر ذلك يا صاحبي؟ سر ذلك: أنَّنا نعالج الأمراض الخبيثة بالمسكنات الوقتية، لا بأدويتها الناجعة؛ ولهذا نعالج مشكلة بخلق أخرى، ونسدُّ بابًا من الشر لنفتح بابين أو أكثر، نعالج مشكلة الاقتصاد على حساب مشكلة الأخلاق، ونهتم بالرقيّ المادي على حساب الرقيِّ الروحي، نعمل للتحرر من الكتلة الغربيَّة فنقع فريسة للكتلة الشرقية، نحاول اللحاق بالغرب، فنأخذ منه ما ينفع وما يضر، وما يُحبُّ وما يُكرَه، وما يُحمد وما يُعاب، ولم نفرِّق بين ما يصلح لنا وما لا يصلح، وما ينبغي وما لا ينبغي، ناسين أنَّ الغرب نفسه يشكو آلامًا داخلية قاسية، تكاد تزهق روحه، ويعاني مشكلات إنسانيَّة تكاد تدمِّر عليه حضارته وتأتي عليها من القواعد. إنَّنا فيما ندَّعيه من نهضتنا

QaradawiBooks.com

وإصلاحنا أشبه بالذي يتداوى من داء بداء، أو بالذي يقضي الديون القديمة بديون جديدة، وقديمًا قال الشاعر:

إذا ما قضيتَ الدَّيْن بالدَّيْنِ لم يَكُنْ قَضَاءً ولكنْ كان غُرْمًا على غُرْمِ[1]

وقال آخر:

إِذَا اسْتَشْفَيْتَ مِنْ دَاءٍ بِدَاءٍ فأَقْتَلُ مَا أَعَلَّكَ مَا شَفَاكَا[2]

قال صاحبي: وما العلاج إذنْ وهذه حالنا؟

قلت: العلاج يا صاحبي أنْ نهتدي إلى حقيقة أنفسنا، أنْ نحدِّد شخصيتنا، ونعرف من نحن في هذا الوجود، ما رسالتنا؟ وماذا نريد أنْ نكون؟ فإنْ أردنا أنْ نكون مسلمين عاملنا النَّاس على هذا الأساس، وطلبنا الدواء لدائنا من طبِّ الإسلام وعلاجه، وإنْ لم نرد أنْ نكون مسلمين، أعلنَّا ذلك في صراحة، وحدَّدنا موقفنا من أنفسنا ومن غيرنا على هذا الأساس أيضًا.

قال صاحبي: وهل نملك إلَّا أنْ نكون مسلمين؟ إنَّ الإسلام هو ديننا ولا شك، ولقد ولدنا مسلمين، وعشنا مسلمين، وسنحيا مسلمين، ونموت مسلمين، ﴿ **وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ** ﴾ [آل عمران: ٨٥].

قلت: إنَّ مصيبتنا أنَّنا نزعم الإسلام دينًا لنا كأفراد، ودينًا رسميًّا لبعض دولنا تنصُّ عليه دساتيرها، ومع هذا لا نريد أن نكون مسلمين.

---

(١) من شعر ثعلبة بن عُمَيْر الحنفي، كما في ربيع الأبرار ونصوص الأخيار للزمخشري (٣٢٥/٤)، نشر مؤسسة الأعلمي، بيروت، ط١، ١٤١٢هـ.

(٢) هو المتنبي، كما في ديوانه صـ ٥٦٧، نشر دار بيروت للطباعة والنشر، ١٩٨٣م.

QaradawiBooks.com

إنَّنا مسلمون بأسمائنا، بشهادات ميلادنا، وبعض الشعائر الَّتي تربط بعضنا بدينه، نحن مسلمون «رسميون» أو «جغرافيون» بحكم وجودنا في أرض الإسلام، ولكنَّ الواقع أنَّ حياتنا ليست إسلاميَّة، بل هي خليط غير متجانس من الإسلام والمادِّيَّة والوثنيَّة، والتبعيَّة الفكريَّة والروحيَّة.

قال صاحبي: وماذا يطلب منَّا لكي نكون مسلمين حقًّا؟

قلت: إذا عرفنا ما هو الإسلام عرفنا ماذا ينقصنا لنكون مسلمين.

الإسلام ـ إن كان لا بدَّ من تقسيم تعاليمه ـ شعب أربع:

١ ـ شعبة العقائد: من إيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر.

٢ ـ شعبة العبادات: من صلاة وزكاة وحج وتلاوة ودعاء واستغفار.

٣ ـ شعبة الأخلاق والقيم: من العفاف والإحصان، والعدل والإحسان، والبر والرحمة، والصدق والأمانة، والحياء والوفاء، والشجاعة والسخاء، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتعاون على البر والتقوى، والتواصي بالحقِّ والصبر، وإيتاء المال على حبِّه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل، والصبر في البأساء والضراء وحين البأس، إلى آخر ما أفاض فيه الكتاب والسُّنَّة، من أخلاق الإسلام، وشعب الإيمان، ومقامات الإحسان.

٤ ـ شعبة النظم والشرائع: الَّتي قام عليها الفقه الإسلامي، وفصَّل العلائق القانونية بين النَّاس بعضهم وبعض أفرادًا وأسرًا وجماعاتٍ ودولًا.

فخبِّرني ـ بربك ـ هل راعينا تعاليم الإسلام في هذه الشعب الأربع، ونفَّذناها وأقمنا عليها حياتنا؟

QaradawiBooks.com

قال صاحبي: نحن نأخذ منها وندع.

قلت: إنَّ الَّذي ندعه ونتركه أضعـــاف الَّذي نأخذه ونعمل به، وكثيرًا ما نأخذ القشور وندع اللباب، وما نأخذ الصورة وندع الحقيقة، ولعمري ماذا يبقى لنا من إسلامنا إذا كنَّا نستورد الأفكار والقيم، ونستورد الآداب والتقاليد، ونســتورد الأنظمة والقوانين، لتحل محــل أفكارنا وعقائدنا وآدابنا ونظمنا؟

قال صاحبي: ولكنَّنا نسمع دائمًا أنَّ الإسلام بخير.

قلت: نعم هو بخير في نفوس جماهير المسلمين وأكثريتهم الساحقة؛ لأنَّه جزء أصيل من كيانهم العقلي والنفسي والحضاري، وهم يوقنون أن لا قيام لهم بدونه، ولا عزَّة لهم بغيره، ولا سعادة في الدنيا والآخرة إلَّا بالاستمساك بعروته الوثقى، وتعاليمه المثلى.

قال صاحبي: فكيــف إذنْ انصرفوا عنه، واتَّخــذوه مهجورًا، ونبذوه وراء ظهورهم كأنَّهم لا يعلمون؟

قلت: الحق أنَّ الإسلام نُحِّي عن حياة أهله قسرًا، وعُزل عن توجيه مجتمعهم كرهًا، بلا إرادة ولا اختيار منهم، وإنَّما فرض ذلك عليهم عدوٌّ دخيل ماكر خبيث.

قال صاحبي: ولكن هذا العدو والمســتعمر اللئيــم قد حمل عصاه ورحل عن ديار الإسلام.

قلت: إنَّما رحلت جيوشــه وعســاكره، أما آثــاره ومخلَّفاته الفكريَّة والنفسيَّة والتشــريعيَّة والاجتماعيَّة، فلا زالت قائمة سامقة تتحدَّى دين المســلمين وشــريعتهم، ولا زال ربائبه وتلاميذه الَّذين رضعوا من لبان

QaradawiBooks.com

ثقافته، وغُذُّوا من موائد فكره، وربُّوا في أحضان مدارسه، وتحت سلطان دعاته ومبشريه لا زالوا منتشرين في ديارنا، بل هم القابضون على أزِمَّة التوجيه والقيادة الفكريَّة والسياسيَّة والإداريَّة حتَّى لم يعد يُستفتى الدين إلَّا في مسائل الوضوء والصلاة، أو قضايا الرضاع والطلاق ونحوها. أما سياسة الحكم، ونظام الاقتصاد والاجتماع، ومناهج التربية والتثقيف، وشؤون الدستور والقوانين، فليس للإسلام أنْ يفتي فيها، إلَّا أن يؤيِّد ويبارك ويدعو للمسؤولين بالنصر المبين. وأكثر من ذلك أنَّ الأفكار المادِّيَّة المستورَدة تعمل جاهدةً لتطارد عقيدة «لا إلٰه إلَّا الله» من ضمائر المسلمين، وتطارد آثارها في حياتهم.

قال صاحبي: وما الطريق؟

قلت: العمل الدائب بتجرُّد وإخلاص للعودة بالمسلمين إلى الصحيح، الإسلام كله: عقيدة وشريعة، وأخلاقًا وحضارة كاملة متميزة.

ذلك هو الطريق ولا طريق غيره.

* * *

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

الإسلام دعوة إلى العلم والتقدم

في العالم الإسلامي اليوم صيحات تتجاوب أصداؤها من المحيط إلى المحيط، تنادي بالعودة إلى الإسلام، الإسلام خالصًا من الشوائب، سالمًا من الزوائد، بعيدًا عن الغلوِّ والتقصير، تنادي هذه الصيحات بالإسلام وحده بلا شركة، والإسلام كله بلا تجزئة: عقيدةً روحها التوحيد، وعبادةً روحها الإخلاص، وأخلاقًا روحها الخير، وشريعةً روحها العدل، وحضارةً روحها التوازن.

ومن النَّاس من إذا سمع هذه الصيحات يغلي صدره غيظًا، ويتفجَّر قلبه حقدًا؛ لأنَّه يكره للإسلام أنْ يسود، ويكره لأمَّته أنْ تقود، ويكره لمجده أنْ يعود، فهو عدوٌّ للإسلام، ناقمٌ على أهله، لا يسرُّه أنْ تقوى أمته من ضعف، أو تنهض من عثرة، أو تجتمع من شتات.

وهذا الصنف لا حديث لنا الآن معه، فإنَّه لا يرضيه شيء إلَّا دمار الإسلام وأهله، وما أصدق ما قال معاوية: أستطيع أن أرضي كل النَّاس إلَّا الحاسد، فإنَّه لا يرضيه إلَّا زوال نعمتي[1].

(١) محاضرات الأدباء للراغب الأصفهاني (٣١٣/١)، نشر شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

وقال الشاعر:

كُلُّ العداواتِ قــد تُرجَى إِمَاطَتُها إِلَّا عداوةَ مَنْ عَادَاكَ مِنْ حَسَدِ[1]!

وصدق الله إذ قال فــي مثل هؤلاء: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٠٥].

وهناك صنف آخر، لا يحقــدون على الإســلام ولا يكرهون أهله، ولكنَّهم يخافون من عودة الإسلام، وكلَّما سمعوا التنادي بالرجوع إليه، توجَّســت صدورهم خيفة، بل ارتعدت فرائصهم رعبًا؛ لأنَّ رؤوســهم حملت عن الإســلام فكرةً خاطئــة، صنعها الجهــل، وضخَّمها الوهم، وزيَّنها الهوى، فكــرةً ورثوها عن عصور التخلــف، وعهود الانحطاط، صوَّرت لهم الإسلام جبريَّةً في العقيدة، وشكليَّةً في العبادة، وسلبيَّةً في الأخلاق، وجمودًا في الفكر، وركودًا في الحياة، فهو بهذا يعارض العلم، ويقعد عن العمــل، ويعوق التقدم، ويرفض الاجتهــاد، ويقتل الابتكار، ويخدِّر الشعوب!

الذين يحقدون على الإسلام:

يقول بعض هؤلاء بصريح العبارة: أتريدوننا أنْ نوقف عجلة «التطور» لنجمد في مكاننا؟ وأنْ نوقف قطار «التقدم» لنرجع القهقرى؟

أتريدوننا أنْ نعود إلى الســلبيَّة الَّتي تدع الأمــور تجري في أعنَّتِها، وتضع عبء كل انحراف أو فســاد على كاهل القدر؟ وتقضي على كل مقاومة للطغيان والطغاة تحت عنوان الرضا والصبر على البلاء؟ وتشيع

(١) لعبد الله بن المبارك، كما في العقد الفريد (١٧١/٢)، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٤هـ. وقد روى البيهقي في مناقب الشــافعي (٧٤/٢) أنَّه من إنشاده، تحقيق السيد أحمد صقر، نشر مكتبة دار التراث، القاهرة، ط١، ١٣٩٠هـ ـ ١٩٧٠م.

QaradawiBooks.com

في النَّاس عبارات منومة مخدرة مثل: دع الملك للمالك، واترك الخلق للخالق! أو: الله أقام العباد فيما أراد؟!

أتريدون أنْ تعودوا بنا إلى عصور ترى السلاطين ظلَّ الله في الأرض، إنْ أحسنوا فلهم منَّا الشكر، وإنْ أساؤوا فعلينا الصبر، وليس من حقِّنا أنْ نقول لهم: «لِمَ» أو «لا».

أتريدوننا ونحن في بداية القرن الحادي والعشرين أنْ نتراجع إلى القرن السابع من الميلاد؟

وبعبارة أخرى: أتريدوننا أنْ نعودَ إلى الوراء أربعة عشر قرنًا من الزمان؟!

أتريدوننا أنْ ندع عصر الذرَّة، و«الكمبيوتر» وغزو الفضاء والصعود إلى القمر لنرجع إلى عصر الجمل سفينة الصحراء؟!

لا اتهام بغير برهان:

والعجيب أنْ يقول هذا الكلام قوم يلبسون رداء «العلمية»، ويُزهَون به، ومع هذا يسمحون لأنفسهم أنْ يستخدموا الأساليب «الخطابيَّة» أو «الإنشائيَّة» في مقامات لا تغني فيها دعوى بلا بيِّنة، ولا اتِّهام بغير برهان. إنَّ القضايا الكبيرة لا يفيد فيها إلَّا القواطع، ولا تغني فيها الظنون فإنَّ الظنَّ لا يغني من الحقِّ شيئًا.

وممَّا لا يجهله عاقل أنَّ الزمان ـ كالمكان ـ وعاءٌ للأحداث، أي لعمل الإنسان فيه، خيرًا كان أم شرًّا، صوابًا أم خطأ، فالزمان في ذاته لا يوصف بخيريَّة ولا شرِّيَّة إلَّا من باب المجاز، كما يقول علماء البلاغة، حين يذكر المحل ويراد الحالُّ فيه.

QaradawiBooks.com

ومن هنا ينبغي ألَّا يكون اهتمامنا بالمفاضلة بين زمانٍ ماضٍ وزمانٍ حاضر، أو مستقبل، إنَّما يكون تركيزنا على ماذا كان في الماضي، وما هو كائن في اليوم، وماذا عسى أنْ يكون في الغد.

وأحبُّ أنْ أؤكد هنا حقيقة هي أوضح من الشمس في رابعة النهار، وهي أنَّ الإسلام ليس ماضيًا، كماضي الفراعنة في مصر، أو الفينيقيِّين في سوريا، أو البابليين في العراق، إنَّ الإسلام هو الماضي، وهو الحاضر، وهو المستقبل، إنَّه كلمة الله الباقية، ومنهجه الخالد، ونوره المتجدِّد للبشر، إنَّه نور كنور الشمس، يظهر كل يوم جديدًا، ولكنَّه يضرب في القدم إلى غور بعيد.

أما مفهوم المسلمين لهذا الإسلام القديم الجديد، وتطبيقاتهم له خلال القرون فنحن نأخذ منها وندع، وَفقًا للمعايير الموضوعيَّة الَّتي هدانا إليها كتاب الله وسُنَّة رسوله، فنحن ننتقي من هذا التراث العريض الرحيب أفضل ما فيه، ونقتبس منه ما ينفعنا في ترشيد مسيرتنا، وندع منه ما نرى أنَّه أخطأ الحق، أو جار عن الصِّراط، إذ لسنا ملزمين باتِّباع أحدٍ غير رسول الله ﷺ الَّذي ضمن الله له العصمة فيما يبلِّغ عنه، وكل واحد بعد ذلك يُؤْخذ منه ويُرَد عليه، كائنًا من كان.

الذين يتلمسون للبرآء العيب:

ومن هنا لا يجوز لعاقل منصف أنْ يبحث في تراثنا عن أسوأ ما فيه ثمَّ يقول: أتريدوننا أنْ نرجع إلى هذا؟

قال لي بعضهم يومًا: أتريدوننا أنْ نعود إلى عهد الأمير الَّذي قال: من قال لي: اتَّق الله، ضربت عنقه؟!

QaradawiBooks.com

قلت: بل إلى عهد الخليفة الَّــذي قال: لا خير فيكم إذا لم تقولوها، ولا خير فينا إذا لم نسمعها!

ندعو إلى عهد عمر الَّذي قال علــى المنبر: رحم الله امرأً أهدى إليَّ عيوب نفسي. وقال على الملأ: من رأى منكم فيَّ اعوجاجًا فليقوِّمني[١].

وإلى عهد الخليفة الَّذي قال من قبله: إنْ أحسنت فأعينوني، وإنْ أسأت فقوِّموني، أطيعوني ما أطعت الله فيكم، فإنْ عصيته فلا طاعة لي عليكم[٢].

وقال آخر: أتريدوننــا أنْ نعود إلى عهد الحجاج الَّــذي هدَّد النَّاس بالســوط يلهب الظهور، وبالســيف يقطع الأعناق، حين قال في خطبته الشهيرة: والله، لأضربنَّكم ضرب غرائب الإبل... وإنِّي لأرى رؤوسًا قد أينعت وحان قطافها، وإنِّي لصاحبها[٣]!

قلت: ومَن مِن دعاة الحل الإســلامي يؤيد طغيان الحجاج أو يبارك عودة مثله، وهم لم يذوقوا الصاب والعلقم إلَّا من الطغاة والجبَّارين من «حجاجي» هذا العصر؟! وإن كان الحجَّاج أشــرف من هؤلاء خصومة، وأنبل سيرة بيقين!

ولماذا لا نقول: إنَّنا نريد العودة إلــى عهد عمر بن عبد العزيز الَّذي قال للناس عندما ولي الخلافة: إنَّمــا أنا واحد منكم، غير أنَّ الله جعلني أثقلكم حملًا[٤]!

(١) رواه ابن أبي شيبة في الزهد (٣٥٦٢٩).

(٢) ذكره ابن هشام في الســيرة (٦٦١/٢) تحقيق مصطفى الســقا وآخرين، نشر مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط٢، ١٣٧٥هـ ـ ١٩٥٥م، وابن كثير في البداية والنهاية (٨٩/٨، ٩٠)، وصحَّح إسناده، عن أنس.

(٣) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (١٣٤/١٢).

(٤) رواه أبو نعيم في الحلية (٢٩٥/٥، ٢٩٦).

QaradawiBooks.com

والواقع أنَّنا وجدنا من دعاة «العِلمانيَّة»، و«التقدميَّة» من نصب نفسه محاميًا عن جبروت الحجاج، وصبَّ جام سخطه على عمر بن عبد العزيز، الَّذي اعتبره أئمة الإسلام خامس الراشدين!

الحل الإسلامي... ندعو إلى حوار علمي:

إنَّنا ندعو هؤلاء المرتابين في الحل الإسلامي، المتوجِّسين خيفةً من العودة إلى الإسلام، ندعوهم إلى حوارٍ علميٍّ هادفٍ هادئ، حوار بيننا وبينهم، أعني أنَّه حوار بين طرفين لكلٍّ منهما حقَّه في التعبير عن نفسه، والدفاع عن وجهة نظره، وليس حوارًا من طرف واحد، كالذي دعا إليه بعضهم على صفحات إحدى الصحف الكبرى، في بعض البلدان العربيَّة، حول تطبيق الشريعة الإسلاميَّة، فصالوا وجالوا كما يشاؤون، دون أن يؤذن للأقلام المعارضة أن تكتب، إلَّا في إطار محدود، ولنوع معيَّن من الناس، فليت شعري ما قيمة مبارزة لا يسمح فيها للخصم بالنزول إلى الميدان؟ وما معنى سباق يعدو فيه جواد واحد؟!

لن نصنع كما صنعوا، بل نناديهم بملء أفواهنا: أن تعالوا إلى كلمةٍ سواءٍ بيننا وبينكم، تعالوا نبحث بحثًا موضوعيًّا منصفًا، بعيدًا عن التعصُّب للقديم أو التعبُّد للجديد.

تعالوا نحلل مضمون الدعوة إلى الإسلام: ما هو؟ وما فحواه؟ أهو عودة بالإنسانيَّة إلى الوراء؟ أم انطلاقة بها إلى الأمام؟ أهو دعوة إلى الجهل والتخلف أم دعوة إلى العلم والتقدم؟

إنَّ كلَّ من عرف الإسلام عرف أنَّه دين العلم والحضارة، وكل من قرأ القرآن أيقن أنَّه خطاب: ﴿لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ١٩٠]، وآيات: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النحل: ١٢]، وهدى: ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرعد: ٣]، وأنَّ

QaradawiBooks.com

المؤمنين هم «أولو النُّهى» و«العلم»، والكفار به قوم ﴿لَّا يَفۡقَهُونَ﴾ [الأنفال: ٦٥]، و﴿لَا يَعۡقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠]، ﴿إِنۡ هُمۡ إِلَّا كَٱلۡأَنۡعَٰمِۖ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤].

ليس في العالم دين كالإسلام أودع الله فيه من السَّعة والمرونة، وأسباب القوة، وعناصر الخلود، ما تصلح به الحياة، ويرقى بهدايته الإنسان في كل زمان ومكان، على الرغم من تطوُّر المجتمعات، وتقلُّب الأحداث، وتغيُّر المعارف والأفكار.

ذلك أنَّ الَّذي شرع هذا الدين هو خالق هذا الإنسان، فمن المحال أنْ يشرع هذا الخالق من الدين ما يعوق الإنسان عن الحركة والتحرُّر والترقِّي، إلَّا أنْ يكون هذا الخالق على غير علم بما يسود هذا الكون من قوانين، وما يحكم فطرة هذا الإنسان من سنن، أو يكون على علم بذلك، ولكنَّه لا يريد للإنسان الرقي والتقدُّم والخير. وتعالى الله: ﴿ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [يوسف: ٨٣، ١٠٠]، ﴿ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الطور: ٢٨]، عن هذا وذاك.

الدين الحق ليس ضدَّ التطوُّر:

إنَّ الدين الحق لا يمكن أنْ يقف ضدَّ التطوُّر النافع، وإذا كان التاريخ قد سجَّل على بعض الأديان ورجالها وقوفها في وجه هذا التطور؛ فذلك لأنَّها لم تعُدْ دين الله الحق، بل حُرِّفت وبُدِّلت، وفقدت أصالتها وسموَّها، وكانت أديانًا موقوتة، فلم يتكفَّل الله بحفظها.

وأبرز مثل لذلك: المسيحيَّة في الغرب، فقد وقفت الكنيسة هناك تؤيِّد الجهل ضدَّ العلم، والخرافة ضدَّ الفكر، والملك ضدَّ الشعب، والقوي ضدَّ الضعيف، فلمَّا أدرك الغربَ قبسٌ من النور، جاء في الأصل

QaradawiBooks.com

من الشرق المسلم؛ تمرَّدت عليها الجماهير الثائرة على الظلم والظلام، وحكمت على رجال الكهنوت، حكمها على رجال الظلم والجبروت فقالوا: اشنقوا آخر ملك بأمعاء آخر قسيس!

أما الإسلام فقد شاء الله أنْ يكون هو الرسالة العامَّة الخالدة للإنسانيَّة كلها بعد أن بلغت أشدَّها، واستحقَّت أنْ ينزِّل عليها هذه الرسالة، فلا عجب أنْ قامت منذ أوَّل يوم على احترام العقل والفكر، والإنكار على التقليد والجمود، والدعوة إلى العلم والحكمة، والاحتكام إلى البرهان والحُجَّة، والإشادة بفضل العلم وأهله، والرجوع إلى ذوي المعرفة والخبرة، والترغيب في العمل والحركة، والترهيب من القعود والبطالة.

ولا عجب أنْ نجد كتاب الإسلام الخالد ـ القرآن الكريم ـ يحدِّثنا ـ في قصة أبي البشر ـ عن العلم باعتباره المؤهِّل الأوَّل للخلافة في الأرض، وبه تفوَّق آدم على الملائكة.

ويحدِّثنا في قصة نوح عن صناعة السفن، وفي قصة داود عن إلانة الحديد وصناعة الدروع، وفي قصة سليمان عن صناعة الجنِّ له ما يشاء.

ويحدِّثنا عن التخطيط الاقتصادي ـ لمدة أربع عشرة سنة ـ في قصة يوسف.

كما يحدِّثنا في قصة ذي القرنين عن صناعة السدود الضخمة، ويحدِّثنا عن منافع الحديد العسكريَّة والمدنيَّة في سورة خاصة تحمل اسم «الحديد».

QaradawiBooks.com

كما نجد رسول الإسلام يقرُّ نتائج الملاحظة والتجربة في شؤون الحياة، وإنْ خالفت رأيه الشخصي، كما في مسألة تأبير النخل، وهي الَّتي قال فيها: «**أنتم أعلم بأمر دنياكم**»[١].

ونجده لذلك يستخدم الإحصاء لمعرفة القوة البشرية المسلمة معه معرفةً دقيقةً قائمةً على التعداد لا على التقريب والتخمين، وهذا ما رواه البخاري ومسلم[٢].

ونجده يحارب الأمِّيَّة ـ وهو النبيُّ الأمِّيُّ ـ حتَّى إنَّه ليفدي الأسير المشرك الكاتب إذا علَّم عشرةً من أبناء المسلمين الكتابة.

ونجده يحارب الخرافات ومروِّجيها فيعلن حربًا على السَّحَرة والكَهَنة والعرَّافين، وعلى من يصدِّقهم أو يسمع لهم، ويتداوى ويأمر بالتداوي قائلًا: «**تداووا يا عباد الله؛ فإنَّ الله ما أنزل داءً إلَّا أنزل له شفاء**»[٣].

ونجده يقاوم الجبريَّة والسلبيَّة في مواجهة الأمور، داعيًا إلى العمل الحذر، واتِّخاذ الأسباب: «**اعقلها وتوكل**»[٤]، ولمَّا سئل عن الأسباب: هل تردُّ من قدر الله شيئًا؟ قال: «**هي من قدر الله**»[٥].

---

(١) سبق تخريجه صـ٧٧.

(٢) إشارة إلى حديث حذيفة بن اليمان ﷺ مرفوعًا: «اكتبوا لي من يلفظ بالإسلام من الناس». قال حذيفة: فكتبنا له ألفًا وخمسمائة رجل. متَّفق عليه: رواه البخاري في الجهاد والسير (٣٠٦٠)، ومسلم في الإيمان (١٤٩).

(٣) رواه أحمد (١٨٤٥٤)، وقال مخرِّجوه: إسناده صحيح. وأبو داود (٣٨٥٥)، والترمذي (٢٠٣٨)، وقال: حسن صحيح. وابن ماجه (٣٤٣٦)، ثلاثتهم في الطب، عن أسامة بن شريك.

(٤) رواه الترمذي في صفة القيامة (٢٥١٧)، وقال: حديث غريب. وأبو نعيم في حلية الأولياء (٣٩٠/٨)، وحسَّنه الألباني في تخريج مشكلة الفقر (٢٢)، عن أنس.

(٥) رواه أحمد (١٥٤٧٢)، وقال مخرِّجوه: إسناده ضعيف على خطأ فيه. والترمذي (٢٠٦٥)، وقال: حسن. وابن ماجه (٣٤٣٧)، كلاهما في الطب، وحسَّنه الألباني في تخريج مشكلة الفقر (١١)، عن أبي خزامة.

QaradawiBooks.com

فلا عجب أنْ قامت في ظل هذا الدين دول مترامية الأطراف ورثت أعظم إمبراطوريتين في الأرض، أسَّسها أصحاب رسول الله ﷺ على أمتن الأسس وأقوى الدعائم، الجامعة بين الدين والدنيا، وترعرعت تحت سلطانه حضارة شامخة البنيان، عالية الأركان، استفادت من تراث السابقين، وهذَّبت منه، وحسَّنت فيه، وأضافت إليه من جهدها وابتكارها، ولم تجد في الدين ما يعوق سيرها، أو يؤخِّر تقدُّمها، بل وجدت فيه الدافع الَّذي يحفزها أن تضاعف السعيَ والحركة، والضمان الَّذي يمسكها أنْ تضل أو تنحرف عن الطريق، ولا غرو أنْ قال الفيلسوف المؤرخ الفرنسي جوستاف لوبون: إنَّ العرب هم أوَّل من علَّم العالم كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدين!

ترى هل نحن ـ بعد ذلك ـ في حاجة إلى أنْ نسأل: ما موقف الإسلام من الحضارة أو التطور؟ أو العلم والتقدم؟

* * *

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

كافِحُوا الأُمِّيَّة

إنَّ من المحزن المؤسف أنْ تكون نسبة «الأمِّيَّة» في بلاد المسلمين تقارب الثمانين بالمائة (٨٠٪)، وأنْ يوضع العالم الإسلامي كله في دائرة البلاد النامية، وهو تعبير مهذَّب عن البلاد المتخلِّفة! أو ما يسمُّونه: «العالم الثالث»، بل هناك بعض الأقطار ربما تهبط لتكون وحدها «عالمًا رابعًا»!

وإنَّ من أكبر العار على المسلمين أنْ يظلوا على حالهم تلك من الأمِّيَّة والتخلُّف، ودينهم أعظم حافز على التعلم والتقدم، وهو يهيِّئ لهم من الأسباب المادِّيَّة والاجتماعيَّة، ومن المناخ العقليِّ والنفسيِّ ما يخرجهم من الجهل إلى العلم، ومن البداوة إلى الحضارة، ومن الظلمات إلى النور.

لقد كان الإسلام ـ فيما نعلم ـ أوَّل دين أعلن الحرب على الجهل والأمِّيَّة، ودعا إلى التعلم، ورفع مكانة العلم وأهله.

وحسبنا أنَّ الرسول ﷺ قال: «**طلب العلم فريضة على كل مسلم**»[(١)].

(١) رواه ابن ماجه في المقدمة (٢٢٤)، وأبو يعلى (٢٨٣٧)، والطبراني في الأوسط (٩)، وصحَّحه الألباني في صحيح ابن ماجه (١٨٣)، وقال المناوي في فيض القدير (٥٢٦٥): قال ابن عبد البر: طرقه كلها معلولة. وقال النووي: ضعيف وإن كان معناه صحيحًا. وقال السيوطي: =

QaradawiBooks.com

وحسبنا أنَّ أوَّل آيات نزلت من القرآن على قلب النبي الكريم كانت إشادة بفضل القراءة والقلم، والعلم والتعليم بالقلم: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۞ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۞ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۞ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۞ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ [العلق: ١ ـ ٥].

وكانت السورة الثانية في تاريخ نزول القرآن هي سورة «القلم»، وإنَّما سمِّيت بذلك؛ لأنَّ الله أقسم فيها بالقلم وما يسطره به الكاتبون من علم وحكمة، قال تعالى: ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾ [القلم: ١]. وأول ما يُسطر به هو القرآن الكريم الَّذي سمَّاه الله: «الكتاب» إيماءً إلى هذا المعنى.

وقد جرت سنَّة الله في القرآن: أنَّه يقسم بالشيء، تنبيهًا على عظيم منفعته، ولفتًا لأنظار الخلق إليه، وأي شيء أعظم نفعًا من «القلم» مذيع العلم ومثبته، وناقله إلى الأجيال، وهل المطبعة في عصرنا إلَّا «قلم تطور»، فإذا هو يملأ الدنيا علومًا ومعارفَ، وثقافةً وحضارةً؟

إنَّ تمجيد القلم في القرآن وإقسام الله به حثٌّ للمسلمين على أنْ يحسنوا الكتابة به، وبخاصَّة أنَّ الإسلام يأمر المسلم بالكتابة في عدة أمور:

منها: كتابة الدَّين: ﴿إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

ومنها: كتابة الوصية كما في الحديث: «**حقٌّ على كل امرئ مسلم لا يبيت إلَّا ووصيته مكتوبة عنده**»، كما جاء في حديث البخاري وغيره[1].

= جمعت له خمسين طريقًا، وحكمت بصحته لغيره، ولم أصحِّح حديثًا لم أسبق لتصحيحه سواه. وقال السخاوي: له شاهد عند ابن أبي شاهين، بسند رجاله ثقات، ورواه نحو عشرين تابعيًا». عن أنس.

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في الوصايا (٢٧٣٨)، ومسلم في الوصية (١٦٢٧)، عن ابن عمر.

QaradawiBooks.com

كما روي عن النبي ﷺ: «**حق الولد على الوالد أنْ يعلِّمه الكتابة والسباحة والرمي**»[١].

ومن عجب أنَّ النبيَّ الأمِّيَّ الَّذي لم يكن يتلو من كتاب، ولا يخطه بيمينه حتَّى لا يرتاب المبطلون، لم يقتصر على الحثِّ النظري والترغيب في تعلم القراءة والكتابة، بل جاهد عليه السلام أن يدبِّر الوسائل العملية لنشر التعليم، ومحاربة الأمِّيَّة ما وجد إلى ذلك سبيلًا.

ومن هذه الوسائل الرائعة: انتهازه فرصة وقوع عدد من أسرى قريش المشتركين في غزوة بدر في أيدي المسلمين، وكانوا يُحسنون الكتابة، ولا يملكون مالًا ليفدوا أنفسهم، فاشترط النبي ﷺ لفدائهم أن يُعلِّم كلٌّ منهم عشرةً من أولاد المسلمين الكتابة.

روى الإمام أحمد في «مسنده» عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: كان ناس من الأسرى لم يكن لهم مال، فجعل رسول الله ﷺ فداءهم أنْ يعلِّموا أولاد الأنصار الكتابة[٢]. فكان هذا أوَّل مشروع ينظمه رئيس الدولة لإعلان الحرب على الأمِّيَّة في تاريخ هذه الأمَّة، بل لعله في تاريخ البشريَّة كلها، وكان من الَّذين استفادوا من هذا المشروع من أبناء الأنصار: الفتى العبقري زيد بن ثابت، كاتب الوحي، وجامع القرآن بعد ذلك، والَّذي كلَّفه الرسول الكريم تعلُّم لغة «يهود» حتَّى يقرأ له رسائلهم إليه ﷺ، ويكتب له رسائله إليهم.

(١) رواه البيهقي في السبق والرمي (٢٦/١٠)، وضعَّفه، عن أبي رافع مولى النبي ﷺ.

(٢) رواه أحمد (٢٢١٦)، وقال مخرِّجوه: حسن. وقال شاكر: إسناده صحيح. والحاكم في قسم الفيء (١٤٠/٢)، وصحَّح إسناده، ووافقه الذهبي، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦٤٥١): رواه أحمد عن علي بن عاصم وهو كثير الغلط والخطأ، وقد وثقه أحمد.

QaradawiBooks.com

وحين انتشر العلم في أوساط المسلمين، اتَّجه الرسول ﷺ إلى فرض التكافل بين المسلمين في هذا الجانب، كما فرضه في الجانب المادي المعيشي، فالعالِم عليه أنْ يعلِّم الجاهل، والقارئ عليه أنْ ينوِّر الأمِّيَّ ويأخذ بيده.

روى الطبراني في «الكبير»، عن بكير بن معروف، عن علقمة بن سعيد بن عبد الرحمٰن بن أبزى، عن أبيه، عن جدِّه، قال: خطب رسول الله ﷺ ذات يوم فأثنى على طوائف من المسلمين خيرًا، ثمَّ قال: «**ما بال أقوام لا يفقِّهون جيرانهم ولا يعلِّمونهم ولا يعظونهم ولا يأمرونهم ولا ينهونهم؟ وما بال أقوامٍ لا يتعلَّمون من جيرانهم ولا يتفقَّهون ولا يتَّعظون؟ والله، ليُعلِّمنَّ قوم جيرانهم ويفقِّهونهم ويعظونهم ويأمرونهم وينهونهم، وليتعلَّمنَّ قوم من جيرانهم ويتفقَّهون ويتَّعظون أو لأعاجلنَّهم العقوبة**».

ثم نزل رسول الله ﷺ فقال قوم: من ترونه عني بهؤلاء؟ قال: «**الأشعريِّين هم قوم فقهاء، ولهم جيران جفاة من أهل المياه والأعراب**». فبلغ ذلك الأشعريِّين فأتوا رسول الله ﷺ، فقالوا: يا رسول الله، ذكرت قومًا بخير، وذكرتنا بشر، فما بالنا؟ فقال: «**ليعلمنَّ قوم جيرانهم وليعظنهم وليأمرنهم ولينهونهم، وليتعلمن قوم من جيرانهم ويتعظون ويتفقَّهون، أو لأعاجلنهم العقوبة في الدنيا**». فقالوا: يا رسول الله أنفطن غيرنا؟ فأعاد قوله عليهم، فأعادوا قولهم: أنفطن غيرنا؟ فقال ذلك أيضًا، فقالوا: أمهلنا سنة. فأمهلهم سنة ليفقِّهوهم ويعلِّموهم ويفطِّنوهم، ثمَّ قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ

QaradawiBooks.com

وَكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ۝ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾[1] [المائدة: ٧٨، ٧٩].

ويعلِّق الدكتور الشيخ مصطفى السباعي رَحِمَهُ اللَّهُ على هذا الحديث فيقول: وإنَّك لترى في هذا الحديث من الحقائق ما يجدر التنبيه إليها:

١ ـ فالرسول عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يقرَّ قومًا على الجهالة بجانب قوم متعلِّمين.

٢ ـ واعتبر بقاء الجاهلين على جهلهم، وامتناع المتعلِّمين عن تعليمهم عصيانًا لأوامر الله وشريعته.

٣ ـ واعتبر ذلك أيضًا «عدوانًا» و«منكرًا» يوجبان اللعنة والعذاب.

٤ ـ أعلن الحرب والعقوبة على الفريقين حتَّى يبادروا إلى التعلم والتعليم.

٥ ـ وأعطاهم لذلك مهلة عام واحد للقضاء على آثار الجهالة فيما بينهم.

٦ ـ ولئن كانت الحادثة قد وردت بشأن الأشعريِّين العلماء وجيرانهم الجهلاء، فإنَّ الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعلن ذلك المبدأ بصفة عامة، لا بخصوص الأشعريِّين وحدهم، بدليل أنَّ الأشعريِّين لما جاؤوا يسألونه عن سرِّ تخصيصهم بهذا الإنكار كما فهم الناس، لم يقل لهم: أنتم المرادون بذلك، بل أعاد القول العام الَّذي سلف ثلاث مرات دون أنْ يُخصِّصه

(١) رواه أبو نعيم في معرفة الصحابة (١١١٨) من طريق الطبراني، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧٤٨): رواه الطبراني في الكبير، وفيه بكير بن معروف، قال البخاري: ارم به. ووثقه أحمد في رواية، وضعفه في أخرى. وقال ابن عدي: أرجو أنَّه لا بأس به. وضعفه الألباني في ضعيف الترغيب والترهيب (٩٧).

QaradawiBooks.com

بالأشـــعريِّين إشـــعارًا بأنَّ القضيَّة قضيَّةُ مبدأ عام غيـــر مخصوص بفئة ولا عصر معيَّن.

وبذلك يكون الرســـول ﷺ قد أعلـــن مكافحة الأمِّيَّة قبـــل أنْ تعلنه الدول المتحضِّرة في عصرنا هذا بأربعة عشـــر قرنًا، وإنَّ هذا لعجيب أنْ يصدر من نبيٍّ أمِّيٍّ في بيئة أمِّيَّة لولا أنَّه رسول الله ﷺ.

* * *

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

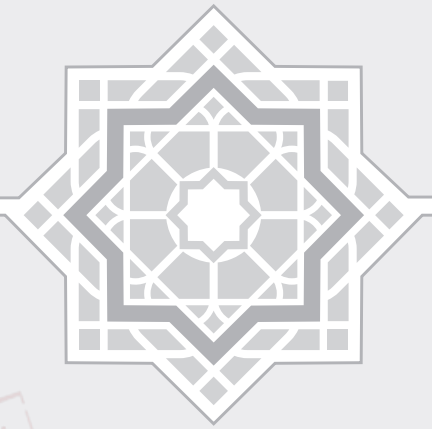

الفهارس العامة

- فهـرس الآيات القرآنيـة الكريمة.
- فهرس الأحاديث النبوية الشـريفة.
- فهرس الموضوعات.

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

فهرس الآيات القرآنية الكريمة

الآيـــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة البقرة		
﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾	٣٠	٨٧، ٨٩
﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ﴾	١٠٥	٢٠٦
﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾	١١٥	٨٨
﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾	١٢٧	١٠
﴿قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾	١٤٠	٥٤
﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾	١٤٣	٤، ٣١، ١١٩، ١٦٩، ١٧٠
﴿لَا يَعْقِلُونَ﴾	١٧٠	٢١١
﴿حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ﴾	١٧٣	٨١
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِي ٱلْقَتْلَى﴾	١٧٨	٩٤
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾	١٨٣	٩٤
﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾	١٨٦	٨٨
﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾	٢١٣	٩٢

QaradawiBooks.com

الآيـــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾	٢٧٨، ٢٧٩	٩٤
﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾	٢٨١	٩٤
﴿إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ﴾	٢٨٢	٢١٦
سورة آل عمران		
﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾	١٦، ١٧	١٠٤
﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾	٦٨	١١٥
﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾	٨٥	١٠٧، ٢٠١
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾	١٠٠	١١٩
﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾	١٠٤	٢٦
﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾	١١٠	٤، ٣١، ١١٩، ١٧٠
﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾	١٣٩ ـ ١٤١	١٦٦
﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ﴾	١٤٢	١٦٧
﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا﴾	١٦٥	١٩٦
﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾	١٧٩	١٦٤
﴿لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾	١٩٠	٢١٠
سورة النساء		
﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾	١١	٨١
﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾	٥٩	٩٥
﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾	٦٥	٤٢، ٩٣

QaradawiBooks.com

الآيـــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعٗا ﴾	٧١	١٩٦
﴿ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ تَغۡفُلُونَ عَنۡ أَسۡلِحَتِكُمۡ وَأَمۡتِعَتِكُمۡ ﴾	١٠٢	١٩٦
﴿ إِن تَكُونُواْ تَأۡلَمُونَ فَإِنَّهُمۡ يَأۡلَمُونَ كَمَا تَأۡلَمُونَۖ ﴾	١٠٤	١٦٦
﴿ وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ ﴾	١٢٤	٢٣
﴿ وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلٗا ﴾	١٤١	١٩٣
سورة المائدة		
﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰ ﴾	٢	٢٦
﴿ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ ﴾	٥	٦٠
﴿ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ ﴾	٢٨	٧٥
﴿ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾	٤٤	٩٥
﴿ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾	٤٥	٩٥
﴿ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾	٤٧	٩٦
﴿ وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ ﴾	٤٩	٩٥
﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ ﴾	٧٨، ٧٩	٢١٨
﴿ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ ﴾	٩٠	٨٢، ٩٤
سورة الأنعام		
﴿ فَإِن يَكۡفُرۡ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا قَوۡمٗا لَّيۡسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴾	٨٩	١٧٣
﴿ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَفۡقَهُونَ ﴾	٩٨	٣٥
﴿ وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾	١١٦	١٤٩
﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ ﴾	١٥٣	٤٤

الآيـــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة الأعراف		
﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾	٢٣	٧٥
﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟﴾	١٣٧	١٥٨
﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾	١٥٩	٢٥
﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾	١٧٩	٣٥
﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾	١٨١	٤، ٢٥، ١٧٢
سورة الأنفال		
﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾	٢ ـ ٤	١٩٤
﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾	١٩	١٩٣
﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾	٢٦	٩، ١٦٠
﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾	٤١	٤٧
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾	٤٥، ٤٦	١٩٦
﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾	٦٠	١٩٦
﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ۞ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾	٦٢، ٦٣	٢٦
﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾	٦٥	٣٥، ٢١١
سورة التوبة		
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾	٢٣	١١٣
﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ﴾	٢٤	١٢٩، ١٩٩
﴿إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾	٣٩	١٩٩
﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾	٤٠	١٥٩

QaradawiBooks.com

الآيـــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ ﴾	٤٧	١٦٣
﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾	٧١	١٩٤
﴿ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ ﴾	١١٤	١١٤
﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ ﴾	١٢٢	٣٥
سورة هود		
﴿ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾	١	٩٢
﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ ﴾	٤٥ ـ ٤٧	١١٣، ١١٤
سورة يوسف		
﴿ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾	٢٣	١٨٨
﴿ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾	٣٢	١٨٨
﴿ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ ﴾	٣٣	١٨٩
﴿ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾	٣٧ ـ ٤٠	١٨٩
﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾	٥٤ ـ ٥٦	١٩٠
﴿ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾	٨٣	٢١١
﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾	٩٢	١٩١
﴿ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ ﴾	١٠١	١٩١
سورة الرعد		
﴿ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾	٣	٢١٠
﴿ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾	١٧	١٤٩

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

الآيـــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة إبراهيم		
﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ ﴾	٤	٣٧
﴿ أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا كَلِمَةٗ طَيِّبَةٗ كَشَجَرَةٖ طَيِّبَةٍ ﴾	٢٤، ٢٥	١٠
﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ ﴾	٣٢ ـ ٣٤	٨٩
سورة النحل		
﴿ وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾	٨	٧٠
﴿لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴾	١٢	٢١٠
﴿ أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖۖ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ﴾	٢١	١٩٥
﴿ حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ ﴾	١١٥	٨١
﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ﴾	١٢٨	٤٢
سورة الإسراء		
﴿ مَّنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَا ﴾	١٥	٩٠
﴿ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي ﴾	٨٥	٨٦
سورة الكهف		
﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنٗا ﴾	١٠٥	١٨١
سورة مريم		
﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا ﴾	٤٥	١١٤
﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ ﴾	٤٦، ٤٧	١١٤
﴿ وَيَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوۡفَ أُخۡرَجُ حَيّٗا ﴾	٦٦، ٦٧	٨٨

QaradawiBooks.com

الآيـــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة طه		
﴿وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ۝ هَٰرُونَ أَخِي ۝ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ۝ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي﴾	٢٩ ـ ٣٥	٢٦
سورة الأنبياء		
﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗ﴾	٣٥	١٩٠
﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾	٩٢	٣١
سورة الحج		
﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ﴾	١١	١٦٢
﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾	٣٨	١٥٧، ١٩٣
﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾	٧٨	١١٥
سورة المؤمنون		
﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ﴾	١، ٢	١٩٤
﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ﴾	١٢ ـ ١٤	٨٤
﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ﴾	٥٢	٣١، ١١٩، ١٦٨
سورة النور		
﴿إِنَّمَا كَانَ قَوۡلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ﴾	٥١	٤٢، ١٩٤
﴿لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾	٥٥	١٥٦
سورة الفرقان		
﴿إِنۡ هُمۡ إِلَّا كَٱلۡأَنۡعَٰمِۖ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾	٤٤	٢١١
﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمۡ سُجَّدٗا وَقِيَٰمٗا﴾	٦٤ ـ ٦٦	١٠٥

غير مرخصة للطباعة

الآيـــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة الشعراء		
﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾	٦١، ٦٢	١٥٨
﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ﴾	٦٣ ـ ٦٦	١٥٩
﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾	٨٦	١١٤
سورة القصص		
﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ﴾	٤ ـ ٦	١٥٨
﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا﴾	٣٥	٢٦
سورة العنكبوت		
﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ﴾	١٠	١٦٢
﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾	٤١	١٥٩
﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾	٦٣	١٤٩
سورة الروم		
﴿وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾	٦	١٥٧
﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾	٢٠	٨٥
﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾	٤٧	١٥٧، ١٩٢
سورة السجدة		
﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ﴾	١٨	١١٦
﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ﴾	٢٤	١٩٨
سورة الأحزاب		
﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ﴾	٤	١٠٧

QaradawiBooks.com

الآيـــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾	٣٦	٩٣
﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا﴾	٧٢	٨٩
سورة فاطر		
﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾	٤٤	١٥٧
سورة يس		
﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾	٧٧	٨٥، ٨٨
﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾	٧٨	٨٨
﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾	٧٩	٨٨
سورة الصافات		
﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ۞ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾	٨٣، ٨٤	١١٤
سورة ص		
﴿إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾	٢٦	٨٧
﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾	٧١ ـ ٧٤	٨٩
﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾	٧٢	٨٧
﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ۞ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾	٧٧، ٧٨	٨٩
سورة غافر		
﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾	٥٧	١٤٩
﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾	٥٩	١٤٩
سورة فصلت		
﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ﴾	٦	٩٤

QaradawiBooks.com

الآيـــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة الشورى		
﴿ وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾	١٠	٩٥
سورة الزخرف		
﴿ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ﴾	٢٦، ٢٧	١١٤
سورة محمد		
﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾	١١	١٩٣
﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمۡ ﴾	٢٦	٩٥
سورة الحجرات		
﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡ ﴾	١٠	١١٣، ١١٥، ١١٩، ١٩٤
﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ ﴾	١٥	١٩٤
سورة ق		
﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ وَنَعۡلَمُ مَا تُوَسۡوِسُ بِهِۦ نَفۡسُهُۥۖ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ ﴾	١٦	٨٨
سورة الذاريات		
﴿ مَا تَذَرُ مِن شَيۡءٍ أَتَتۡ عَلَيۡهِ إِلَّا جَعَلَتۡهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴾	٤٢	١٥٦، ١٧٤
سورة الطور		
﴿ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴾	٢٨	٢١١
سورة النجم		
﴿ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ﴾	٤	٤٠

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

الآيـــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة الرحمٰن		
﴿ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۞ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ﴾	٨، ٩	١٧٠
سورة الحديد		
﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾	٤	٨٨
﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ ﴾	٢٥	٥٠، ٩٣
سورة المجادلة		
﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ ﴾	٢٢	١١٣
سورة الحشر		
﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ﴾	١٤	١٩٤
﴿ لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ﴾	٢٠	١١٦
سورة الممتحنة		
﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ ﴾	٤	١١٥
سورة الصف		
﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴾	٤	٢٦
سورة الجمعة		
﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾	٢	٤٣
سورة المنافقون		
﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ ﴾	٤	١٨١
﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾	٨	١٩٣

غير مرخصة للطباعة
نسخة تجريبية

الآيـــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة القلم		
﴿نٓ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾	١	٢١٦
سورة الجن		
﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ۞ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ﴾	٢٦، ٢٧	١٢
سورة المزمل		
﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾	٢٠	٩٤
سورة القيامة		
﴿بَلِ ٱلۡإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ بَصِيرَةٞ﴾	١٤	٩٠
سورة الإنسان		
﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا﴾	١ ـ ٣	٨٥
سورة الانفطار		
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۞ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾	٦ ـ ٨	٩٠
سورة الانشقاق		
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ﴾	٦	٩٠
سورة العلق		
﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۞ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۞ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ﴾	١ ـ ٥	٣٩، ٨٨، ٢١٦
سورة الزلزلة		
﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ﴾	٧، ٨	٤٠

QaradawiBooks.com

الآيـــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة العصر		
﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾	٣	٢٦
سورة المسد		
﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾	١	١٢١

* * *

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

غير مرخصة للطباعة

فهرس الأحاديث النبوية الشريفة

الحديث	رقم الصفحة
أ	
أتضحكون من دقَّة ساقيه؟ والَّذي نفسي بيده	١٨١
الإحسان: أنْ تعبد الله كأنَّك تراه، فإن لم تكن تراه فإنَّه يراك	٤٣
إذا التقى المسلمان بسيفيهما، فالقاتلُ والمقتولُ في النار	١١٩
إذا اشتكى منه عضو، تداعى له سائر الجسد بالسهر والحُمَّى	١٦٩، ٢١٣
اعقلها وتوكل	١٦٩
اكتبوا لي من يلفظ بالإسلام من الناس	٢١٣
الَّذين يُصْلِحُون ما أفسد النَّاس من سُنَّتي	١٤
إنَّ الله خلق آدمَ على صورته	٨٧
إنَّ الله لم يكن ليجمع أمتي على ضلالة	١٧١
إنَّ الله يبعث لهذه الأُمَّة على رأس كلِّ مائة سنة من يُجَدِّد لها دِينَها	٥، ١١، ٢٩، ٦٥، ٦٦
إنْ قامت الساعةُ وفي يدِ أحدِكم فسيلةٌ ـ نخلة صغيرة ـ	١٨
أنتم أعلم بأمر دُنياكم	٧٧، ٢١٣
انظري غُلامَكِ النجَّار، يعمل لي أعوادًا أُكلِّم الناسَ عليها	٧٧

QaradawiBooks.com

الحديث	رقم الصفحة
إنَّما بُعِثتم ميسِّرين ولم تُبْعَثوا مُعسِّرين	١٧٠
إنَّما النَّاس كإبل مائة، لا تكاد تجد فيها راحلة	١٧٩
ب	
بدأ الإسلام غريبًا، وسيعود غريبًا كما بدأ، فطُوبى للغرباء	٥، ١٤
بَشِّر هذه الأُمَّة بالسَّناء والدِّين والرِّفْعة والنصر والتمكين في الأرض	١٧
بُعثت أنا والساعة كهاتين	١٧
بماذا تقضي إنْ عرض لك قضاء؟. فقال: بكتاب الله	٤٥
ت	
تداووا يا عباد الله؛ فإنَّ الله ما أنزل داءً إلَّا أنزل له شفاء	٢١٣
تركت فيكم ما إنْ تمسَّكتم به لن تضلوا أبدًا: كتاب الله، وسنتي	٩٢
ح	
حقٌّ على كل امرئ مسلم لا يبيت إلَّا ووصيته مكتوبة عنده	٢١٦
حق الولد على الوالد أنْ يعلِّمه الكتابة والسباحة والرمي	٢١٧
س	
سِبابُ المسلمِ فسوقٌ، وقتالُه كُفر	١١٩
ص	
صلاة العصر في بني قريظة	٤٥
ط	
طلب العلم فريضة على كل مسلم	٢١٥

غير مرخصة للطباعة
نسخة فخارية

الحديث	رقم الصفحة
ك	
كان ناس من الأسرى لم يكن لهم مال، فجعل رسول الله ﷺ فداءهم	٢١٧
ل	
لا ترجعوا بعدي كفَّارًا يضربُ بعضُكم رقابَ بعض	١١٩
لا تزال طائفةٌ من أُمَّتي قائمين على أمر الله، لا يضرُّهم من خالفهم	٢٢، ٢٥، ١٧٢
لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض: الله، الله	١٤
لا طلاق في إغلاق	٦١
لا يأتي عليكم زمانٌ إلَّا والَّذي بعدَه شرٌّ منه	١٥
لا يزال العبد يتقرَّب إليَّ بالنوافل حتَّى أحبَّه، فإذا أحببتُه كنتُ سمعَه	٨٧
لا يزال من أُمَّتي أُمَّة قائمة بأمر الله، لا يضرُّهم من خذلهم، ولا من خالفهم	٢٥
لا يؤمن أحدكم حتَّى أكون أحبَّ إليه من والده وولده والناس أجمعين	١٢٩
لقد كان من قبلكم ليُمَشَّط بمشاطِ الحديد ما دونَ عظامهِ من لحمٍ	١٦٠
ليبلغنَّ هذا الأمرُ ـ يعني: هذا الدين ـ ما بلغ الليلُ والنهار	١٧
ليس منَّا من دعا إلى عصبيَّة، وليس منَّا من قاتل على عصبيَّة	١٢٠
لينتهينَّ أقوامٌ يفتخرون بآبائهم الَّذين ماتوا، إنَّما هم فحم جهنَّم	١٢١
م	
ما بال أقوام لا يفقِّهون جيرانهم ولا يعلِّمونهم ولا يعظونهم ولا يأمرونهم	٢١٨
ما ظنُّك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما	١٥٩
ما لك وما لها؟ معها حذاؤها وسقاؤها، ترد الماء وتأكل الشجر حتَّى يأتي ربُّها	٤٧
مثل أُمَّتي مثلُ المطر لا يُدرى أوَّلُه خيرٌ أو آخره	١٧

غير مرخص للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

الحديث	رقم الصفحة
مثل المؤمن يصيبه البلاء، كمثل الحديدة تدخل النار، فيذهب خبثها، ويبقى طيبها	١٦٢
مَرِضْتُ فلم تعُدْني	٨٧
المسلم أخو المسلم	١١٣
من يرد الله به خيرًا؛ يفقِّهْه في الدين	٣٥
و	
وما بال أقوامٍ لا يتعلَّمون من جيرانهم ولا يتفقَّهون ولا يتَّعظون؟	٢١٨
ومن ابتغى الهدى في غيره أضلَّه الله	٩٣
ي	
يأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة فلا يزن عند الله جناح بعوضة	١٨١
يد الله مع الجماعة	٢٦

* * *

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

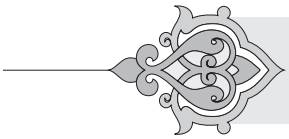

فهرس الموضوعات

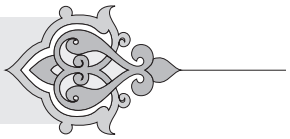

❖ **من الدستور الإلهي للبشرية** **٤**

❖ **من مشكاة النبوة الخاتمة** **٥**

• **مـقـدمـــة المؤلف** **٧**

❖ **في تصحيح المفاهيم تجديد الدِّين في ضوء السُّنَّة** **١١**

سند الحديث ١١

كلمة عن موضوع الحديث ١٢

هدف الحديث ١٣

المسلم مطالب بالعمل لدينه ودنياه دائمًا ١٧

وقفة مع الحديث ١٨

من يقوم بالتجديد؟ ١٩

مناقشة وترجيح ٢٣

ولكن متى يقع التجديد؟ ٢٨

من المجدَّد له؟ ٣٠

ما الدينُ المجدَّد؟ ٣١

معنى التجديد ٣٢

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

فما معنى التجديد هنا؟! ٣٣
تجديد الإيمان ٤٠
أهمية الإيمان في حياتنا ٤١
حاجتنا إلى تربية إيمانية ٤٢
❖ **الاجتهاد والتجديد بين الضوابط الشرعية والحاجات المعاصرة ٤٥**
إغلاق باب الاجتهاد ٤٩
❖ **الإسلام والتطور أيسلم التطوُّر أم يتطوَّر الإسلام؟ ٧٠**
مواقف النَّاس من التطور ٧١
موقف الرفض المطلق ٧١
موقف الخضوع المطلق للتطور ٧٣
الموقف الوسط وهو موقف الإسلام ٧٦
متى يتعرض المجتمع الإسلامي للخطر ٧٩
عبيد التطوُّر لا يقفون عند حدٍّ ٨١
❖ **مكانة الإنسان في الإسلام ٨٣**
❖ **حوار في قضايا فكرية مع التيارات الوافدة لا بدَّ من مقياس نحتكم إليه ٩١**
❖ **مذاهب أم عقائد وأديان جديدة؟! ٩٧**
ما هي خصائص الدين؟ ٩٨
❖ **الدعوة القوميَّة في ميزان الإسلام ١٠٨**
هل تريد أنْ أضرب لك مثلًا؟ ١٣٦
❖ **بين بواعث الأمل وعوامل اليأس العودة إلى الإسلام بين اليائسين والآملين ١٣٩**

غير مرخص للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

❖ **هذه الأُمَّة لن تموت** **١٦٨**
الأُمَّة ١٦٨
خصائص متفردة ١٦٩
أمة خالدة ١٧١
العملاق ينتفض ١٧٥
❖ **أمنية عُمَرِيَّة أو حاجتنا إلى رجال** **١٧٨**
❖ **القوَّة الَّتي لا تُغلَب** **١٨٥**
❖ **هل نحن مؤمنون؟** **١٩٢**
❖ **طريق لا طريق غيره** **٢٠٠**
❖ **الإسلام دعوة إلى العلم والتقدم** **٢٠٥**
الذين يحقدون على الإسلام ٢٠٦
لا اتهام بغير برهان ٢٠٧
الذين يتلمسون للبرآء العيب ٢٠٨
الحل الإسلامي... ندعو إلى حوار علمي ٢١٠
الدين الحق ليس ضدَّ التطوُّر ٢١١
❖ **كافِحُوا الأمِّيَّة** **٢١٥**
• **فهرس الآيات القرآنية الكريمة** **٢٢٣**
• **فهرس الأحاديث النبوية الشريفة** **٢٣٧**
• **فهرس الموضوعات** **٢٤١**

* * *

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

فهرس كتب المجلد

١٢٩ ـ الصحوة الإسلاميَّة من المراهقة إلى الرشد ٥

١٣٠ ـ من أجل صحوة راشدة ٥٤١

* * *

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية